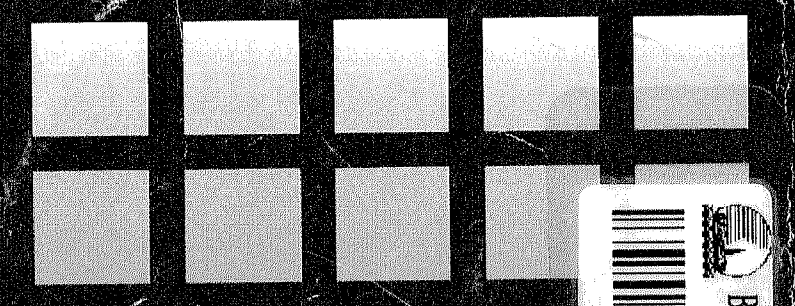
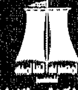
أدبيات

المدائح النبوية

الدكتور محمود علي مكي


Bibliotheca Alexandrina
0101262





مكتبة لبنان
الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

أدبيات

المدائح النبوية

إشراف الدكتور محمود علي مكي

أستاذ الأدب الأندلسي – كلية الآداب بجامعة القاهرة

وعضو مجمع اللغة العربية

أدبيات

١- المدائح النبوية
٢- المديح
٣- الشعر الديني
٤- الادب الديني الاسلامي

المدائح النبوية

تأليف : الدكتور محمود علي مكي


مكتبة لبنان


الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩١
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩١

رقم الإيداع : ٤٨٤٢ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ٤ - ٠٠٢١ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رقم الكمبيوتر 01 R 160351

طبع في دار نوبار للطباعة - روض الفرج - شبرا - القاهرة

إلى أستاذي

الدكتور شوقي ضيف

من مُريدٍ له ، مُغْتَرِفٍ من عِلْمِهِ ، مُعْتَرِفٍ بِفَضْلِهِ .

محمود علي مكي

المحتويات

الصفحة

تمهيد :

عاش محمد بن عبد الله ﷺ بعد فترة من انقطاع رسالات السّماء تبلغ نحو ستّة قرون منذ ظهور دعوة المسيح بن مريم عليه السلام ، وكانت دعوة الإسلام التي بُعث بها محمد هي آخر رسالات السّماء ، جاءت متمّمة لما سبقها ؛ ولهذا فقد كانت رسالة محمد موجّهة للبشريّة كلّها « وما أرسلناك إلا كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً » (سورة سبأ ، آية ٢٨) .

ولم تمتدّ الحياة كثيراً برسول الإسلام ﷺ إذ لم تكد تتجاوز اثنتين وستين سنة (بين سنتي ٥٧٠ و ٦٣٢ لميلاد المسيح) . وكانت السّنوات التي انقضت بين بعثته ﷺ و وفاته لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة قمريّة ، قضى منها ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو « عشيرته الأقربين » من قريش ومن خالطهم من القبائل المجاورة ، فلم يستجب له إلا عدد قليل . أما السّنوات العشر التي قضاها الرّسول في المدينة فهي التي شهدت انتشار دعوة الإسلام السّريعَ ودخول النّاس في دين الله أفواجاً ، وإنه لتبدو من المعجزات قدرةُ الرّسول ﷺ على تحويل هذا المجتمع البدويّ ، الذي كانت تمزّقه العصبيّات القبليّة إلى « أمّة » موحّدة واعية بمكانها من التّاريخ ، وبرسالتها التي قدّر لها أن تغيّر مسار البشريّة . كلُّ ذلك في عشر سنوات فحسبُ ، وهي حقبة لا تكاد تُعدُّ في تواريخ الأمم .

ولا شكَّ في أن هذا التغيُّر الهائل يرجع إلى ما قامت عليه الدَّعوة الإسلاميَّة من مبادئ ومفاهيم جديدة لم يكن للعالم « المتحضِّر » آنذاك عهدٌ بها . ولكن علينا أن نذكر أن جانباً كبيراً من نجاح الدَّعوة الإسلاميَّة كان يرجع إلى شخصيَّة المبعوث بتلك الرِّسالة الجديدة ، الذي اصطفته الإرادة الإلهيَّة لكي يكون آخر من يحمل كلمة السَّماء إلى الأرض ؛ ذلك أن محمداً ﷺ لم يدَّع لنفسه أكثر مما وهبه الله : كان عبداً لله يبذل كلَّ ما وسعته طاقته البشريَّة لهداية قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويتعرَّض في سبيل ذلك لأذى المُعرِضين عنه الكافرين برسالته ، فيتحمَّل منهم ذلك في إنابة ورضاً بقضاء الله ، فيهتف مناجياً ربَّه في تواضع المقرِّ بعبوديَّته : « اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي وقلَّة حيلتي وهواني على النَّاس ، يا أرحمَ الرَّاحمين ، أنت ربُّ المُسْتَضْعَفِينَ ، وأنت ربِّي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي ، أم إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي .»(١)

والقرآن الكريم نفسه يحثُّ الرَّسول ﷺ على أن يؤكِّد هذه الصِّفة البشريَّة فيه « قل سبحان ربِّي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (سورة الإسراء ، آية ٩٣) ، « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد » (سورة فُصِّلت ، آية ٦) ، وذلك حتى يُخلِص المؤمنون بدعوة الإسلام عبادَتَهم لله وحده ، ولا يقعوا فيما وقع فيه بعض أهل الدِّيانات السَّابِقة من عبادة أنبيائهم دون الله : « ما كان لبشر أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبوَّة ثم يقول للنَّاس كونوا عباداً لي من دون الله » (سورة آل عمران ، آية ٧٩) . وقد كان ذلك شيئاً جديداً استغربه أبناء جيله ممن رأوه يخالطهم ولا يترفَّع عليهم ، وكأنَّ الرَّسولَ في نظرهم لا يكون رسولاً إلا إذا أتى لهم بما يخرق نواميس الطَّبيعة ، مع أن

(١) هذه هي كلمات الرَّسول حينما توجَّه إلى الطَّائف ساعياً إلى قبيلة ثقيف لكي يقبلوا دعوة الإسلام ، فآذوه أذًى شديداً وأغروا به سُفَهاءَهم . انظر سيرة ابن هشام، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص٤٢ .

الرُّسل من قبله كانوا بشراً مثله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطَّعام ويمشون في الأسواق » (سورة الفرقان ، آية ٢٠) .

لقد أتت الرِّسالة المحمَّديَّة مُبَشِّرةً بعصر جديد وفكر جديد فيما يتعلَّق بالنُّبوَّة ، عصر يعتدُّ بالعقل ، وفكر لا يحاول أن يبهر الأبصار بخوارِق الطَّبيعة وإنَّما يحاجُّ بالكلمة الطَّيِّبة المُقْنِعة ، والكلمة هي أرفع ما وهبه الله الإنسان مميِّزاً له عن سائر ضروب الحيوان . ولهذا فإننا نجد الإسلام أقلَّ الأديان استِناداً إلى تلك المعجزات والخوارِق ، التي كانت آياتٍ لمن سبق محمداً من الرُّسُل ، فهو لم يحوِّل العصا إلى حيَّة تسعى ، ولم يُحْيِ ِالموتى ولم يبرئ الأكمه أو الأبرص ، وإنَّما كانت معجزته الكبرى تتمثَّل في الكلمة ؛ في ذلك الكتاب الذي أنزل عليه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي تحدَّى به أهل عصره وهم أهل اللَّسَن ِوالفصاحة « قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (سورة الإسراء ، آية ٨٨) .

صحيح أن كُتُبَ السِّيرة نَسَبَتْ إلى الرَّسول ﷺ معجزاتٍ ظلَّت تتزايد وتتضخَّم بعد ذلك على مرِّ العصور ، وأضاف إليها الخيال الشَّعبيُّ كثيراً من التَّفاصيل ، غيرَ أن الاعتقاد في أكثر هذه المعجزات ليس شرطاً من شروط الإيمان الصَّحيح . ثم إن المعجزات التي ظهرت على أيدي الرُّسُل السَّابقين لم تُفلح في جذب المعاندين المُصرِّين على كفرهم إلى حظيرة الإيمان ، إلا على نحو مؤقَّت محدود ، بل كثيراً ما كان هؤلاء يتمادون في غيِّهم على الرَّغم مما شهدوه من آيات باهرة . وفي أحداث سيرة الرَّسول ﷺ ما يدلُّ على قِلَّة جدوى هذه المعجزات ، فنحن نرى عبد الله بن أبي أميَّة (وهو ابن عمَّة الرَّسول) يقول له إنه لن يؤمن له حتى يتَّخذ إلى السَّماء سُلَّماً يرقى فيه ، ثم يأتي بأربعة من الملائكة يشهدون بنبوَّته ، ثم يردف ذلك بقوله : « وأيمُ الله لو

فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أصدِّقك !»[١] . ويعود رؤساء قريش فيطلبون إلى الرّسول ﷺ أن يجعل الله له جنانًا وقصوراً وكنوزاً ويبعث معه ملكًا يصدِّقه ، فينزِّل الله تعالى على رسوله قوله « وقالوا ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيراً ؛ أو يلقَى إليه كنزٌ أو تكون له جنَّة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتَّبعون إلا رجلاً مسحوراً ؛ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً » (سورة الفرقان ، آيات ٧–٩) وينزِّل فيما قال ابن أبي أميَّة « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبُوعًا ؛ أو تكون لك جنَّة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً ؛ أو تسقط السَّماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ؛ أو يكون لك بيت من زخرف أو تَرْقى في السَّماء ، ولن نؤمن لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتابًا نقرؤه ، قل سبحان ربِّي هل كنت إلا بشراً رسولاً .» [٢]

أمَّا ما يتردَّد ذكره في كتب السِّيرة وفي المدائح النَّبويَّة من معجزاتٍ نبويَّة ، فقد يكون بعضها حدث فعلاً ، وهي ليست مستحيلة الوقوع ، غير أنها ليست في غرابة ما تمَّ على أيدي الأنبياء السّابقين . وقد تأمَّلنا آيَ الذِّكر الحكيم فلم نجد فيها نصًّا صريحًا على وقوع كثرتها الكاثرة ، هذا باستثناء ما يذكر في تفسير أوَّل سورة القمر « اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ؛ وإنْ يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا وَيقُولوا سحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » (١–٢) فقد ورد في صحيح البخاريّ وفي سنن التِّرمذيّ أن في هاتين الآيتين إشارة إلى ظاهرة كونيَّة وقعت في مكة ؛ إذ يروى عن أنس (رضه) أنه قال : « سأل أهل مكة النَّبيَّ ﷺ آية فانشقَّ القمر بمكة مرتين أو فرقتين .» على أن فريقًا من المفَسِّرين لم يسلِّموا بذلك بل قالوا : لم يقع انشقاق القمر وهو مُنْتَظَر ، أي اقترب قيام السّاعة وانشقاق القمر وأن السّاعة إذا قامت انشقَّت السَّماء بما فيها من القمر وغيره . وذكر الماورديّ

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٢) سورة الإسراء ، آيات ٩٠–٩٣ ؛ وانظر سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٦–٢٩٧ .

أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا انشقّ ما بقي أحد إلا رآه لأنه آية والنّاس في الآيات سواء . وبهذا قال الحسن البصريّ . وفسّر بعضهم قوله تعالى « وانشقّ القمر » بأن معناه وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح .» [١]

وعلى كلّ حال فإنّني أرى أن كلّ ما ينسب للرّسول ﷺ من معجزات ليس شيئًا بالقياس إلى ما وهبه الله من صفات وشمائل ، فشخصيّة محمد هي التي تبدو معجزةً حقًّا ؛ إذ إنّنا نرى فيها صورة للكمال الإنسانيّ ، وقد أجمل القرآن الكريم وصفه بكلمات قليلة ، فيها جماع للفضائل الإنسانية « وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم » (سورة القلم ، آية ٤) ، ويقول الرّسول نفسه في حديث له : « أدّبَنِي ربي فأحسن تأديبي .» [٢] وفي حديث آخر : « أنا أكرم من وفّى بذمّته .» [٣] وسيرة الرّسول وأعماله تشهد بصدق هذا الحكم ، وقد وصفته زوجه السيّدة عائشة أمّ المؤمنين (رضه) بأن خُلُقه كان القرآن ، أي أنه النّموذج البشريّ الأعلى لتطبيق المثل والفضائل التي أتت بها رسالة الإسلام . ولعلّ أبرز ما ميّز أخلاق الرّسول هو الرّحمة ، والقرآن ينصّ على ذلك نصًّا صريحًا « وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين » (سورة الأنبياء ، آية ١٠٧) ، وقد وصف الرّسول نفسه بأنه « نبيُّ التّوبة ونبيُّ الرّحمة » [٤] وسجّل القرآن ما تحلّى به من دماثة الخُلُق ولين الجانب ، وأن ذلك هو ما حبّب النّاسَ فيه وجمعهم حوله « فَبِمَا رَحْمَةٍ من الله لِنْتَ لهم ، ولو كنت فظًّا غليظَ القلب لانفضّوا من حولك » (سورة آل عمران ، آية ١٥٩) . وقد كان يحثُّ المحيطين به على أن يقتدوا به في هذه الصّفات ، فهو يقول : « أفضل ما أعطي المرءُ المسلم

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبيّ ، ج ١٧ ، ص ١٢٥–١٢٧ .

(٢) جامع الأحاديث لجلال الدين السّيوطيّ ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص [illegible]

حسن الخلق .»[١] و « إن أقربكم منّي منزلاً يوم القيامة أحاسِنُكم أخلاقاً في الدُّنيا .»[٢]

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

الفصل الأول
الرّسول في شعر معاصريه

كان الشّعر ديوانَ العرب ، وهو على حدّ قول عمر بن الخطاب (رضه) « علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه .» [1] ولا نكاد نعرف أمّةً من الأمم القديمة اهتمّت بالشّعر واحتفلت له كما اهتمّ العرب ؛ ولهذا لم يكن من الغريب أن يوظّف الشّعر في الصّراع الدّائر بين دعوة الإسلام والمُشركين ، سواء في الدَّوْر المكيّ أو المدنيّ من الدّعوة . وكان من الطّبيعيّ أن يتضمّن الشّعر المُناصر للإسلام مديحاً للرّسول ﷺ ، ويُعَدُّ هذا المديح هو البَذرة الأولى لفَنّ المدائح النّبويّة الذي قُدِّرَ له بعد قرونٍ أن يستقلّ بذاته ، ويُصبح من أكثر موضوعات الشّعر حظا من القبول والذُّيوع .

أبو طالب وشعره في مدح الرّسول

لعلّ أوّل ما نعرفه من الشّعر الذي قيل في الرّسول ﷺ في الدّور المكيّ من حياته ، هو الشّعر المنسوب إلى أبي طالب عمّ الرّسول وكافِلِهِ بعد وفاة جدّه عبد المطلب . ويقول ابن سلام إن أبا طالب كان « شاعراً جَيِّد الكلام » ويعدُّه من أبرع شعراء مكة [2] . غير أن معظم الشّعر المنسوب إليه ورد في سيرة ابن إسحاق (المتوفّى سنة ١٥٠ هـ) وهو الذي يصفه ابن سلام بأنه « كان ممن أفسد الشّعر وهَجَّنَه ، وحمل كُلّ غُثاءٍ منه .. وكان من علماء النّاس بالسِّيَر... وكان أكثر علمه بالمغازي والسِّير وغير ذلك ، فقبل النّاس عنه الأشعار ، وكان

---

(١) العُمْدَة لابن رَشيق القَيْروانيّ ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، السِّفْر الأول ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ .

يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشّعر ، أتِينَا به فأحْمِله . ولم يكن ذلك عذراً، فكتب في السِّيَر أشعار الرِّجال الذين لم يقولوا شعراً قطُّ وأشعار النِّساء فضلاً عن الرِّجال[١] .»

والواقع أن الشّعر المنسوب إلى أبي طالب في سيرة ابن إسحاق كثيرٌ كثرةً مُفرِطة ، وقد أورد بعضه ابن هشام في تهذيبه لتلك السِّيرة ، وحذف الكثير منه لشكِّه فيه ، ومع ذلك فما بقي منسوباً إليه بالغُ الكثرة حتى لقد جُمِعَ في ديوان خاصّ توجد منه نسخ مخطوطة في بعض المكتبات[٢] . ولكن تأمُّل ما ورد من هذا الشّعر في سيرتي ابن إسحاق وابن هشام يدلُّنا على أن كثيراً من هذا الشّعر موضوع .

فنحن نجد من هذا الشّعر ما زعم ابن إسحاق أن أبا طالب قاله حينما أراد عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله والدِ الرّسول ، وهي ثلاثة وعشرون بيتاً من الرَّجَز تبدأ بقوله :

كَلا وَ رَبِّ البيت ذي الأنْصابِ وَ رَبِّ ما أنْضَى من الرِّكابِ
ما قَتْلُ عبدِ الله باللِّعابِ من بين رَهْطِ عُصْبَةٍ شبابِ[٣]

وهي أبيات يعلّق عليها ابن هشام قائلاً إن هذا الرَّجز لم يصحّ عن أحد من أهل العلم بالشّعر[٤] . وهناك قصيدة أخرى نسبها ابن إسحاق لأبي طالب يذكر فيها لقاء الرّاهب بحيرا للرّسول ﷺ[٥] وهي أبيات يقول فيها[٦] :

(١) طبقات فحول الشُّعراء ، ص ٧-٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربيّ لبروكلمان ، ترجمة د. عبد الحليم النّجّار ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٣) سيرة ابن إسحاق ، تحقيق محمد حميد الله . الرّباط ، ١٩٧٦ ، ص ١٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٥) خلاصة هذا الخبر المشهور أن أبا طالب خرج في رَكْب تاجراً إلى الشام ومعه الرّسول ﷺ وهو آنذاك ابنُ تسع سنين أو اثنتي عشرة سنة ، فلما وصل الرَّكْب إلى بُصْرَى من أرض الشّام نزلوا بقرب صَوْمَعَة بها الرّاهب بحيرا وكان إليه علم النّصْرانية ، فرأى بحيرا الرسول ﷺ وغمامة تُظِلّه من بين القوم ، فصنع للرَّكب طعاماً ودَعاهم إليه . وحينما التقى بالرّسول وجّه إليه أسئلة يختبره بها ، ثم رأى خاتَم النبوة =

إنَّ ابْنَ آمِنَةَ النبيَّ محمداً عندي بمثل منازلِ الأولادِ

....

وأَمَرْتهُ بالسَّيْرِ بين عُمومَةٍ بيض ِ الوجوه مَصَالِتٍ أَنْجادِ
حتى إذا ما القومُ بُصْرَى عايَنوا لاقَوْا على شرك من المِرْصاد
حَبْراً فَأَخْبَرَهم حديثاً صادقاً عَنْهُ وَرَدَّ مَعاشِرَ الحُسّاد
قَوْما يهوداً قَدْ رأوا ما قد رأى ظِلَّ الغَمام ِ وَعِزَّ ذي الأَكياد

وهي أبيات كان ابن هشام على حقّ حينما حذفها ؛ إذ إن نسيجها من الهلهلة والرّكاكة بحيث نكاد نقطع بأنها موضوعة .

ويورد ابن إسحاق بعد ذلك شعراً كثيراً لأبي طالب معظمُهُ بهذه الصِّفة ، وقد حذف ابن هشام أكثر هذا الشّعر وأثبت بعضه ، ولكنه كان يعلّق عليه بما يفيد تشكُّكه في صحّته . ومن الواضح أنه محاولة لنظم ما يرد في السِّيرة من أخبار سيقت نثراً ، ولكنه في الغالب نظم غثٌّ يبدو من عمل القُصّاص .

ولا يستوقف نظرنا من الشّعر المنسوب لأبي طالب في مدح الرّسول إلا قصيدتُه اللاميَّة الطّويلة التي مطلعها :

لـمَّا رأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ بَيْنَهم وَ قَدْ قَطعوا كُلَّ العُرَى والوسائِلِ

وهي القصيدة الوحيدة التي نصَّ محمد بن سلام على أنها « أبرع ما قاله أبو طالب » غيرَ أنه يضيف إلى ذلك قوله : « وقد زيد فيها وطُوِّلت ، ورأيت في كتابٍ كتبه يوسف بن سعد صاحِبُنا منذ أكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد

= بين كتفيه ، وفي نهاية اللقاء نصح أبا طالب بأن يَحْذَر اليهود على ابن أخيه ؛ لأنه كائن له شأن عظيم . وتفصيل الخبر في سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٨٠-١٨٢ ، وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٦) القصيدة في اثني عشر بيتاً وقد وردت بِجُمْلَتها في سيرة ابن إسحاق ، ص ٥٥-٥٦ .

زاد الناس فيها ولا أدري أين منتهاها .»[١]

والغريب أن ابن إسحاق لم يورد من هذه القصيدة – على غير عادته – إلا سبعة أبياتٍ فقط ، على حين نراها في سيرة ابن هشام في أربعة وتسعين بيتاً .[٢] ويعلّق ابن هشام بعد روايتها بتمامها قائلاً : « هذا ما صحّ لي من هذه القصيدة ، وبعضُ أهل العلم بالشّعر ينكر أكثرها .»[٣]

ويتحدّث بروكلمان عن هذه القصيدة أيضاً ، فيرى أن قسماً منها قد يكون صحيحاً لأنه لا يزال يذكر بني هاشم أمّة واحدة لم تفترق إلى عَلَويّة وعباسيّة[٤]. والواقع أن الأمر في هذه القصيدة مُشكِل لأن أكثر أبياتها – على عكس ما نسب من شعر كثير لأبي طالب – جيّد الصّنعة تلوح عليه شواهد القِدم . وفيها يذكر الشّاعر ما لقيه الرّسول ﷺ من عنت وتكذيب من سائر بطون قريش ، وفي وسط القصيدة البيت المشهور في مدح الرّسول ، وهو الذي يعدّه بعض الرّواة مطلعها :

وأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمالُ اليَتامى عِصْمَةٌ للأرامِلِ[٥]

ومنها في مدح الرّسول أيضاً ، وهي ختامُ القصيدة :

لَعَمْري لقد كَلِفْتُ وَجْداً بأحمد ... وإخوته دَأبَ المُحِبِّ المواصل

فلا زال في الدنيا جَمالاً لأهلها ... و زَيْناً لِمَنْ والاهُ رَبُّ المُشاكِلِ

فَمَنْ مِثْلُهُ في الناس أيُّ مُؤَمَّلٍ ... إذا قاسَهُ الحُكّامُ عند التّفاضُل

حَليمٌ رَشيدٌ عادِلٌ غير طائش ... يُوالي إلَهاً ليس عَنْهُ بغافِل

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٤٤–٢٤٥ .

(٢) سيرة ابن إسحاق ، ص ١٣٧ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٧٢–٢٨٠ .

(٣) وقد نقل هذا التّعليق أيضا أبو الرّبيع الكلاعي في كتاب «الاكتفاء» ؛ ولهذا فقد جاءت عنده في ثلاثة وستين بيتاً . انظر ص ٢٨٦–٢٩٣ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٥) ثِمالُ اليتامى : ملاذهم والقائم بأمرهم .

فو اللّهِ لَوْلا أنْ أجيء بِسُنَّةٍ تَجُرُّ على أشياخنا في المحافل
لَكُنّا اتَّبَعْناه على كُلِّ حالَةٍ من الدهر جِدا غَيْرَ قول المُهَازِل
لقد علموا أنَّ ابنَنا لا مُكَذَّبٌ لدينا ولا يُعْنَى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمدٌ في أرومَةٍ تُقَصِّرُ عنها سَوْرَةُ المُتَطاول
حَدَبْتُ بنفسي دونَه وَحَمَيْتُه وَدافَعْتُ عنه بالذُّرا والكَلاكِلِ
فأَيَّدَهُ رَبُّ العِباد بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دينًا حَقُّهُ غَيْرُ باطِلِ

غير أننا نلاحظ على هذه الأبيات الأخيرة مَسحةً من الضّعف والرّكاكة والانحطاط عن مستوى ما سبقها من أبيات القصيدة ، مما يجعلنا نتشكَّك في صحّتها .

شُعراءُ الرّسول في المدينة

هاجر الرّسول ﷺ إلى يثرب بعد أن ظلَّ في مكة ثلاث عشرة سنةً يدعو إلى الدّين الجديد ، فيلاقي هو وأصحابه من تعنُّت قريش وعنادهم بلاءً كبيراً . وكانت هجرته إلى يثرب التي أصبحت تدعى « مدينة الرّسول » مُفتَتحَ طور جديد في تاريخ الإسلام ؛ إذ التفَّ حوله أهلها ، ولم يمض وقت قليل حتى اعتنق معظم أهلها الإسلامَ في صدق وإخلاص . على أن المعركة ظلّت حامية الوطيس بين المسلمين من جهة وقريش ومن والاهم من قبائل العرب من جهة أخرى . وكان سلاح الشّعر من أمضى الأسلحة في هذه المعركة ، فقد عَمَد شعراء قريش من المُشركين إلى هِجاءِ الرّسول وأصحابه من المهاجرين ومن آواهم في المدينة من الأنصار . وكان من أبرز هؤلاء الشُّعراء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (وهو ابن عمّ الرّسول) وعبد الله بن الزِّبَعْرَى وضِرار ابن الخطاب الفهريّ وأبو عزة الجُمَحي وهُبَيْرة بن أبي وهب المخزوميّ ، و عمرو بن العاص السّهميّ . فاستأذن بعض المسلمين الرّسولَ في أن ينتدب

علي بن أبي طالب (رضه) للرَّدّ على هؤلاء ، غير أن الرّسول آثر أن يضطلع شعراء الأنصار بهذه المهمّة ؛ إذ يؤثَر عنه قولُه ﷺ : « ما يمنع القومَ الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟» فقال حسّان بن ثابت: « أنا لَها .»[1] ومنذ هذه اللّحظة أصبح حسّان شاعر الرّسول الأول وأبرزَ المدافعين عن الإسلام ومُناقضي خصومه ؛ ولهذا فإنه جدير بأن نتأمّل شعره في الدِّفاع عن قضيّة الإسلام ، وفي نقض ما قاله شعراء قريش في هجاء الرّسول وأصحابه ؛ إذ إن هذا الشّعر يتضمّن نواة المدائح النّبويّة ، والنّموذج الذي حاكاه أو عارضه كثير من شعراء تلك المدائح فيما بعد .

حسّان بن ثابت

حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجيّ هو الشّاعر الوحيد من بين شُعراء الرّسول ﷺ الذي كانت له شهرة واسعة في الجاهليّة . وكان في شبيبته يتردّد على ملوك بني غسّان في الشّام ، وعلى المناذرة في الحيرة ، شأنه في ذلك كشأن الشُّعراء المحترفين للمدح من أمثال النّابغة الذُّبيانيّ والأعشى . كما كان النّاطقَ بلسان قومه من الخزرج في مساجلاته مع شاعِرَي الأوس الكبيرين قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت . فلما قَدِم الرّسول ﷺ إلى المدينة أسلم وحسُن إسلامه ، فاتّخذه الرّسول شاعره المنافح عن جماعة المسلمين بإزاء شعراء قريش ، ويكفيه فخراً أن الرّسول دعا له فقال : « اللهمَّ أيِّدْهُ بروح القُدُس .» وحينما دعاه لهجاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عمِّ الرّسول ، سأله كيف يهجوه ويهجو قومه وهو – أي الرّسول – منهم ، فقال : « والله لأسُلَّنَّكَ منهم كما يُسَلُّ الشّعْرُ من العجين !»[2] وهذا دليل على اقتداره وشدّة عارضته . وقد امتدّت الحياة بحسّان بعد وفاة

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .
(٢) الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٣٧-١٣٩ .

الرّسول ﷺ حتى أدرك خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وكانت وفاته في سنة ٥٤ هـ على وجه التّقريب .[١]

ولحسّان ديوان كبير اهتمّ العلماء بنشره من عرب وأوروبيّين ، غير أنه قد دخله كثير من الشّعر الموضوع مما يجعل تخليص شعره الصّحيح مما حُمِل عليه ، أمراً من الصّعوبة بمكان ، وفي هذا يقول محمد بن سلام : « وهو كثير الشّعر جيّده ، وقد حُمِلَ عليه ما لم يُحْمَلْ على أحد ، لما تعاضهت قريش واستَبَّتْ (تبادلت الهجاء والسِّباب) وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنَقَّى .»[٢]

والملاحَظُ هو أن معظم شِعر حسّان الإسلاميّ إنما كان من قبيل المُساجَلات والنّقائض مع شعراء قريش ، أو في رِثاء من ينال الشّهادة من الصّحابة في المعارك مع المشركين . ولهذا فإن المديح النّبويّ ليس فيها خالصاً ، وإنما يأتي عَرَضاً في أثناء تلك القصائد ، ومن أولى قصائده في ذلك همزيّته التي يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث :[٣]

عَفَتْ ذات الأصابع فَالْجِوَاءُ ... إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاءُ[٤]

وهي قصيدة نُظِمت أبياتها الأولى في الجاهليّة ؛ إذ نجد حسّاناً فيها يذكر المواضع التي كان يتردّد عليها في بلاد الشّام ليمدح أمراء بني غسّان ، كما أنه يتمدّح بشُربه الخمرَ . وأما الجزء الإسلاميُّ فيبدو أنه نظم أيضاً على فترات ، فمنها أبياتٌ تدلُّ على أنها قيلت قبل فتح مكة ، وأبيات أخرى بمناسبة هذا

---

(١) حول حسّان انظر كتاب الدكتور شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربيّ ؛ العصر الإسلاميّ ، ص٧٧-٨٣ ؛ وبروكلمان : تاريخ الأدب العربيّ ، ج ١ ، ص ١٥٢-١٥٥ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، ص ٢١٥ .

(٣) ورد في سيرة ابن هشام أن هذه القصيدة قيلت يوم فتح مكة (في سنة ثمان للهجرة) (السيرة ج ٢ / ص٤٢١) ، وفي الديوان (بتحقيق الدكتور سيد حنفي ص٧١) أنها قبل فتح مكة .

(٤) عَفَتْ : بَليت وتغيّرت ؛ وذات الأصابع ، والجواء موضعان بالشام ، وبالجواء كان منزل الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ؛ وعذراءُ قريةٌ بالشام قريبة من دمشق .

الفتح . على أن ما يهمّنا من هذه القصيدة هو الجزء المتعلّق بمديح الرّسول ﷺ وفيه يقول :

و قالَ اللّهُ قد أرْسَلْتُ عَبْداً يقولُ الحقَّ إن نَفَعَ البَلاءُ
شهِدْتُ به فقُومُوا صَدِّقُوهُ فقُلْتُم لا نُجيبُ ولا نَشَاءُ
وجبريلٌ أمينُ اللهِ فينا و رُوحُ القُدْسَ ليسَ له كِفَاءُ
ألا أبْلِغْ أبا سُفْيَانَ عَنّي مُغَلْغَلَةً (١) فقد بَرِحَ الخَفَاءُ
بأنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً و عَبْدُ الدَّارِ سادَتُها الإماءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّداً وأجَبْتُ عَنْهُ و عِنْدَ اللّهِ في ذاكَ الجَزَاءُ
أ تَهجوهُ ولَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُما الْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيفاً أمِينَ اللّهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ
أ مَنْ يَهْجُو رسولَ الله منكُمْ ويمْدَحُهُ وينْصُرُهُ سَوَاءُ ؟
فإنَّ أبي وَ والِدَهُ وعِرْضِي لِعِرْض محمَّدٍ منكُمْ وِقاءُ

ونحن نرى في هذه الأبيات أن المديح لا يحتلُّ منها إلا مكاناً ضئيلاً ؛ صحيحٌ أنه تبدو فيه بعض المعاني الإسلاميّة ، مثل إشارته إلى جبريل وروح القدس أو إشادته ببعض صفات الرّسول ﷺ ، ولكن معظم الأبيات لا تكاد تختلف في معانيها وصياغتها عن الشّعر الجاهليّ ، ولعلّ لحسّان عذراً في ذلك ؛ فقد كان عليه أن يدافع مساجليه من الشّعراء بمثل أسلحتهم . ولحسّان شِعر في وقعة بدر يناقض فيه خصوم الإسلام ؛ من أمثال ضِرار بن الخطّاب والحارث بن هشام المخزوميّ (أخي أبي جهل) وكعب بن الأشرف اليهوديّ وأبي سفيان بن الحارث ؛ ولكنه شِعر جاهليُّ الطّابع حافِلٌ بالفخر الجارح والسِّباب اللاذع ، حتى إن ابن هشام يقول بعد أن أورد قطعةً من شعره يعاير فيها الحارث بن هشام لفراره يوم بدر : « تركنا من قصيدة حسان

(١) المغلغلة : الرّسالة التي تسير من بلد إلى بلد .

ثلاثة أبياتٍ من آخرها لأنه أقذعَ فيها .»[١]

ومن الشّعر الذي قيل في يوم أُحُد ، وهو اليوم الذي محّص الله فيه المسلمين ، قصيدةٌ قالها هبيرة بن أبي وهب المخزوميّ يفخر فيها بانتصار المشركين ويشمُتُ بالمسلمين ، ومنها قوله :

قالت كِنَانَةُ أنّى تَذْهَبُونَ بنا ؟ قلنا النُّخَيْلُ فأمُّوها ومَنْ فيها
نَحْنُ الفوارِسُ يَوْمَ الجَرِّ من أحُدٍ هابَتْ مَعَدٌّ فقُلْنَا نَحْنُ نأتيها [٢]

فأجابه حسان مُذكّرًا إياه بهزيمة المشركين يوم بَدْر :

سُقْتُمْ كِنانَةَ جَهْلاً من سفاهَتِكُمْ إلى الرَّسولِ فجُنْدُ الله مُخْزِيها
أوْرَدْتُمُوها حِياضَ الموتِ ضاحِيَةً فالنّارُ مَوْعِدُها والقَتْلُ لاقيها
جَمَعْتُموها أحَابيشاً بِلا حَسَبٍ أئِمَّةُ الكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغيها
أ لا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيل اللّهِ إذ قَتَلَتْ أهْلَ القليبِ ومن ألْقَيْنَهُ فِيها [٣]

وهو شعر لا نكاد نحسُّ فيه بما يشهد بإسلامه إلا حديثَهُ عن « جند الله » وتوعُّده قتلى المشركين بالنّار .[٤] ومثل هذا نجده في قصيدة حسّان في الرد على عبد الله بن الزِّبَعْرَى في أبياته التي قالها في الشّماتة بالمسلمين يوم أحُد، وهي أبيات تتوقّد بالحِقد المسعور ، وفيها يقول :

لَيْتَ أشياخي ببدرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَج من وَقْع الأسَلْ [٥]

فأجابه حسّان بنقيضةٍ منها قوله :

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٢) النُّخيل : عين بقرب المدينة ؛ وهو يعني المدينة نفسها ، والجرّ : هو أصل الجبل .

(٣) ضاحية : بارزة للشمس ، والأحابيش : الفرق ، والطّواغي : جمع طاغية ، ويريد بأهل القليب : قتلى موقعة بدر من المشركين .

(٤) راجع شعر هُبيرة وحسان في السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٠–١٣٢ . (٥) الأسَل : الرماح .

ذَهَبَتْ بابْنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ كان مِنَّا الفَضْلُ فيها لَوْ عَدَلْ
ولقد نِلْتُمْ ونِلْنَا مِنْكُمُ وكذاكَ الحَرْبُ أحيانًا دُوَلْ (١)

ومن أجَلِّ المواقف التي تجلّى فيها حسّان مُنافِحًا عن الإسلام موقفُه حينما قدِم على الرَّسول ﷺ وفدُ تميم وفَزَارَة ليفاخِروا الرَّسول على عادتهم في المنافرات الجاهليّة ، وكان على رأس هذا الوفد عدد من سادات أولئك الأعراب ؛ منهم قيس بن عاصم المِنْقَرِيّ وعمرو بن الأهتم المِنْقَرِيّ والأقرع بن حابس المُجَاشِعِيّ ، وهؤلاء هم رؤساء تميم ، وعُيَيْنَةُ بن حِصْن الفَزَارِي فلمّا دخلوا المسجد نادوا رسول الله من وراء حجراته بأصواتٍ عاليةٍ جافية « اخرج لنا يا محمد فقد جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بخطيبنا وشاعرنا !» فخرج الرَّسول لهم وجلس النَّاس ، ولما أذن لهم بالكلام قام خطيبهم عُطارِدُ بن حاجب الدَّارِمِيّ ؛ فخطب خطبة يفخر فيها بكثرة عديدهم و وفور أموالهم وقام شاعرهم الزِّبْرِقانُ بنُ بَدْرٍ السَّعْدِيُّ فألقى قصيدة يقول فيها :

نَحْنُ الملوكُ فلا حَيٌّ يُقارِبُنَا مِنَّا الملوكُ وفينا يُؤْخَذُ الرُّبُعُ
تِلْكَ المكارِمُ حُزْنَاهَا مقارَعَةً إذا الكرامُ على أمثالِها اقْتَرَعُوا (٢)

وهي قصيدة لا نجد فيها إلا ما اعتدنا عليه من المُفاخرات الجاهليّة بالقوّة والقهر والسِّيادة والإطعام عند المَحْل .

وندب الرَّسول للرَّدّ على خطيبهم ثابتَ بْنَ قيسٍ بن الشَّمَّاس الخزرجيّ فألقى خطابًا جميلاً تحدَّث فيه عن اصطفاء الله تعالى محمدًا ﷺ لتبليغ رسالته ، وعن دعوة الإسلام واستجابة الأنصار لها ودفاعهم عنها . وكان حسّان بن ثابت غائبًا فبعث رسول الله ﷺ إليه ، فلما سمع قصيدة الزِّبرقان

---

(١) القصيدتان في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٣٦-١٣٨ .

(٢) قوله « فينا يؤخذ الربع » يشير به إلى أنه كان من عادة العرب في الجاهلية إذا غزوا وغنموا أن يأخذ الرئيس رُبْعَ الغنيمة خالصًا له . وقوله مُقارَعةً : أي غَلَبةً وقهرًا .

قال معارضاً لها :

إنَّ الذَّوائِبَ من فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ قد بَيَّنوا سُنَّةً للنَّاس تُتَّبَعُ
يَرْضَى بهم كُلُّ مَنْ كانَتْ سريرَتُهُ تَقْوَى الإلهِ وبالأمرِ الذي شَرَعُوا
قومٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أو حاوَلُوا النَّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ منهم غَيْرُ مُحْدَثَةٍ إنَّ الخلائِقَ – فاعْلَمْ – شَرُّها البِدَعُ
أعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ لا يَطْبَعُونَ و لا يُرْدِيهُمُ طَمَعُ
لا يَبْخَلُونَ على جارٍ بِفَضْلِهِمُ ولا يَمَسُّهُمُ من مَطْمَعٍ طَبَعُ [1]

وختمها بقوله :

أكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسولُ اللّهِ شِيعتُهُمْ إذا تفاوَتَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَعُ
أهْدَى لهم مِدْحَتي قَلْبٌ يؤازِرُهُ فيما أحَبَّ لِسَانٌ حائِكٌ صَنَعُ
فإنَّهُمْ أفْضَلُ الأحياءِ كُلِّهِمُ إنْ جَدَّ بالنّاس جِدُّ القَوْلِ أو شَمَعُوا [2]

وفي هذا الخبر ما يُصوِّر التّناقض بين الطّبيعة البدويّة الخشنة الجافية التي أتى بها هؤلاء الأعرابُ ليفاخروا الرّسول بعلوّ أصواتهم ، وبُعدهم عن التأدُّب، وطبيعة مجتمع المدينة الذي هذّب الإسلامُ خُلقَ أهله ، وجعلهم يعتدّون لا بالمال ولا بالسّطوة والغلبة ، وإنما بالحقّ والهداية . وفي هذه الواقعة نزلت آية سورة الحجرات « إن الذين يُنَادُونَكَ من وراء الحُجُرَاتِ أكْثَرُهُمْ لا يعقلون » (سورة الحجرات ، آية ٤) . وعلى الرّغم مما نذكره من ذلك الجفاء البدويّ الذي قدم به هذا الوفدُ من سادة تميم وفزارة ، فقد كان القوم لا يَخلون من ذكاء ورجاحة عقل ، مما يدلّ عليه تعليق أحد زعمائهم ؛ وهو الأقرع بن

(١) الذوائب : الرءوس والسادة ، ويعني بِفِهر قريشاً ، ولا يطبعون : لا يدنسون ، ويرديهم : يهلكهم ، والطبع : الدّنس .

(٢) يعني باللسان الصنع : الذي يحسن القول ويجيده ، وشمعوا : هَزلوا .

حابس : « والله إن هذا الرّجل لَمُؤَتّى له (أي مُيَسّر له) ! والله لشاعرُه أشعر من شاعرنا ولخطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولأصْوَاتُهُمْ أرفعُ من أصواتنا !» فهذ الاعتراف لا يصدر إلا عن طبيعة سليمة منصِفة بعيدة عن التعصُّب الأعمى ولهذا فقد انتهى المجلس بإسلام أفراد هذا الوفد جميعهم ورغبتهم في تعلُّم القرآن والتفقُّه في الدّين .(١)

ولعلّ هذه القصيدة من أكثر شِعر حسّان تشبُّعًا بالقيم الإسلاميّة الجديدة : وإن لم تخلُ أيضاً من تمدُّح بالقوّة على ما يقتضيه مخاطبةُ هؤلاء الأعراب بالمنطق الذي يفهمونه وينقادون له ، ولهذا فإننا نرى فيها توازنًا بين التّقاليد الجاهليّة الموروثة والثّقافة الجديدة التي هذّب بها الإسلامُ ذلك المجتمع الوليد .

وتبدو هذه الرُّوح الإسلاميّة جَلِيَّةً حينما نقارن بين فخره الجاهليّ وفخره الإسلاميّ : أمّا في الجاهليّة فقد كان يتمدَّح بما جرى الشُّعراء الجاهليّون على التَّبجُّح به من مفاخرَ في مثل قوله :

متى ما تَزِنَّا من مَعَدٍّ بعُصْبَةٍ وغسّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أن يُهَدَّما
بكُلِّ فَتًى عاري الأشاجع لاحَهُ قِراعُ الكُماةِ يَرْشَحُ المِسْكَ وَالدَّما
وَلَدْنَا بَني العَنْقاءِ وابْنَيْ مُحَرِّقٍ فأكرِمْ بنا خَالاً وأكْرِمْ بنا ابْنَما
نُسَوِّدُ ذا المالِ القليل إذا بَدَتْ مُرُوءَتُهُ فينا وإنْ كانَ مُصْرِما
لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسْيَافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا (٢)

(١) خبر هذه المُفاخرة في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ – ٥٦٧ ، والأغاني ، ج ٤ ، ص ١٤٦–١٥١، وديوان حسان ، ص ٢٣٣–٢٤٠ .

(٢) ديوان حسان ، ص ١٣٠–١٣١ ؛ والأشاجع : عروق في ظاهر الكف ، وهو يعني به الضُّمور ؛ ولاحه: غيَّر لونه ؛ والكُماة : جمع كَامٍ ، وهو البطل الشجاع ؛ وبنو العنقاء : هم بنو ثَعْلَبَة بن عمرو مزيقياء، وهم أجداد المَناذِرَة ملوك الحيرة ، ومُحَرِّق هو عمرو بن هند ملك الحيرة ؛ ونُسَوِّد : أي نجعله سيداً ، والمصرم : الفقير القليل المال .

فنحن نراه هنا يفتخر بالغلبة والسّطوة ، ويزعم أن من يقتل من قبيلته فإن دمه يسيل بعطرٍ كأنه المسك ، فقد كان الجاهليُّون يعتقدون أن دم الملوك طيّب الرّائحة . ويفخر بأجداده الذين وُلد من أصلابهم ملوكُ الحيرة ، ويقول إنهم يعترفون بالسّيادة لذوي المروءة منهم وإن كانوا فقراء ، ثم يصف قومه بالكرم وقِرَى الضّيف وبشدة السّطوة والبأس ، وهذه هي جِماعُ القيم والمُثل الجاهليّة. أما في ظلّ الإسلام فقد اتّخذ فخرُه نهجاً آخر مختلِفاً عن ذلك إذ يقول (١) :

كُنّا مُلوكَ النّاس قَبْلَ مُحَمّدٍ فَلمّا أتى الإسلامُ كانَ لنا الفَضْلُ
وَأكْرَمَنَا اللّهُ الذي لَيْسَ غَيْرَهُ إلَهٌ بأيّام مَضَتْ ما لَها شَكْلُ
بِنَصْرِ الإلَهِ والرّسُولِ ودِينِهِ وألْبَسَنَاهُ اسْماً مَضَى ما لَهُ مِثْلُ
أولَئِكَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْم بأسْرِهِمْ فما عُدَّ من خَيْرٍ فَقَوْمِي لَهُ أهْلُ
يَرُبّونَ بالمعروفِ مَعْرُوفَ مَنْ مَضَى ولَيْسَ عَلَيْهِمْ دُونَ مَعْرُوفِهِمْ قُفْلُ
إذا اخْتُبِطُوا لم يُفْحِشُوا في نَدِيِّهِمْ ولَيْسَ على سُؤّالِهِمْ عِنْدَهُمْ بُخْلُ
و إنْ حارَبُوا أو سالَمُوا لم يُشَبَّهُوا فَحَرْبُهُمُ حَتْفٌ وَسِلْمُهُمُ سَهْلُ
وجارُهُمُ مُوفٍ بعَلْيَاءِ بَيْتِهِ له ما نَوَى فينا : الكَرَامَةُ وَالبَذْلُ
وحامِلُهُمْ مُوفٍ بكُلّ حَمَالَةٍ تَحَمّلَ لا غُرْمٌ عَلَيْهَا ولا خَذْلُ
وقائِلُهُمْ بالحَقّ إن قالَ قائِلٌ وحِلْمُهُمُ عَوْدٌ و حُكْمُهُمُ عَدْلُ
ومنا أمِينُ المُسْلِمينَ حَيَاتَهُ وَمَنْ غَسّلَتْهُ من جَنَابَتِهِ الرُّسْلُ (٢)

فنحن نرى كيف تغيّرت المثل والقيم في فخر حسّان الإسلاميّ ، وإن كان قد بقي من قيم الجاهليّة ما استبقاه الإسلام ، فهو يمدح قومه بالسّبق

---

(١) ديوان حسان ، ص ١٤١ .

(٢) ما لها شكل : ما لها مثل ؛ يربون : يصلحون ؛ واختبطوا : قصدوا في مجلسهم ؛ والعَلْياء : الموضع المرتفع؛ والحمالة : ما يتحمله الرجل من غُرْم في الدّيَة ؛ والحلم العود : القديم المتكرر ؛ والإشارة في البيت الأخير بقوله : أمين المسلمين ، إلى سعد بن مُعاذ الأوْسي ، وبمن غسّلَتْه الرُّسل ويعني الملائكة : حَنْظَلة بن أبي عامر الذي استشهد في أحد وهو على جَنابَةٍ فغسّلته الملائكة .

إلى الإسلام ، وبنصرة الرّسول ﷺ ، وباللقب الذي أطلقه عليهم الرّسول : « الأنصار » ، وبإسداء المعروف ، وبذل المال للفقير والسّائل ، وعِفّة القول والبعد عن الفُحش ، وبالشّجاعة في الحرب وإن كانوا يؤثرون السّلم دائماً ، وبحفظ الجار ، واحتمال الدّيات والوفاء بأدائها ، وبالعدل في الحكومة ، والحلم عن الإساءة ؛ وأخيراً يذكر علمَيْن من أعلام الأنصار : سعد بن معاذ الأوسي وحنظلة (غسيل الملائكة) .

و نحسٌ بهذه السّكينة التي يُضفيها الإيمان في قصيدةٍ أخرى يفتخر فيها بقومه :

اللّهُ أكْرَمَنَا بنَصْرِ نَبِيِّهِ ... وبنا أقامَ دَعَائِمَ الإسْلام
وبنا أعَزَّ نَبِيَّهُ وكِتابَهُ ... وأعَزّنَا بالضَّرْبِ والإقْدَام
يَتَتَابَعُنا جِبْرِيلُ في أبياتِنَا ... بِفرائِض الإسلام والأحْكَام
يتلُو علينا النُّورَ فيها مُحْكَماً ... قَسَماً لَعَمْرُكَ لَيْسَ كالأقْسَام
فنكونُ أوّلَ مُسْتَحِلٍّ حَلالِهِ ... ومُحَرِّمٍ لِلّهِ كُلَّ حَرَام (١)

على أن أقرب شِعر حسّان إلى المدائح النّبويّة هي مراثيه للرّسول ﷺ . ونحن نجد في ديوانه مما يَدخل في هذا الباب أربعَ قصائدَ قِصار ، وقصيدةً خامسة طويلة وردت في سيرة ابن هشام وألحقت بالدّيوان . أمّا قصائد الدّيوان فقد شكّ راويه في صحّة اثنتين منها ، وهما اللتان تبدآن بهذين المطلعين :

نَبِّ المساكينَ أنَّ الخير فارَقَهُمْ ... مَعَ الرسول تَوَلّى عَنْهُمُ سَحَرَا

....

يا عَيْنُ جُودي بدَمْع منكِ إسبالِ ... ولا تَمَلَّنَّ من سَحٍّ وإعْوَال (٢)

والحقُّ أن نسج هاتين القصيدتين من الضّعف والرّكاكة بحيث يبدو من

(١) ديوان حسان ، ص ١٤٣ . (٢) ديوان حسان ، ص ٢١٠-٢١١ .

المستبعد أن يكون حسّان قائلهما . وتبقى بعد ذلك اثنتان أخريان يقول في أولاهما :

آلَيْتُ حِلْفَةَ بَرٍّ غيرِ ذِي دَخَلٍ ... مني أَلِيَّةَ بَرٍّ غير إفْنَاد
باللّهِ ما حَمَلَتْ أنْثَى ولا وَضَعَتْ ... مِثْلَ النَّبيِّ رَسولِ الرَّحْمَةِ الهادي
ولا مَشَى فَوْقَ ظَهْرِ الأَرْضِ من أَحَدٍ ... أَوْفَى بذِمَّةِ جارٍ أو بميعادِ
مِن الذي كانَ نُوراً يُسْتَضاءُ بِهِ ... مُبَارَكَ الأَمْرِ ذا حَزْمٍ وإِرْشادِ
مُصَدِّقًا للنَّبِيِّينَ الأُلَى سَلَفُوا ... وأَبْذَلَ النّاس للمعروف للجَادِي
خيرَ البَرِيَّةِ إنِّي كنتُ في نَهَرٍ ... جارٍ فأَصْبَحْتُ مِثْلَ المُفْرَدِ الصَّادِي [(١)]

والحقُّ أن نسيج هذه القصيدة ليس خيراً من القصيدتين السّابقتين على الرّغم من ورودها في الدّيوان بغير تشكيك في نسبتها ، ومن ورودها في مصادرَ قديمةٍ أخرى .[(٢)] ونحن نحسُّ فيها حرارة التفجُّع والألم ، غير أن فيها ليناً يجعلها أقرب إلى مراثي النّساء .

والقصيدة الرّابعة ، وهي أطول قليلاً ؛ إذ تقع في سبعة عشر بيتاً تبدأ بقوله :[(٣)]

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَنَامُ كأنَّما ... كُحِلَتْ مآقِيها بكُحْلِ الأَرْمَدِ
جَزَعًا على المَهْدِيِّ أصبحَ ثاوياً ... يا خَيْرَ مَنْ وطِئَ الثرى : لا تَبْعَدِ
جَنْبِي يقيكَ التُّرْبَ لَهْفي لَيْتَني ... غُيِّبْتُ قبلَكَ في بقيع الغَرْقَدِ
أ أقيمُ بعدَكَ في المدينة بينهم ... يا لَهْفَ نفسي ليتَنِي لم أولَدِ

---

(١) آلَيْتُ : حلفت ، والألية القسم والحَلْف ؛ والدخل : النفاق ؛ والإفناد : الكذب ، والصادي : الظمآن .

(٢) ديوان حسّان ، ص ٢٠٧–٢٠٨ ، وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٧١ ، والطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٣) ديوان حسان ، ص ٢٠٨–٢٠٩ ، وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٦٩–٦٧٠ ، والطبقات الكبرى ، ج٢، ص ٣٢٢ .

بأبي وأمّي من شهدْتُ وَفَاتَه | في يوم الاثنين النّبيِّ المُهتَدِي
فظلِلْتُ بعد وفاته مُتَبَلِّداً | يا ليتني صُبِّحْتُ سُمَّ الأسْوَد
أو حَلَّ أمرُ الله فينا عاجِلاً | في رَوْحَةٍ من يَوْمِنا أو في غدِ
فتقومُ ساعَتُنا فَنَلْقَى طيِّباً | مَحْضاً ضرائِبُه كريمَ المَحْتِدِ (١)

ثم يقول في تأبين النّبيِّ ﷺ وتَعداد صفاته وتمنّي لقائه :

نُورٌ أضاءَ على البريّةِ كُلِّها | مَن يُهْدَ للنُّورِ المُبارَكِ يَهْتَدِ
يارَبِّ فاجْمَعْنا مَعاً ونَبِيَّنا | في جَنَّةٍ تَثْنِي عُيُونَ الحُسَّدِ
في جَنَّةِ الفردَوْس واكْتُبْها لنا | يا ذا الجَلال وذا العُلا والسُّؤدُدِ
واللّهِ أسْمَعُ ما حَيِيتُ بهالِكٍ | إلا بَكَيْتُ على النّبيِّ مُحَمَّدِ

والغريبُ أن أحداً لم يشكّك في نسبة هذه المرثيّة لحسّان ، مع أن هذه الأبياتَ الأخيرة أشبهُ بابتهالات الصُّوفيّة المتأخّرين ودعواتهم ، ولسنا نستبعد أن يكون هذا الجزء قد أضيف إلى القصيدة في زمنٍ متأخّرٍ .

ونأتي إلى المرثيّة الأخيرة التي لم ترد في روايات الدّيوان ولا في طبقات ابن سعد ، ولكن ابن هشام أثبتها نقلاً عن أبي زيد الأنصاري(٢) ، وهي أطول مراثي حسّان للرّسول ﷺ ؛ إذ تبلغ ستّة وأربعين بيتاً . وهي تبدأ بوقوف الشّاعر على حُجُرَات الرّسول ومسجده ثم على قبره ، وما أثاره ذلك في نفسه من ذكريات:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ للرّسول ومَعْهَدُ | مُنِيرٌ وقد تَعْفُو الرُّسومُ وتَهْمُدُ
ولا تَمّحي الآياتُ من دارِ حُرْمَةٍ | بها مِنْبَرُ الهادِي الذي كان يَصْعَدُ
و واضِحُ آثارٍ وَباقي معالِم | ورَبْعٌ لَهُ فيه مُصَلّى وَمَسْجِدُ

---

(١) المآقي : مجاري الدموع من العين ، والأرْمَد : الذي يشتكي وجع العين ، بقيع الغَرْقَد : مقبرة أهل المدينة ، وصبحت : سقيت صباحا ، والأسود : نوع من الحيّات الخبيثة ، والضرائب : الطبائع ، والمَحْتِدُ : الأصل.
(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٦٦–٦٩٩ ، وملحقات الديوان ، ص ٣٧٧–٣٨٠ .

بها حُجُراتٌ كان ينزلُ وَسْطَهَا ... من اللّهِ نورٌ يُستَضاءُ ويُوقَدُ
معارِفُ لم تُطْمَسْ على العَهْدِ آيُها ... أتاها البِلَى فالآيُ منها تَجَدَّدُ
عَرَفْتُ بها رَسْمَ الرَّسول وعَهْدَهُ ... وَقَبراً بها واراهُ في التُّرْبِ مُلْحِدُ
ظلِلْتُ بها أبْكِي الرَّسُولَ فَأسْعَدَتْ ... عُيونٌ ومِثْلاها من الجَفْن تُسْعِدُ
يُذَكِّرْنَ آلاءَ الرَّسول وما أرَى ... لها مُحْصِياً نَفْسِي فنفسي تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةً قد شَفَّها فَقْدُ أحْمَدٍ ... فظَلَّتْ لآلاءِ الرَّسُول تُعَدِّدُ
فَبُورِكْتَ يا قَبْرَ الرَّسول وبُورِكَتْ ... بلادٌ ثَوَى فيها الرَّشِيدُ المُسَدَّدُ
وبُورِكَ لَحْدٌ مِنكَ ضُمِّنَ طَيِّباً ... عَلَيْه بِناءٌ من صَفِيح مُنَضَّدُ
تُهيلُ عليه التُّرْبَ أيدٍ وأعْيُنٌ ... عليه وقد غارَتْ بذلِكَ أسْعُدُ (١)

ونلاحظ في هذه الأبيات – فضلاً عمّا نلمسه فيها من حرارة التَّفَجُّع وحُرقة الألم – كيف وظّف الشّاعر المقدّمة الطّلليّة المعتادة عند الشُّعراء توظيفاً جديداً ؛ فكما كان الشّاعر الجاهليّ يقف على آثار المحبوبة البالية فيثير فيه ذلك مشاعرَ من الحزن والحنين ، نرى حسّانَ هنا يقف على المعاهد التي كان الرَّسول ﷺ يتنقّل بينها : مصلاه في مسجده ، وحجراته التي كان يقيم فيها ، ومجالسه في رحاب طيبة (المدينة المنورة) ؛ فيثير ذلك في نفس الشّاعر فيضاً من الألم المتجدّد لفراق الرّسول . ويستحضر صورة الرّسول بعد وفاته ، وكيف أودعه أصحابه قبرَه الشّريف يهيلون عليه التُّراب ، ويغطُّونه بألواح الحجارة ، فلا يملك إلا البُكاء ، وكأن الدُّنيا قد أظلمت بعده حتى غارت نجوم السَّماء .

(١) طيبة : هو اسم مدينة الرسول ﷺ ؛ تهمد : تبلى وتندثر ؛ المُلْحِد : الذي يضع الميت في قبره ؛ تسعد : تعين؛ الآلاء : النّعم ؛ شَفّها : أضعفها ؛ الصّفيح : الحجارة العريضة ؛ المنضد : الذي نظم بعضه فوق بعض ؛ الأسعد : النجوم .

ويتحدّث الشّاعر عن فجيعة المسلمين في الرّسول ، بل فجيعة الكو
حتى إن السّماوات والأرضين تشارك المسلمين في البكاء عليه . وي
ذلك إلى تَعْداد صِفات الرّسول وشمائله ، وما كان يُفيضه على أمّ
وحرص على الهداية ؛ غيرَ أنه يؤثر جِوار الله ، فيفارق هذه الحياة
بالملأ الأعلى تاركًا ديارَه موحشةً تبكي لفقده :

لقد غَيَّبُوا حِلْماً وعِلماً ورَحْمَةً عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لا
وراحُوا بحُزْنٍ لَيْسَ فيهم نَبِيُّهُمْ وقد وَهَنَتْ منهم ظُهورٌ و
يُبَكُّونَ من تَبْكي السَّمَواتُ يَوْمَهُ ومَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرْضُ فالناسُ
وهل عَدَلَتْ يَوْماً رزِيَّةُ هالِكٍ رَزِيَّةَ يَوْم ماتَ فيهِ مُحَمَّ
تَقَطَّعَ فيه مَنْزِلُ الوَحْي عَنْهُمُ وقد كانَ ذا نُورٍ يَغُورُ
يَدُلُّ على الرَّحمن مَنْ يَقْتَدِي بِهِ ويُنْقِذُ من هَوْل الخَزَايَا
إمامٌ لهم يَهْدِيهمُ الحَقَّ جاهِدًا مُعَلِّمُ صِدْقٍ إنْ يُطيعُوهُ يَ
عَفُوٌّ عن الزَّلاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ وإنْ يُحْسِنوا فاللّهُ بالخَيْرِ
وإن نابَ أمْرٌ لم يَقُومُوا بِحَمْلِهِ فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرُ ما
عزيزٌ عَلَيْهِ أنْ يَجُوروا عن الهُدَى حرِيصٌ على أن يَسْتَقيمُوا و
فَبَيْنَا هُمُ في ذلك النورِ إذْ غَدا إلى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِن المَوْتِ
فأصْبَحَ مَحْمُودًا إلى اللّهِ راجِعًا يُبَكِّيهِ حَقُّ المُرْسَلاتِ و
وأمْسَتْ بلادُ الحَرْمِ وَحْشًا بقاعُها لغَيْبَةِ ما كانَتْ من الوَحْي
قِفارًا سِوى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضافَها فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلاطٌ
ومَسْجِدُهُ فالمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ خَلاءٌ له فيها مَقَامٌ
فَبَكِّي رَسولَ اللهِ يا عَيْنُ عَبْرَةً ولا أعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ
وما لَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ الّتي على الناس منها سابِغٌ

فَجُودِي عليه بالدُّموع وأعْوِلي لِفَقْدِ الذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ [١]

ويعود الشّاعر لتَعْداد فضائل الرّسول ومكارم أخلاقه فيقول :

وما فَقَدَ الماضونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ولا مِثْلُهُ حتّى القيامَةِ يُفْقَدُ
أعَفَّ و أوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ وأقْرَبَ منه نائلاً لا يُنَكَّدُ
وأبْذَلَ منه لِلطَّريف وتالِدٍ إذا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بما كانَ يُتْلَدُ
وأكْرَمَ صيتاً في البيوتِ إذا انْتَمَى وأكْرَمَ جَدا أبْطَحِيا يُسَوَّدُ
وأمْنَعَ ذِرْوَاتٍ وأثْبَتَ في العُلا دَعَائِمَ عِزٍّ شاهِقاتٍ تُشَيَّدُ
رَبَاهُ وَلِيداً فاسْتَتَمَّ تَمَامَهُ على أكْرَم الخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ [٢]

ونرى في تأبين حسّان للرّسول ﷺ وفي ذكر فضائله كيف يبدو متشبِّعًا بالمفاهيم الإسلاميّة ، وكيف تتخلّل نسيجَ هذه الأبيات عباراتٌ من آي الذِّكر الحكيم ، أو من أحاديث الرّسول صائغًا إيّاها صياغة شعريّة جميلة . فهو في وصفه لشمائل النّبي يضمِّن أبياته معنى الآية القرآنيّة « لقد جاءكم رسولٌ من أنْفُسِكمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم » (سورة التّوبة ، آية ١٢٨) وحديثه عن التّيسير على النّاس ورفع الحرَج عنهم يبدو مستوحًى من حديث للرّسول ، وقد أكثر النّاس عليه قائلين : « أ علينا حرج في كذا ؟» فقال : « أيُّها النّاس ، إن دين الله يسير .» يقولها ثلاثًا .[٣] والبيت الأخير كأنه مأخوذ من قول الرّسول ﷺ : « أدّبني ربِّي فأحسن تأديبي .»

---

(١) أكمد : أكثر حزنا ، يغور : يبلغ الغَوْر ؛ أي ما انخفض من الأرض ، وينجد : يبلغ النجد وهو المرتفع منها ، مُقْصد : مصيب ، المرسلات : يعني بهم الملائكة ، بلاد الحرم : مكة وما اتصل بها من البقاع المقدّسة ، ضافها : حل بها ، البَلاط : ما استوى من الأرض ، الغَرْقد : شجر ، سابغ : كثير تام ، يَتَغَمّد: يشمل ويعم .

(٢) لا ينكد : لا يكدر بالمن والأذى ، الطّريف : هو المال المستحدث ، والتّالد : هو القديم الموروث ، ويتلد : يكتسب قديما ، الأبطحي : المنسوب إلى أبطح مكة ، يشير بذلك إلى شرف نسب الرسول في قريش ، ويسوّد : يعترف له بالسيادة . (٣) طبقات ابن سعد ، ج ٧ ، ص ٦٨ .

ويختم حسان مرثيّته بتمنّي لقاء الرّسول في الجنّة ، وهو غاية ما تصبو إليه نفسُه :

وليس هَوايَ نازِعًا عَنْ ثنائِهِ لَعَلّي به في جَنَّةِ الخُلْدِ أخْلُدُ
مَعَ المصطفَى أرْجُو بذاكَ جِوارَهُ وفي نَيْل ذاكَ اليَوْم أسْعَى وأجْهَدُ

وقد درس الدكتور زكي مبارك هذه القصيدة فرآها لينة من حيث النّسج ، مما جعله يتشكّك في صحّة نسبتها ، كما أنه رآها ضعيفة من الوجهة الشّعريّة .(١) على أن رأينا يختلف حولها عمّا أعرب عنه أديبنا وباحثنا الكبير رحمه الله ؛ فإننا نراها من خير ما رُثي به الرّسول ﷺ ، سواءً من حيث حرارة العاطفة أو جودة الصّياغة أو التّشبُّع بالمعاني الإسلاميّة . وإذا صحّ أن الوضع قد لحق بعض أبياتها ، فإننا نرى أن جُلّها صحيح النّسبة لحسّان . على أن الدكتور زكي مبارك ربّما كان على حقٍّ حينما رأى أن هذه المرثيّة لم تُقل عقب وفاة الرّسول ﷺ ، وإنّما قيلت بعد موته بزمان ، وأن هذا قد يفسّر ما نلاحظه فيها من نزعةٍ شبه صوفيّة .(٢) ونضيف إلى ذلك أنها اشتملت من وصف خلق الرّسول ومناقبه على ما لم تشتمله مدائحُه التي عرضنا لها من قبلُ ، كما أن فيها حقا من الرِّقّة واللّين ما لم نره في شِعر حسّان السّابق من عنفٍ وشِدّةٍ ، وتمثُّل لكثير من القيم الجاهليّة ، ولا سيّما في نقائضه وأهاجيه لخصوم الدّعوة الإسلاميّة . غير أن ذلك يفسره ما تقتضيه طبيعة الرّثاء نفسُها من حزن وانكسار ، ولعلّ هذه المرثيّة هي أقرب شعر معاصري الرّسول ﷺ إلى فنّ المديح النّبويّ الذي ازدهر بعد ذلك بقرون ؛ ولهذا فقد اهتمّ شُعراءُ المدائح النّبويّة بمعارضتها وتخميسها فيما بعد .

---

(١) المدائح النبوية ، ص ٤٤-٥٠ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠ .

كعب بن مالك :

ثلاثة من جِلّة الأنصار ندبوا أنفسهم للدّفاع عن الإسلام ، والمنافحةِ عن رسول الله ، والرّدّ بسلاح الشّعر على مُشركي قريش : أوّلهم وأشعرهم في نظر القدماء وأكثرُهم شعراً هو حسّان بن ثابت ، وقد مضى الحديث عنه . أمّا الاثنان الباقيان فهما كعب بن مالك ، وعبد الله بن رَواحَة .

أمّا كعب فقد كان من شهود بيعة العقَبة ، وتخلّف عن بَدْر ، إلا أنه شهد بعد ذلك أحُداً وما بعدها . وكان أحدَ الثّلاثة الذين تخلّفوا عن تبوك ، ثم نزلت آيات بالتّوبة عليهم ، وامتدّت به الحياة حتى توفّي في خلافة معاوية .[1]

ويصف ابن سلام كعباً بأنه « شاعر مجيد »[2] وله شعر كثير مبثوث في كتب السّيرة النّبويّة ، وقد تمّ جمعه في ديوان مستقلّ . ومعظم هذا الشّعر في مشاهد الرّسول ﷺ وغزواته ، وفي مناقضة شعراء قريش ؛ ولهذا كانت قصائده حماسيّة ذات موسيقى صاخبة مدوّية ، وإن كان الإسلام وحبُّ الرّسول ﷺ قد هذّبا من حواشيها وأجريا فيها تيّاراً من الإيمان النّقي الخالِص .

فهو يقول في يوم بدر ، وإن كان لم يشهده ، مُتحدّثاً عن نصر الله لجنوده، ومُتَوَعّداً أبا سفيان بن حرب زعيمَ قريش :

فما حامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ولا صَبَرُوا به عِنْدَ اللّقاءِ
وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللّهِ يَجلو ... دُجَى الظّلْماءِ عَنّا والغِطاءِ
رسولُ اللّهِ يَقدُمُنا بأمْرٍ ... مِنَ امْرِ اللّهِ أحْكِمَ بالقضاءِ
فما ظفِرَتْ فوارِسُكُمْ ببدْرٍ ... وما رَجَعُوا إليكم بالسّواءِ
فلا تَعْجَلْ أبا سفيانَ وارْقُبْ ... جيادَ الخَيْل تَطْلُعُ من كُدَاءِ

(١) الإصابة لابن حَجَر العسقلاني ، ترجمة رقم ٧٤٣٨-ج ٥ ، ص ٦١٠ ، وآية براءتهم في سورة التوبة، آية ١١٨ .

(٢) طبقات فُحول الشعراء ، ص ٢٢٠-٢٢٣ .

بنَصْرِ الله رُوحُ القُدْسِ فيها ... ومِيكالٌ ، فيا طِيبَ المَلاءِ [1]

وكان ضِرارُ بن الخطاب الفهري ، شاعر قريش ، قد تهدَّد المسلمين بعد وقعة بدر وأنذرهم بالانتقام لهزيمتهم فيها ، فقال :

عَجِبْتُ لفَخْرِ الأوْس والحَيْنُ دائرُ ... عليهم غَداً والدَّهْرُ فيه بَصَائِرُ

فأجابه كعبُ بن مالك بقوله :

عجِبْتُ لأمْرِ اللّهِ واللّهُ قادِرُ ... على ما أرادَ ، لَيْسَ لِلّهِ قاهِرُ
قضى يَوْمَ بَدْرٍ أنْ نُلاقِيَ مَعْشَراً ... بَغَوْا وسَبيلُ البَغْي بالنَّاس جَائِرُ
وفينا رَسولُ اللّه والأوْسُ حَوْلَهُ ... لَهُ مَعْقِلٌ منهُمْ عزيزٌ وناصِرُ
فلَمَّا لَقيناهُمْ وكُلٌّ مُجَاهِدٌ ... لأصحابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْس صابِرُ
شهِدْنا بأنَّ اللّه لا رَبَّ غَيْرُهُ ... وأنَّ رسولَ اللّهِ بالحَقِّ ظاهِرُ
وقد عُرِّيَتْ بِيضٌ خِفافٌ كأنَّها ... مقابِيسُ يُزْهِيها لعَيْنَيْكَ شاهِرُ
بِهِنَّ أبَدْنَا جَمْعَهُمْ فَتَبَدَّدُوا ... وكانَ يُلاقِي الحَيْنَ مَنْ هُوَ فاجِرُ
فكُبَّ أبو جَهْلٍ صَرِيعاً لِوَجْهِهِ ... وعُتْبَةُ قَدْ غادَرْنَهُ وَهْوَ عاثِرُ
وشَيْبَةُ والتَّيْمِيُّ غادَرْنَ في الوَغَى ... وما مِنْهُمُ إلاَّ بِذِي العَرْش كافِرُ
فأمْسَوْا وَقودَ النارِ في مُسْتَقَرِّها ... وكُلٌّ كَفورٍ في جَهَنَّمَ صائِرُ
وكانَ رسولُ اللّه قد قالَ أقْبِلُوا ... فَوَلَّوْا وقالُوا : إنَّما أنْتَ ساحِرُ
لأمْرٍ أرادَ اللّهُ أنْ يَهْلِكُوا بِهِ ... ولَيْسَ لأمْرٍ حَمَّهُ اللّهُ زَاجِرُ [2]

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥-٢٦ . وحامت : أي دافعت ، مشتق من الحماية ، وكُداء : موضع بمكة ، والإشارة في البيت الأخير إلى نُصرة الملائكة للمسلمين ، والملاء : يقصد الملأ ، وهم أشراف القوم وسادتهم .

(٢) البيض الخِفاف : يعني السيوف ، والمقابيس : جمع مِقْباس وهو شعلة النار ، ويُزهيها : يحرِّكها ، والإشارة بعد ذلك إلى مصارع نَفَر من زعماء قريش في وقعة بدر ، منهم أبو الحكَم عمرو بن هشام ، المعروف بأبي جَهْل ، وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة . والتَّيْمِيّ هو عُمير بن عثمان من بني تَيْم بن مُرَّة ، و حَمَّهُ اللّهُ: قدَّره .

ولكعب قصيدةٌ طويلة يردُّ بها على هُبَيْرَة بن أبي وهب المخزومي بعد يوم أحُد ، وفيها تصويرٌ رائع لالتفاف المسلمين حول رسول الله وطاعتِهم له طاعةً نابعة من الإيمان الخالص ، ثم لإقبالهم على الاستشهاد في سبيل نصرة دينه :

وفينا رَسولُ اللّه نَتْبَعُ أمْرَهُ ... إذا قالَ فينا القَوْلَ لا نَتطَلَّعُ
تَدَلَّى عليهِ الرُّوحُ من عِنْدِ رَبِّهِ ... يُنَزَّلُ من جَوِّ السَّماءِ ويُرْفَعُ
نُشاوِرُهُ فيما نُرِيدُ وقَصْرُنَا ... إذا ما اشْتَهَى أنَّا نُطِيعُ ونَسْمَعُ
وقالَ رسولُ اللهِ لما بَدَوْا لنا ... ذَرُوا عنكُمُ هَوْلَ المَنِيَّةِ واطْمَعُوا
وكُونوا كَمَنْ يَشْرِي الحياةَ تَقَرُّبًا ... إلى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ ويُرْجَعُ
ولَكِنْ خُذُوا أسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا ... على اللّهِ إنَّ الأمْرَ لِلّهِ أجْمَعُ

....

ونَحنُ أُنَاسٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً ... على كُلِّ مَنْ يَحْمِي الذِّمَارَ ويَمْنَعُ
بَنُو الحَرْبِ لا نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ ... ولا نَحْنُ مِمَّا جَرَّتِ الحَرْبُ نَجْزَعُ (١)

ولكعب شعرٌ كثير في رثاء قتلى أحُد ، وفي مناقضةِ ضِرار بن الخطاب وعمرو بن العاص (وكان لا يزال على شِرْكه) ، ومن ذلك قوله ، وفيه تتجلّى روح التَّضحية في سبيل الله والمسارعة إلى الشَّهادة :

أبْلغْ قُرَيْشاً وَ خيْرُ القَوْل أصْدَقُهُ ... و الصِّدْقُ عِنْدَ أولي الألْبَابِ مَقْبُولُ
أنْ قَدْ قَتَلْنَا بقَتْلانَا سَرَاتَكُمُ ... أهْلَ اللّواءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ القِيلُ ؟
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ... فيه مَعَ النَّصْرِ مِيكالٌ وجِبْرِيلُ
إن تَقْتُلُونَا فَدِينُ الحَقِّ فِطْرَتُنَا ... والقَتْلُ في الحَقِّ عِنْدَ اللّهِ تَفضِيلُ
وإنْ تَرَوْا أمْرَنَا في رَأيكُمْ سَفَهاً ... فَرَأيُ مَنْ خَالَفَ الإسْلامَ تَضْلِيلُ (٢)

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٣١-١٣٦ ، وقصرنا : غايتنا .
(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

وهي قصيدةٌ رائعة تنبض بإيمان قويّ وسكينةٍ نابعة من الرِّضا بقضاء الله ، ولسنا نستبعد أن يكون كعب بن زهير قد وضعها نصب عينيه حينما نظم قصيدته المشهورة في مديح رسول الله والاعتذار له .

ولكعبٍ قصيدتان مشهورتان في وقعة الخندق وهزيمة الأحزاب ، وفيهما يصوِّر ارتداد المشركين عن المدينة وقد خاب رجاؤهم ، في مزيج من الحماسة المتّقدة والإيمان المطمئنّ المستكين إلى إرادة الله :

أبْقَى لنا حَدَثُ الحُروبِ بَقِيَّةً   مِنْ خَيْرِ نِحْلَةِ رَبِّنا الوَهَّابِ

....

ومَوَاعِظٍ من رَبِّنا نُهْدَى بها   بِلِسانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فاشْتَهَينَا ذِكْرَهَا   من بَعْدِ ما عُرِضَتْ عَلى الأحْزَابِ
حِكَماً يَرَاها المُجْرِمُونَ بزَعْمِهِمْ   حَرَجاً ويَفْهَمُها ذَوُو الأَلْبابِ (١)

ويختمها بهذا البيت الذي تتصاعد فيه سخريّته من قريش وتعييرُه لهم مُتَنَبِّئًا لهم بهزيمةٍ ساحقة :

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّها   وَ لَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلابِ (٢)

وهو بيتٌ يذكر ابنُ هشام أن الرَّسول ﷺ قال له عنه : « لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا ! » (٣)

ويقول في القصيدة الأخرى :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ   بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٩-٢٦١ ، والنِّحلة : العطية ، وحَرَجا : حراماً .

(٢) سَخينَة : لقب كانت تُنبَزُ به قريش ، وهو طعام يتخذ من الدّقيق كان يؤكل في شدة الدهر وغلاء السعر فعيّروا بأكلها .

(٣) السيرة ، ج ٢، ص ٢٦١ ، وطبقات ابن سلام ، ص ٢٢٢ (بعبارة مختلفة بعض الشيء) .

فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تَسُنُّ سُيُوفَهَا   بَيْنَ المَذَادِ وبَيْنَ جِزْعِ الخَنْدَقِ (١)

ويعبِّر في خاتمتها عن مدى طاعة المسلمين للنَّبيِّ ﷺ وعقيدتهم الثابتة في النَّصر على يديه :

وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَ نُجِيبُهُ   وإذا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لَمْ نُسْبَقِ
و مَتَى يُنَادِ إلى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا   ومَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فيها نُعْنِقِ
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ   فينا مُطاعُ الأَمْرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ
فَبِذاكَ يَنْصُرُنا و يُظْهِرُ عِزَّنَا   ويُصِيبُنَا من نَيْلِ ذاكَ بِمِرْفَقِ
إنَّ الذينَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّداً   كَفَرُوا وَضَلُّوا عن سَبِيلِ المُتَّقِي (٢)

وحينما أجمع الرَّسول ﷺ المسيرَ إلى الطَّائف ، بعد فراغه من وقعة حُنَيْن في السَّنة الثَّامنة للهجرة ، كان كعب بن مالك هو المعلنَ لذلك ، المُنْذِرَ به باسم الرَّسول ﷺ ، وذلك حيث يقول (٣) :

قَضَيْنَا من تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ   و خَيْبَرَ ثم أَجْمَمْنَا السُّيوفَا
نُخَيِّرُهَا ولو نَطَقَتْ لقالَتْ   قَواطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفا
فَلَسْتُ لِحاصِنٍ إنْ لَمْ تَرَوْهَا   بساحَةِ دارِكُمْ منها أُلُوفا
و نَنْتَزِعِ العُروشَ بِبَطْنِ وَجٍّ   و تُصْبِحْ دارُكُمْ منها خُلُوفَا

....

وكَمْ من مَعْشَرٍ أَلَبُوا عَلَيْنَا   صَمِيمَ الجِذْمِ مِنْهُمْ والحَلِيفَا
أَتَوْنَا لا يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءً   فَجَدَّعْنَا المَسَامِعَ والأُنُوفا
لأَمْرِ اللهِ والإسلامِ حَتَّى   يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلاً حَنِيفا

---

(١) السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٦١-٢٦٣ . و المعمعة : صوت التهاب النار ، والأباء : القصب ، والمأسدة : موضع الأسود ، والمذاد : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، والجزع : الجانب .

(٢) الحومات : مواطن القتال ، ونعنق : نسرع .

(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٧٩-٤٨٠ ، وطبقات بن سلام ، ص ٢٢١ .

وتُنْسَى اللاتُ والعُزّى وَ وَدٌّ   ونَسْلُبَها القَلائِدَ والشُّنُو

وللدّلالة على مدى تأثير هذا الشّعر في خدمة قضيّة الإسلام نور يرويه ابن حجر عن ابن سِيرين التّابعيّ : « قال كعب بن مالك بيتين إسلام دوس .» ثم أنشد البيتين الأوّلَيْن من هذه القطعة ، وقال : « ذلك دوسًا قالوا : «« خذوا لأنفسكم ؛ لا يَنْزِلْ بكم ما نزل بثقيف »»

عبد الله بن رواحة

ونأتي إلى ثالث شعراء الرّسول ﷺ ؛ عبد الله بن رَوَاحة الخَزْرَج من سادة الأنصار ، وهو أحد النُّقباء في بيعة العقبة ، وكان من كُتّا وشهد معه مغازيَهُ كلَّها إلى أن استشهد في غزوة مؤتة في ال للهجرة .[٣] وما حُفِظ من شعره قليل بالنِّسبة لشعر صاحبيه . عل بينه وبينهما اختلافًا يسجّله أبو الفرج الإصفهانيّ إذ يقول : « رسول الله ﷺ ثلاثة رهط من قريش ؛ عبد الله بن الزِّبَعْرَى وأبو الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ، فكان يهجوهم ثلاثة حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ؛ فـ وكعب يعارضانهم بمثل قولهم ، بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكُفْر . فكان في ذلك الزمان عليهم قولُ حسّان وكعب ، وأهْوَنَ القول عليهم قولُ ابن رواحة .

---

(١) تِهامة : ما انخفض من أرض الحجاز ، والمقصود موقعة حُنين بها ، أجممنا : أرحنا قبيلتان ، وثقيف هم ساكنو الطائف ، والحاصن : المرأة العفيفة ، والعُروش : سقوف لست ولدًا لهذه المرأة العفيفة إن لم أحقق ما أوعدكم به . و وَج : من أسماء الطائف ، و وألبوا : جمعوا ، والجِذم : أصل القبيلة ، والحليف : يعني حلفاءها ، وجَدّعْنا : قطعنا ، شَنْف وهو القُرْط ، يريد ما كانت تُزيّن به هذه الأصنام : اللاتِ والعُزّى و وَد من حَلْي .

(٢) الإصابة ، ج ٥ ، ص ٦١١ .

(٣) عن ابن رواحة : انظر الإصابة لابن حَجَر ، ترجمة ٤٦٧٩–ج ٤ ، ص ٨٢–٨٦ الشعراء ، ص ٢٢٣–٢٢٦ .

وفقهوا الإسلام ، كان أشدَّ القول عليهم قول ابن رواحة [١] .» وهي ملاحظة دقيقة ربما تفسّر لنا قلة ما وصل إلينا من شعر ابن رواحة ؛ إذ إن من أسلموا من قريش ممن كان يهجوهم آثروا أن ينسوا ذلك الشّعر الذي أصبح « أشدّ الشّعر عليهم » .

وهي بعدُ ملاحظةً صائبة ؛ فقد رأينا في شعر حسّان وكعب بن مالك بقايا غير قليلة من التّقاليد الجاهليّة القديمة ، بما فيها من عصبيّة واعتداد بالمآثر القديمة وتعييرٍ بالمثالب ، وإن خفّف من حِدّتها تأثُّر بهَدي الإسلام وتعاليمه .

أما القِطع القليلة التي احتفظت لنا بها المصادر من شعر ابن رواحة فنحن نرى فيها بالفعل عميقَ إيمانه . ومن بين هذه القطع رثاؤه لحمزة بن عبد المطلب ، عمِّ الرّسول ﷺ ، في وقعة أُحُد وفيها يقول :

بَكَتْ عَيْني وَ حُقَّ لها بُكَاها — وما يُغْني البكاءُ ولا العَويلُ
على أسَدِ الإلَهِ غداةَ قالُوا — أ حَمْزَةُ ذاكُمُ الرَّجلُ القتيلُ
أصيبَ المسلمونَ به جميعًا — هناك وقد أصيبَ به الرّسولُ
عليكَ سلامُ رَبّكَ في جِنانٍ — مُخَالِطُها نَعِيمٌ لا يَزُولُ [٢]

ومن شعره قطعة أخرى يخاطب بها أبا سفيان في غزوة بدر الموعد في السّنة الرّابعة للهجرة ، وإنّما سمّيت كذلك لأن الرّسول ﷺ واعد أبا سفيان عند بدر ، غير أن أبا سفيان آثر السّلامة وبدا له في الرّجوع ، فقال في ذلك عبد الله بن رواحة :

وَعَدْنَا أبا سُفْيَانَ بَدْرًا فلَمْ نَجِدْ — لميعادِهِ صِدْقًا وما كانَ وافِيا
فأقْسِمُ لو وافَيْتَنا فَلَقِيتَنا — لأبْتَ ذَمِيمًا وافْتَقَدْتَ المَوَاليا

(١) الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٣٧–١٣٨ .
(٢) الاكتفا للكلاعي ج ٢ ، ص ١٣١ .

تَرَكْنَا بها أوْصَالَ عُتْبَةَ وابْنَهُ و عَمْراً أبَا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثاويا
عَصَيْتُمْ رسولَ الله أفٍّ لِدِينِكُمْ و أمْرِكُمُ السَّيْءِ الذي كانَ غاويا
فإنِّي وإنْ عَنَّفتُمُوني لَقَائِلٌ فِدًا لرسولِ اللّهِ أهْلِي وَ مَالِيا
أطَعْنَاهُ لم نَعْدِلْهُ فينا بِغَيْرِهِ شِهاباً لَنَا في ظُلْمَةِ الليل هادِيا (١)

وقد اضطرب رُواة السِّيرة في نسبة هاتين القطعتين الأخيرتين بين ابن رواحة وكعب بن مالك . على أننا نرى فيهما ، ولا سيما في القطعة الأخيرة ، تصديقاً للحُكم الذي ورد في كتاب الأغاني في المقارنة بين حسّان وكعب من ناحيةٍ وابن رواحة من ناحية أخرى ، فهو وإن كان يتوعَّد أبا سفيان في قوةٍ واعتداد فإننا نراه يُعَيِّرُ المشركين بكفرهم وضلالهم ، ثم يعبر عن إخلاصه و ولائه للرّسول حتى إنه يفديه بأهله وماله . وهذا هو ما يجعلنا نرجّح نسبة القطعة لعبد الله بن رواحة .

ويبدو هذا الإيمانُ الخالص في الأبيات التي كان يرتجز بها وهو آخذٌ بخطام ناقة رسول الله ، حين دخل مكة في عُمرة القضاء سنة سبع للهجرة :

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فكُلُّ الخَيْرِ في رَسولِهِ
يارَبِّ إنِّي مؤمنٌ بِقيلِهِ أعْرِفُ حَقَّ اللهِ في قَبُولِهِ (٢)

بل يصلُ به إخلاصُه لعقيدته إلى حدِّ تمنِّيه الشَّهادةَ حينما بعثَه في الجيش الخارج إلى مؤتة سنة ثمانٍ للهجرة ، وكان الرّسول قد أمَّر على هذا البعث زيد ابن حارثة ، وأوصى بأنه إن أصيب فأمير الجيش جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة ، فلما آن وقت الخروج للغزو قال وهو يتأهّب للمَسير :

(١) الاكتفا ، ج ٢ ، ص ١٥٦-١٥٧ ، والإشارة في البيت الثالث إلى قتلى المشركين في غزوة بدر ، وهم عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وأبو جهل عمرو بن هشام .
(٢) الاكتفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، و ورد الرَّجَز كاملا في سيرة ابن هِشام ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

لكِنَّنِي أسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وضَرْبَةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أو طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تَنْفُذُ الأَحْشَاءَ والكَبِدَا
حتَّى يُقالَ إذا مَرُّوا على جَدَثِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ من غازٍ وَقَدْ رَشَدَا (١)

وحينما تقدَّم الرَّسول ﷺ ليودِّعه أنشد :

أَنْتَ الرَّسولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ و الوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَزْرَى به القَدَرُ
فَثَبَّتَ اللَّهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ في المُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كالَّذي نُصِروا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فيكَ الخيرَ نافِلَةً فِراسَةً خالَفَتْ فِيكَ الَّذي نَظَرُوا (٢)

وحقَّق الله لابن رواحة ما تمنَّاه ؛ فقد تقدَّم باللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قُتِلَ ، وتلاه جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قُتِلَ ، وتقدَّم ابن رواحة فقاتل حتى استشهد وهو مقبِل غير مُدبِر ، وهو ينشد :

يا نَفْسُ إلا تُقْتَلِي تَمُوتي هذا حِمامُ المَوْتِ قد صَلِيتِ
وما تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعطِيتِ إنْ تَفْعَلي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ (٣)

شُعراء آخرون

هذا عن شعراء الرَّسول ﷺ الناطقين بلسانه ، المُنافحين عن دعوته ، وقد مدح الرَّسولَ شعراء آخرون ، يحسُن بنا أن نشير إلى بعضهم ؛ إذ إن كلَّ هذه المدائح تعدُّ نواةً للمديح النَّبويِّ حينما تحوَّل إلى غرض مستقلٍّ من أغراض الشِّعر .

---

(١) الاكتفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ ، والسيرة ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ . وذات فَرْغ : واسعة ، الزَّبد : رَغْوة الدم ، حَرَّان : شديد ، ومجهزة: سريعة القتل ، والجَدَث : القبر .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، الاكتفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ . والنافلة : الهِبَة والعَطِيَّة من الله ، ويقصد بالضمير في « نظروا » المشركين .

(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ، والاكتفا ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ . ويعني بالضمير في « فعلهما » أميري الجيش السابقين ، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب .

فمن هؤلاء أبو قيس صِرْمَة بن أبي أنس من بني عديّ بن النّجّار ، وكان في الجاهليّة من المُتحنّفين ، ويذكر أنه ترهّب واتخذ متعبّداً له وفارق الأوثان ، وتُروى عنه أشعارٌ قالها يَحُضُّ فيها على الخير والتّقوى وأعمال البرّ ، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسُن إسلامه . وكان مما قاله قصيدةٌ يذكر فيها ما أكرمهم الله به من نعمة الإسلام ، وما خصّهم الله به من نزول الرّسول عليهم ، ويستوقف النّظر في هذه القصيدة ما تَتّسِمُ به من طابع قَصَصيّ ، كأنه أراد أن يؤرّخ لدعوة الإسلام :(١)

ثَوَى في قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَديقاً مُواتِيا
ويَعْرِضُ في أَهْلِ المَوَاسِمِ نَفْسَهُ ... فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤوِي ولم يَرَ داعِيا
فَلمَّا أَتَانا أَظْهَرَ اللّهُ دِينَهُ ... فَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَيْبَةَ راضِيا
وأَلْفَى صَدِيقاً واطْمَأَنَّتْ بِهِ النَّوَى ... وكانَ له عَوْناً مِنَ اللّه بادِيا
يَقُصُّ لَنَا ما قالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ ... وما قالَ مُوسَى إذْ أجابَ المُنادِيا
فأَصْبَحَ لا يَخْشَى مِنَ الناس وَاحِداً ... قَرِيباً ولا يَخْشَى مِنَ الناس نائِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الأَمْوالَ من حِلِّ مالِنا ... وأَنْفُسَنا عِنْدَ الوَغَى والتَّآسيا
نُعَادِي الذي عادَى مِنَ الناس كُلِّهِمْ ... جَميعاً وإنْ كانَ الحبيبَ المُصَافِيا
فَطَأْ مُعْرِضاً إنَّ الحُتُوفَ كثيرةٌ ... وإنَّكَ لا تُبْقِي لِنَفْسِكَ باقِيا
فَوَاللّهِ ما يَدْرِي الفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي ... إذا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللّهُ واقِيا

وهناك طائفةٌ من الشُّعراء عادَوْا الإسلام ، بل هجوا الرّسول ﷺ هجاءً

---

(١) القصيدة كاملة في سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٥١٢ ؛ والاكتفا ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ؛ وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ . ثوى : أقام واستقرّ ، والحِجّة : السّنة ، والمُواتي : الطائع ، وطَيْبة : المدينة ، وكان اسمها يثرب ، والثَّربُ هو الفساد ؛ فنهى الرسول ﷺ عن أن تُسمّى يثرب ، وسمّاها طابَة وطَيْبَة، بمعنى الطّيب، وألفى : وجد ، والنّوى : الدار ، واطمأنّت به النّوى : أقام، والوَغَى : الحرب ، والتّآسي في المال : أن تعطي شخصاً منه ، أو تجعله مساويا لك فيه ، وفي المصائب : التّسْلية والتّعْزية ، والحُتوف: جمع حَتْف ، وهو الهلاك .

شديداً ، فلما أظهر اللّه دينَه وتمَّ فتح مكة ، خرجوا إلى الرّسول ﷺ لائذين بعفوه ، فأسلموا وقالوا شعراً يعتذرون فيه عمَّا أسْلَفوا من إساءة . وأبرز هؤلاء بغير شكٍّ ؛ كَعْبُ بن زُهَيْر ، وله مكانةُ من هذا الحديث ، على أنّنا نذكر منهم عبد الله بن الزِّبَعْرَى الذي طالما التحمت بينه وبين شعراء الرّسول نقائضُ عنيفة ، فحين منَّ الله عليه بالإسلام قال يخاطب الرّسول ﷺ :(١)

مَنَعَ الرُّقادَ بَلابِلٌ و هُمُومُ　　والليلُ مُعْتَلِجُ الرِّواقِ بَهِيمُ
مِمَّا أتاني أنَّ أحْمَدَ لامَنِي　　فيه فَبِتُّ كأنّني مَحْمُومُ
إنِّي لَمُعْتَذِرٌ إلَيْكَ مِنَ الّذِي　　أسْدَيْتُ إذْ أنا في الضّلالِ أهيمُ
أيامَ تَأمُرُني بأغْوَى خُطَّةٍ　　سَهْمٌ وتأمُرُني بها مَخْزُومُ
وأمُدُّ أسْبابَ الرَّدَى ويَقُودُني　　أمْرُ الغُوَاةِ وأمْرُهُمْ مَشْئُومُ
فالْيَوْمَ آمَنَ بالنبيِّ محمدٍ　　قَلْبِي ومُخْطِئُ هذِهِ مَحْرُومُ
مَضَتِ العَداوةُ وانْقَضَتْ أسْبَابُها　　و دَعَتْ أواصِرُ بَيْنَنا وحُلُومُ
فاغْفِرْ فِدًى لَكَ والِدَايَ كِلاهُمَا　　زَلَلي فإنَّكَ راحِمٌ مَرْحُومُ
و عَلَيْكَ من عِلْمِ المليكِ عَلامَةٌ　　نُورٌ أغَرُّ وخاتَمٌ مَخْتُومُ
أعْطاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ　　شَرَفًا وبُرْهَانُ الإلَهِ عَظِيمُ
ولَقَدْ شَهِدْتُ بأنَّ دِينَكَ صادِقٌ　　حَقٌّ وأنَّكَ في العبادِ جَسِيمُ
واللّهُ يَشْهَدُ أنَّ أحْمَدَ مُصْطَفًى　　مُسْتَقْبَلٌ في الصّالحينَ كريمُ (٢)

ومنهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو الذي مرّت بنا مناقضاته مع حسان بن ثابت ، وكان قد أسلم والرّسولُ ﷺ في طريقه لفتح

(١) السِّيرة ، ج ٢ ، ص ٤١٩ ؛ وطبقات ابن سلام ، ص ٢٤٢ ؛ والاكتفا ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

(٢) البلابل : الوَساوس ، معتلج الرواق : مضطرب متراكب ، بهيم : شديد السواد ، مَحْموم : مُصاب بالحُمّى ، أسْدَيْت : صنعت ، يعني ما قاله من شعر قبل إسلامه ، الأواصر : قرابة الرحم ، حلوم : جمع حِلْم ، ضد الطَّيْش والسَّفَه ، وبمعنى العقل أيضا ، والجمع أحلام ، جسيم : عظيم ، مُسْتقبَل : منظور إليه ملحوظ .

مكة ، فدخل عليه وقال معتذراً عمّا كان مضى منه :(١)

لَعَمْرُكَ إنِّي يَوْمَ أحْمِلُ رايَةً لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكالْمُدْلِج الحَيْرَانِ أظْلَمَ لَيْلُهُ فَهَذا أوَانِي حِينَ أهْدَى وأهْتَدِي
هَدَانِيَ هادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلَّنِي عَلَى اللّهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ
أصُدُّ وَأنْأى جَاهِداً عن محمدٍ و أُدْعَى وإنْ لَمْ أنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدِ (٢)

ومنهم أَنَسُ بن زُنَيْم الدِّيلي الذي قال يمدح الرَّسول ﷺ ويعتذر إليه ، وذلك بعد فتح مكة :(٣)

أ أنْتَ الذي تُهْدَى مَعَدٌّ بأمْرِهِ بل اللّهُ يَهْدِيهِمْ وقالَ لَكَ اشْهَدِ
وما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوقَ رَحْلِها أبَرَّ و أوْفَى ذِمَّةً من مُحَمَّدِ
أحَثَّ على خَيْرٍ وأسْبَغَ نائِلاً إذا راحَ كالسَّيْفِ الصَّقيل المُهَنَّدِ
وأكْسَى لِبُرْدِ الخالِ قَبْلَ ابْتِذَالِهِ وأعْطَى لِرَأس السّابِق المُتَجَرِّدِ
تَعَلَّمْ رسولَ اللهِ أنَّكَ مُدْرِكِي وأنَّ وَعيداً منكَ كالأخْذِ باليَدِ
ونَبُّوا رسولَ اللهِ أنّي هَجَوْتُهُ فَلا حَمَلَتْ سَوْطِي إليَّ إذَنْ يَدِي (٤)

وينقل ابن حَجَر عن كتاب طبقات الشُّعراء لِدِعْبِل الخُزاعي أن البيت الثاني من هذه القطعة هو أصدق بيت قالته العرب .(٥)

الأعْشى والنّابِغَة الجَعْدي

وليس بوسعنا ، ونحن بصَدَد الحديث عن مادحي الرَّسول ﷺ ، أن نُهمل

(١) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٠١ ؛ طبقات ابن سلام ، ٢٤٧ . (٢) المُدْلج : الذي يسير ليلا ، أنأى : أبعد .
(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ ؛ الاكتفا ، ج ١ ، ص ٤٦٧ .
(٤) الصَّقيل : المصقول ، والمُهَنّد : السيف المطبوع من حديد الهند ، وكان خير الحديد . بُرْدُ الخال : ضرب من رفيع الثياب من برود اليمن ، والسّابق المتجرِّد : يعني به الفرس الجواد الذي يسبق الخيل .
(٥) الإصابة ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

أمر شاعرين كبيرين ، تذكر المصادرُ القديمة أنهما نظما في مديحه (عليه السلام) قصيدتين لهما شهرتُهما العظيمة . أما الأول فهو أعْشَى قَيْس ، وهو من فحول شعراء الجاهليّة ، وجعله ابنُ سَلام في الطّبقة الأولى من الشّعراء ، مع امرئ القيس وزهير بن أبي سُلمى والنّابغة الذّبياني ، وكان كثير التّنقّل في أنحاء الجزيرة وفيما تاخَمَها من أرض الشام والعراق ، وكان من أكثر شعراء الجاهليّة تكسُّباً بالشّعر .(١)

و يذكر ابن هشام في سيرته(٢) أن الأعْشى خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام ، وقد أعَدَّ قصيدةً يمدح الرّسول فيها ، فلما كان بمكة أو قريباً منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره ، فلما أخبره به قال له إن الإسلام يحرّم الزّنا ، فلم يُبال الأعشى بذلك ، فلما قال له إنه يُحَرِّم الخمر توقّف وأزْمَعَ الانصراف ؛ لكي يَتَرَوّى من الخمر في عامه ثم يأتي الرّسولَ في العام القابِل ليُسلم ، ولكنه مات في هذا العام ولم يَعُدْ إلى الرّسول . أما هذه القصيدةُ التي تقع في ثلاثة وعشرين بيتاً فمطلعُها :

أ لَمْ تَغْتَمِضْ عيناكَ لَيْلَةَ أرْمَدَا ... و بِتَّ كما باتَ السَّليمُ مُسَهَّدَا (٣)

وفيها يقول متحدّثاً عن ناقته :

ألا أيُّهَذَا السّائِلي أيْنَ يَمَّمَتْ ... فإنَّ لها في أهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا

....

وآلَيْتُ لا أرْثِي لها من كَلالَةٍ ... وَلا مِنْ حَفَىً حَتَّى تُلاقِي مُحَمَّدا

متى ما تُناخِي عِنْدَ بابِ ابْن هاشِمٍ ... تُرَاحِي وتَلْقَيْ من فَوَاضِلِهِ نَدَى

(١) عن الأعشى انظر تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ، ص ٣٣٣-٣٦٥ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ج ١ ، ص ١٤٧-١٤٨ .

(٢) السيرة ، ج ١ ، ص ٣٨٦-٣٨٨ ، ويلاحظ أن ابن إسحاق لم يورد هذا الخبر أصلا .

(٣) الأرْمد : الذي تشتكي عيناه من الرّمد ، والسّليم : الملدوغ ، آليت : أقسمت وحلفت ، والكلالة : النّصَب والتعب ، تُناخي : تَبْرُكي ، يخاطب ناقته ، وتُراحي : ترتاحي وتسكني وتطمئني .

نبيًّا يَرَى ما لا تَرْونَ وذِكْرُهُ أغارَ لَعَمْري في البلا
له صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ ونائِلٌ و لَيْسَ عَطاءُ اليوم م
أجِدَّكَ لم تَسْمَعْ وَصاةَ محمدٍ نَبِيِّ الإلهِ حَيْثُ أوْصَى
إذا أنْتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ مِنَ التُّقَى ولاقَيْتَ بَعْدَ المَوْت مَنْ
نَدِمْتَ على أنْ لا تكونَ كَمِثْلِهِ فَتُرْصِدَ للأمْرِ الذي كا
فإيَّاكَ والمَيْتَاتِ لا تَقْرَبَنَّها ولا تَأخُذَنْ سَهْماً حَديدُ
وذا النُّصُبَ المَنْصُوبَ لا تَنْسِكَنَّهُ ولا تَعْبُدِ الأوْثانَ واللّ
ولا تَقْرَبَنَّ حُرَّةً كانَ سِرُّها عليكَ حَرامًا فانْكِحَنْ
وذا الرَّحِمِ القُرْبَى فلا تَقْطَعَنَّهُ لِعاقِبَةٍ ولا الأسِيرَ
وسَبِّحْ على حِينِ العَشِيَّاتِ والضُّحَى ولا تَحْمَدِ الشَّيْطانَ واللّ
ولا تَسْخَرَنْ من بائِسٍ ذي ضَرَارَةٍ ولا تَحْسَبَنَّ المالَ للمَرْءِ

وقد أثارت هذه القصيدة مشكلاتٍ كثيرةً أمام الباحثين قديماً وحد هشام يجعل هذا الخبر بعد نَقْض صحيفة قريش ، وقبل وفاة أبي طا في نحو السّنة السّابعة أو الثّامنة للبَعثة ، وكان الرّسول لا يزال في م المعروف أن الخمر لم تُحَرَّمْ إلا في المدينة بعد موقعة أُحُد ؛ أي الثّانية للهجرة ، ونزل تحريمُها في سورة المائدة ، وهي من أواخر ما نزل القرآن . فكيف يُقال للأعشى إن الإسلام يُحَرِّم الخمر قبل تحري سنوات أو ثمان ؟!

وقد تَنَبَّه إلى هذا السُّهَيْلي في شرحه لسيرة ابن هشام ، والك

(١) أغار وأنجد : يقصد بلغ كل الأماكن ما ارتفع منها وما انخفض ، ما تُغِبُّ : ما تَنْقَطع ، تستعد له ، المَيْتات : جمع مَيْتَة ، وهي الحيوان الذي مات حتْفَ أنفه ، أو على هيئة . وفَصَدَ الناقة : شقّ عروقها ليستخرج دمها فيشربه ، وكان ذلك عند القحط . النُّصُب : الص السِّر : النكاح ، والتّأبّد : التّعزُّبُ و البُعْدُ عن النّساء ، ذو الضّرارَة : الفقير المحتاج .

الاكتفا ، مما حَمَلَهُما على التَّوَقُّف عن قبول الخبر بهذا المَساق .(١) هذا إذا لم يكن الأمر قد اختَلَط على ابن هشام ، وكان تصحيحُ الخبر أن الأعشى قصد المدينة لا مكة في تاريخ لاحِقٍ لتحريم الخمر . وعلى كل حال فإن ما في الخبر من تَناقُض يجعله موضعاً للشكّ في جُمْلَتِه .

وبالإضافة إلى نَقْدِ الخبر من وجهة النَّظَر التّاريخيَّة ، فقد نظر إليه الدكتور طه حسين من وجهة أخرى فَنّيَّةٍ ، فقد رأى في هذا النَّص المنسوب للأعشى ، من رَداءَة النَّظْم وهَلْهَلَة الألفاظ ، ما يقطع بأنه مَنْحولٌ ، وضعَه قاصٌّ ضعيف الحَظّ من الشّعر ؛ فهو إلى المُتون أقرب منه إلى الشّعر الجيِّد .(٢) ويضيف الدكتور شوقي ضيف إلى ذلك نظرة فاحصة متأمِّلة لمضمون القصيدة ، فيرى أنها لا تدعو إلى تعاليمَ إسلاميَّة خالصة فحسب ، بل تكاد تكون نظماً لآيات قرآنية من مثل قوله تعالى : « و تَزَوَّدوا فإنَّ خَيْرَ الزّاد التَّقْوى » (سورة البقرة ، آية ١٩٧) و « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزير وما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ به » (سورة المائدة ، آية ٣) و « واذْكُرْ ربَّكَ كثيراً وسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإبكارِ » (سورة آل عِمْران ، آية ٤١) و « والذين في أموالهم حَقٌّ معلومٌ للسّائِلِ والمَحْروم » (سورة المعارج ، ٢٤ ، ٢٥) و « يا أَيُّها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » (سورة الحُجُرات ، آية ١١) و « ولا تَقْرَبوا الزِّنا إنه كان فاحِشَةً وساء سبيلاً » (سورة الإسْراء ، آية ٣٢) و « ولْيَسْتَعْفِفِ الّذين لا يجدون نِكاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ اللّهُ من فَضْلِه » (سورة النّور ، آية ٣٣) .(٣) وينتهي الدكتور شوقي ضيف إلى أن القصيدة مُنْتَحَلَةٌ ، وأنها لا تتَّفق ونَفْسِيَّةَ الأعشى .

---

(١) الاكتفا ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

(٢) من تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي – كتاب في الأدب الجاهلي ، ج ١ ، ص ٢٤١–٢٤٢ .

(٣) العصر الجاهلي ، ص ٣٤٢ . ويلاحظ أن جميع الآيات المذكورة مدنية فيما عدا آية سورة المعارج .

ونعتقد أخيراً أن كلَّ هذه الحُجَج كافيةٌ لِرَدِّ نِسْبة هذه المِدْحَة النّبويّة للأعشى .

أمّا النّابغة الجَعْدي ، فهو عبد الله بن قيس ، ونَسَبُه ينتهي إلى قبيلة جَعْدَة التي تنتمي إلى بني عامر ، وهو شاعر مُخَضْرَم ، ظلّ في الجاهليّة يتغَنّى بمفاخر قومه ويهجو أعداءهم من بني أسد ، ويفدُ أحيانًا على ملوك الحِيرَة من اللّخْمِيّين . وحينما انتشر الإسلام في الجزيرة وَفَدَ مع قومه على الرّسول ﷺ في السّنة التّاسعة للهجرة ، ثم شارك في الفتوح الإسلاميّة في بلاد فارس ، وانضمّ إلى صفوف الإمام عليّ ، حينما نشبت الحرب بينه وبين مُعاوية ، كما وفد على ابن الزُّبَيْر حينما دعا لنفسه ، وتُوفّي سنة ٦٥ للهجرة عن سِنٍّ عالية .(١)

وعلى الرغم من إدراك النّابغة للرّسول ﷺ و وفوده عليه وكثرة شعره الإسلاميّ ، فإننا لا نجد من مظاهر صلته بالنّبيّ ﷺ إلا إنشاءه لقصيدته الرّائيّة أمامه ، وقول الرّسول له : « أجَدْتَ ، لا يَفْضُض اللّهُ فاكَ ! » وإلا أنه أسلم وحسُن إسلامه ، وتذكر كتب الحديث النّبويّ أنّه روى عن الرّسول ﷺ حديثًا واحداً هو قوله : « أنا والنّبِيّون فُرّاط القادمين » (أو القاصفين) .(٢) وفيما عدا ذلك ، فإننا لا نجدُ في أخباره شيئًا يدلُّ على صلة وثيقة بالرّسول ﷺ ، غيرَ أن تلك العَلاقةَ العابِرَة ضَمنت له شهرةً واسعة ، سواءً في كتب الأدب ، أو في كتب الحديث وتَراجم الصّحابة .

وهذا يدعونا إلى التوقُّف عند قصيدته الرّائيّة المذكورة (٣) ؛ حتى نرى ما تضمّنته من المديح النّبويّ . وقد كانت من بين ما انْتَخَبَه أبو زيد القُرَشي في « جَمْهَرَةِ أشعار العرب » إذ جعلها أولى قصائد الطّبَقة السّادسة ، التي سمّاها:

---

(١) عن النّابغة الجَعْدي انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، ص ١٠٠-١٠٥ .

(٢) الإصابة لابن حجر ، ترجمة ٨٦٤٥-ج ٦ ، ص ٣٩١-٣٩٨ ، والفُرّاط : جمع فارط ؛ وهو الذي يتقدم القوم ويسبقهم إلى الماء ، والقاصِفون : الذين يزدحمون حتى يقصِفَ بعضهم بعضا ، يريد أنه والأنبياء يتقدمون الأمم إلى الجنة .(٣) ديوان النابغة الجعدي ، تحقيق عبد العزيز رباح ، دمشق ، ص ٥١ .

« المَشوبات » ، ويعني بها قصائدَ المُخَضْرَمين (شابَهُم أي جمعوا بين الكفر والإسلام) .

ومطلعُ هذه القصيدة :

خَلِيلَيَّ عُوجَا ساعَةً و تَهَجَّرَا ولُوما على ما أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا [١]

ويبدو من تأمُّل القصيدة ، وموضوعُها الأساسيُّ هو الفخرُ بقومه والتَّمَدُّح بمآثرهم وهجاء أعدائهم ، أنه قالها في جاهليَّته . وفي أوَّلها يتذكَّر أيَّامه الخالِيَة حينما كان يتردَّد على الحيرة ، وعلى بلاد الشام حينما كان نديماً لأمراء المَناذِرَة والغَساسِنَة ، كما يشير إلى زياراته لِنَجْرانَ حيث أوشك على أن يَعْتنق النَّصْرانِيَّة :

تَذَكَّرْتُ و الذِّكْرَى تَهِيجُ لِذِي الهَوَى و مِنْ حاجَةِ المَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ المُنْذِرِ بْن مُحَرِّقٍ أَرَى اليَوْمَ مِنْهُمْ ظاهِرَ الأَرْض مُقْفِرا
كُهولاً وشُبَّانًا كأَنَّ وُجُوهَهُمْ دنانيرُ مِمَّا شِيفَ في أَرْض قَيْصَرَا
ومازِلْتُ أَسْعَى بَيْنَ بابٍ وَدَارَةٍ بِنَجْرَانَ حتَّى خِفْتُ أَنْ أَتَنَصَّرَا
لَدَى مَلِكٍ مِنْ آلِ جَفْنَةَ خَالُهُ وَجَدَّاهُ من آلِ امْرِئِ القَيْس أَزْهَرَا [٢]

ويبدو أن الشَّاعر وهو مقدمٌ مع الوفود على الرَّسول أقحم في قصيدته أبياتاً يذكر فيها ذلك ، فقال :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللّهِ إِذْ جَاءَ بالهُدَى و يَتلُو كِتَاباً كالمَجَرَّة نَيِّرَا
وجاهَدْتُ حتَّى ما أَحِسُّ وَمَنْ مَعِي سُهَيْلاً إذا ما لاحَ ثُمَّتَ غَوَّرا

---

(١) جمهرة أشعار العرب ، ص ٧٧٠–٧٨٧ . وتهجرا : أي سيرا في الهاجِرَة ، وهي نصف النهار، وذرا : اتركا اللَّوم .

(٢) المنذر : يعني به المنذر بن النعمان بن المنذر وأبناءه من ملوك الحيرة ، ومُحَرِّق هو لقب عمرو بن هند أحد هؤلاء الملوك ، وشيف : نُقِش ، وآل جفنة : هم ملوك الغساسنة في الشام .

أقِيمُ على التَّقْوَى وأرْضَى بِفِعْلِها و كُنْتُ مِنَ النَّارِ المَخُوفَةِ أحْذَرَا [١]

وتبدو هذه الأبيات منقطعةَ الصِّلة بما قبلها وما بعدها ؛ ولذلك فقد اضطرب الرُّواة في مكانها من القصيدة ، مما يدلُّ على أنه أقحَمها إقحامًا لكي يُنشدها أمام الرَّسول ، ونراه فيها يمدحه بما أتى به من الهداية وما أُنْزِلَ عليه من القرآن ، كما يفخر بإسلامه وجهاده ومراعاته لمبادئ الدِّين وآدابه .

وفي آخر القصيدة يعود إلى الفخر بقومه فيقول :

بَلَغْنَا السَّماءَ مَجْدُنَا و جُدُودُنا وإنَّا لنبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

و يُذْكَرُ أن النَّبيَّ ﷺ قال له آنذاكَ : « إلى أين يا أبا ليلى ؟» فأجاب : « إلى الجنَّة .» فقال : « إن شاء الله !»

ويختم القصيدةَ بأبياتٍ في الحكمة يقول فيها :

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لم يَكُنْ لَهُ بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أنْ يُعَكَّرَا
ولا خَيْرَ في جَهْلٍ إذا لم يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إذا ما أوْرَدَ الأمْرَ أصْدَرَا
فَفِي الحِلْمِ خَيْرٌ في أمورٍ كثيرةٍ وفي الجَهْلِ أحيانًا إذا ما تَعَذَّرا [٢]

كعب بن زهير

ونختم هذا الحديثَ عن مُدّاح الرَّسول ﷺ في حياته بالكلام عن هذا الشَّاعر الذي تجاوزت مِدْحَتُهُ للرَّسول ﷺ شهرةَ كل المدائح السَّابقة ، وخلَّدت اسم صاحبها في تاريخ الشِّعر العربي حتى اليوم .

الشَّاعر هو كَعْبُ بن زُهَيْر بن أبي سُلْمَى المُزَنيّ [٣] ، وأبوه هو الشّاعر

(١) المَجَرَّة : مجموعة كبيرة من النجوم تتراءى في السَّماء كوشاح أبيض ، وسُهَيْل : نجم من النجوم اليمانيَّة ، غوَّر : غرَب وأفَل .

(٢) الجهل هنا هو الإسراع إلى الشر ، وأورد الأمر وأصدره : عرف كيف تكون مداخل الأمور ومخارجها .

(٣) عن كعب بن زهير انظر : العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، ص ٨٣-٨٨ ، و بروكلمان ج ١ ، ص ١٥٦-١٦٢ .

الجاهلي المعروف ، أحد أصحاب المُعَلَّقات . وقد عاش في نَجْد في كَنَف أبيه ، وكان أبوه موسِّعًا عليه في بِرّه ، فلما مات ساءت أحواله ، ولازمه سوء الحظّ فافتقر ، وكان لا يَنْمِي (أي لا يُثْمِرُ) له مال .[1] وإذا كان أبوه ، زهير، قد عُرِف بحُسن خُلقه وحُبّه للخير ، ممّا يبدو واضحاً في شعره ، فإن كعباً كان في جاهليّته على العكس من ذلك ؛ إذ يصفه شارح الدّيوان بأنه كان « رجلاً شرّيراً شرساً مُحارَفًا (أي مُضيَّقًا عليه في الرِّزق) مِمْلاقًا (أي فقيراً) » .[2] ولهذا فقد كانت عَلاقته بامرأته سيِّئة ، فكانت كثيراً ما تلومه وتهدِّده بمفارقته. وفي ديوانه قصيدتان يخاطبها فيهما حول هذا النِّزاع . يقول شارح الديوان : « وكان لا يزال يكون بينه وبين امرأته شرٌّ في فقره وسوء خُلُقه » [3] ، وهو في شعره كثيراً ما يتحدّث عن سوء حظّه و ضيق رزقه وملازَمَة الشّؤم له .[4] على أنه كان كغيره من شعراء الجاهليّة تأخذه العصبيّة لقومه إذا وقع بينهم وبين جيرانهم شرٌّ ؛ ولهذا نجد في شعره هجاءً و وعيداً لبعض القبائل المجاورة ، مثل طيِّئ والأوس والخزرج ، أهل يثرب .

ويظهر أن ما ذكرناه من سوء خُلُقه ومَيْله إلى الشّرّ ، هو الذي أخّرَ إسلامه على حين أن أخاه بُجَيْرًا كان من أسبق قومه إلى الإسلام . ويذكر أن كعباً هجاه وسخر منه لذلك ، فقال :[5]

ألا أبْلِغَا عَنّي بُجَيْرًا رسالةً   فهَلْ لَكَ فيما قلْتُ – ويْحَكَ – هَلْ لَكا
شرِبْتَ مع المأْمُون كأساً رَوِيَّةً   فَأنْهَلَكَ المأْمُونُ منها وعَلَّكا
وخالَفْتَ أسْبَابَ الهُدَى وتَبِعْتَهُ   على أيِّ شيءٍ – وَيْبَ غَيْرِكَ – دَلَّكا
على خُلُق لم تُلْفِ أمّا وَلا أبًا   عَلَيْهِ ولم تُدْرِكْ عَلَيْهِ أخًا لَكَا [6]

---

(١) انظر ديوان كعب بن زُهير ، ص ٢١٣ و ٢٢٧ . (٢) ديوانه ، ص ١٥٣ .
(٣) ديوانه ، ص ٢١٣ . (٤) ديوانه ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ . (٥) مقدمة الديوان ، ص ٣ .
(٦) رويّة : الرّويّ من الشرب : التّام المُشبع ، وكأس رَوِيّة : مشبعة مُرْوِيَة . أنْهَلَك وعَلَّكَ : سقاك مرة بعد مرة. وَيْبَ غَيْرِكَ : تعبير يُقْصد منه التّعجُّب .

وقال شارح الديوان إن المقصود بالمأمون هو الرّسولُ ﷺ ، وكان بُجَيْر قد هاجر إلى المدينة وأسلم على يديه . ولا بدَّ أن كعباً إنما أراد السُّخْرية من الرّسول ﷺ حينما سمّاه المأمون ؛ بدليل أنه يعتبر إسلام أخيه « مخالفة لأسباب الهُدى » ، ولهذا غضب الرّسول حينما أنشده بُجَيْر هذه الأبيات ، ويقال إنه توعّده . وإذا صَحَّ ذلك فلا بدَّ أن كعباً هجا الرّسول والمسلمين بما هو أقْذَع من ذلك ، وأن هذا الهجاء لم يُثْبَت في ديوانه ؛ إذ لا يُعْقَل أن هذه القطعة الصّغيرة من الشّعر تثير غضب الرّسول ﷺ إلى حد توعّده بإهدار دمه ، وقد سبق أن تعرّض من أذى شعراء قريش وغيرهم بما هو أعنف من هذه الأبيات بكثير ، فكان – كالعهد به – أقربَ إلى العفو والصّفْح . ويذكر أن بُجَيْراً أجاب كعباً بهذه الأبيات :

مَنْ مُبْلغٌ كَعْباً فَهَلْ لَكَ في الّتي ... تَلومُ عليها باطِلاً وَهْيَ أحْزَمُ
إلى اللّه لا العُزّى ولا اللاتِ وَحْدَهُ ... فَتَنْجو إذا كانَ النّجاءُ وتَسْلَمُ
لَدَى يَوْم لا يَنْجو و لَيْسَ بمُفْلِتٍ ... مِنَ النارِ إلا طاهِرُ القَلْبِ مُسْلِمُ
فَدِينُ زُهَيْرٍ وَهْوَ لا شَيْءَ دِينُهُ ... و دينُ أبي سُلْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ (١)

فلمّا قَدِم رسول الله ﷺ المدينةَ بعد انصرافه من الطّائف ، وذلك في السّنة الثّامنة للهجرة عاوَدَ بجيرٌ الكتابة لأخيه . وكان بُجير قد شارك في غزوة حُنَين ، وقال فيها شعراً يدلُّ على مدى إخلاصه للإسلام ، يقول فيه :

اللّهُ أكْرَمَنَا وأظْهَرَ دِينَنا ... وأعَزَّنا بِعبادَةِ الرَّحْمَن
واللّهُ أهْلَكَهُمْ وفَرَّقَ جَمْعَهُمْ ... و أذَلَّهُمْ بِعِبادَةِ الشَّيْطانِ (٢)

كما شارك أيضاً في حصار الطّائف وقتال المشركين من ثَقيف ، وكان من

---

(١) حَزَمَ : ضبط أمره وأحكمه وأخذ فيه بالثقة ، وهي أحزم : أي أصوبُ و أوثق .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

شعره في هذه الوَقعة :

لم يَمْنَعُوا مِنَّا مَقَامًا واحِداً ... إلا جِدارَهُمُ و بَطْنَ الخَنْدَقِ
و لَقَدْ تعرَّضْنَا لِكَيْمَا يَخْرُجُوا ... فَتَحَصَّنُوا مِنَّا بِبابٍ مُغْلَقِ [1]

فحين عاد بُجير إلى المدينة في صحبة الرّسول ﷺ أخذته صلةُ الرَّحِم بأخيه ، فكتب إليه يقول إن النّبيَّ ﷺ يهمٌّ بقتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين ، ودعاه إلى القدوم عليه ؛ لأنه لا يقتل أحداً جاء تائباً ، وإلا فَلْيَمْعِنِ الهرب والنَّجاءَ في الأرض .

ولما جاء كعباً كتابُ أخيه ضاقت به الأرضُ وأَرْجَفَ به أهلُه ، وقالوا إنه مقتول ، وأبتْ قبيلته مُزَيْنَة أن تُؤويه ؛ فقدم المدينة ونصحه رجل كان يعرفه ، بأن يذهب إلى الرّسول فيستأمنه . ثم أتى الرّسول وكان لا يعرفه ، فجلس بين يديه وقاله له : « إن كعب بن زهير أتاك تائبا مسلماً ، فهل أنت قابلٌ منه إن جئتك به ؟» قال : « نعم .» قال : « فأنا كعب .» فوثب رجل من الأنصار طالباً من الرّسول أن يضرب عنقه فكفّه النّبيُّ . وفي هذا المشهد أنشد كعب قصيدته :

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُجْزَ مَكْبُولُ [2]

فلمّا فرغ من إنشاد القصيدة كساه الرّسولُ ﷺ بُرْدَةً اشتراها معاوية بعد ذلك من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها هو والخلفاء من بعده في العيدين تَبَرُّكًا بها ؛ ولهذا لُقِّبَتْ القصيدة بالبُرْدَة .

وتقع القصيدة – كما وردت في الدّيوان – في سبعة وخمسين بيتاً [3] ، وهي تبدأ – على عادة الشِّعرِ الجاهلي – بمقدمة غَزَلِيَّة في ثلاثة عشر بيتاً ،

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ . (٢) الخبر في مقدمة الديوان ، ص ٤–٥ ، والقصيدة في الديوان ص ٦–٢٥ . بانت : فارقت ، مَتْبول : هالك ، مكبول : مقيد .

(٣) وأضاف أبو زيد القرشي إليها بيتاً واحداً ، فهي عنده في ٥٨ بيتاً ، جمهرة أشعار العرب ، ص ٧٨٨–٨٠٠ .

يصف فيها صاحبته وصفاً حِسّيا ، فهو يشبّهها بِظَبْيٍ جميل العينين ، رَخيم الصَّوْت ، ولا يرى بأساً ، وهو في حضرة الرّسول ﷺ ، في أن يتحدَّث عن ثغرها الذي يبدو ، في عذوبة ابتسامته وجمال ثناياه وطيب رائحته ، كأنه قد سُقِيَ بخمر ممزوجة بماء صافٍ نقيّ ، ويصل ذلك بالحديث عن هذه الصّاحبة التي لا تعطي وعداً إلا أخلفته ، ولا تُطْمِعُ مُحِبَّها في وَصْل إلا كذَّبت ظنّه وخيَّبت أمله ، فهو لا يتمسَّك من وصلها إلا بحبل واهٍ رَثٍّ . ويدلُّ تقبُّلُ الرّسول لهذه القصيدة بمثل هذه المقدّمة الغزليّة ، بل وإثابته صاحبَها ، على سماحته ، ورَهافَةِ حِسِّه ، وتذوُّقه للشّعر ، واحترامه لتلك التّقاليد الفنّيّة التي جرى عليها الشُّعراء فيما ينظمون من شعر حتى أصبحت من معالمه الرّاسِخَة .

وينتقل الشّاعر بعد هذه المقدّمة الغَزَليّة إلى مقدّمة أخرى تقليديّة أيضاً في وصف النّاقة ، وهي تقع في عشرين بيتاً ، وفي ثنايا هذا الوصف نجد تصويراً رائعاً للصّحراء في ساعة الهَجير عند اشتداد الحرارة ، ولحركة النّاقة الدّائِبَة في ذلك القَيْظِ المُهْلِك . وهذه المقدمة – وإن بدت استطراداً لا عَلاقةَ له بموضوع القصيدة الأساسيّ – لا تخلو من إيحاءات لها دلالتُها ، فكأن الشّاعر يريد أن يصوّر عذابه وهو يُغِذُّ السَّيْرَ في هذه الصّحراء المُحْرِقة باحثاً عن النّجاة ، بعد أن بلغه وعيدُ الرّسول له ، وتشبيهاته لذلك ذات صِبْغَة قاتمة ، مُنْذِرَة بسوء المصير . فهو يصوّر لنا قِمَم الجبال النَّخِرة السّوداء وقد علاها السّراب ، وقد الْتَظَت الصّحراء بلهيب الهَجير ، وقد تقافَزَت على الرّمال الحارقة جَنادِبُ رماديّة اللون ، وحادي الإبل ينصح الرَّكْبَ بأن يركنوا إلى شيء من الرّاحة ، ويبحثوا عن ظلٍّ يقيهم حرارة الظّهيرة ، غيرَ أن ناقته ماضية في سيرها السّريع ، وكأن قوائمها في حركتها السّريعة المتلاحِقة ذراعا امرأةٍ مات لها زوجٌ أو ولدٌ حبيب ؛ فهي ذاهلة العقل لا تكفُّ عن لطم وجهها وتقليب يديها ، ومن حولها نساء يشاركْنها في مصيبتها فهنّ لا يَفْتَأن يندُبن

مَنْ فقدْنه في لوعة وحرقة ، ويلطمن خدودهنّ ، ويمزّقن ثيابهنّ عن صدورهنّ :

كَأَنَّ أوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرِقَتْ ... و قد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيلُ
و قالَ لِلْقَوْمِ حادِيهِمْ وقد جَعَلَتْ ... وُرْقُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى : قِيلوا
شَدَّ النهارِ ذِراعَا عَيْطَلٍ نُصُفٍ ... قامَتْ فَجَاوَبَها نُكْدٌ مَثَاكِيلُ
نَوَّاحَةٍ رِخْوَةِ الضَبْعَيْنِ ليسَ لها ... لَمَّا نَعَى بِكْرَها النَّاعُونَ مَعْقُولُ
تَفْرِي اللَّبَانَ بكَفَّيْهَا ومِدْرَعُهَا ... مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيها رَعَابِيلُ (١)

وقد يضيق قارئُ اليوم بهذه الأبيات وما اشتملت عليه من ألفاظ غريبة ؛ غير أنه ينبغي أن نُقدِّر أن هذه الألفاظ لم تكن غريبة على من يستمعون إليها في عصر الشاعر ، وأن نقدِّر أيضاً أن هذه المقدِّمات ، سواء منها الغزليَّة أو الخاصَّة بوصف الإبل أو الصَّحراء ، لم تكن مجرَّد استطرادٍ بعيدٍ عن موضوع القصيدة الرَّئيسي ، مما جعل بعض النقاد يعتقدون أن تلك القصائد مُفَكَّكَة لا تضمُّ أجزاءها وَحْدَةٌ ، وكأنها صدرت عن ذهن مشتَّت ، يلقي الكلام كيفما اتَّفَق ، بل إننا نرى وحدة فنِّيَّة لا تبدو لأوَّل وَهْلة ، بل تحتاج إلى مزيد تأمُّل يسمح بتبيُّنها واستبطانها . فالشّاعر يريد أن يصور جَوَّ الفزع الذي كان يعيش فيه وهو مهدَّد بوعيد الرَّسول ، ولهذا فإنه يقدِّم لنا صوراً متلاحقة كلها تهيئ الذِّهن لمشاركته ذلك الإحساسَ العميق بالرَّهْبة والخوف .

ولهذا فإن الشّاعر بعد هاتين المقدِّمتين لا يلبث أن يَلِجَ إلى موضوعه ،

(١) أوْب : رجع ، تَلَفَّع : التحفَ ، القور : جمع قارَة ؛ وهي الجبل المرتفع ذو الحجارة السود ، العَساقيل : السراب ، الوُرْق : جمع أورق ؛ وهو الرّمادي ، قيلوا : أريحوا في ساعة القَيْلولة ، شدَّ النهار : ارتفاعه ؛ وهي منصوبة على الظرفية ، العَيْطَل: المرأة الطويلة ، النُّصُف : المرأة المتوسطة السنّ ، النُّكدُ المثاكيل : النساء المشئومات اللاتي ثَكِلْن (أي فقدن) أزواجهن أو أولادهن ، الضَّبْعان : العَضُدان ، و رَخاوة الضَبْعَيْن : كناية عن سرعة الحركة ولطم الوجوه ، والبِكْرُ : هو الولد الأول ، المعقول : العقل ، تفري : أي تشق ، اللّبان : الصدر ؛ ويريد الثياب التي تغطيه ، المِدْرَع : القميص ، التراقي : جمع تَرْقُوَة ، وهي إحدى العظمتين اللتين في أعلى الصدر ، رعابيل: خِرَقٌ مُمزَّقة .

فَيصِل كلامه عن ناقته بالحديث عن أصحابه المحيطين به ، وهم يتنبأون له بسوء المصير ، فهو مقتول لا مَحالَة ، ويتخلّى عنه كلٌّ من عَلّق عليهم الأمل من أصدقائه ، فهم مشغولون عنه لا يملكون له نفعاً ، وحينئذ لا يرى مفرا من مواجهة مصيره وحدَه ، فهو يدعوهم أن يتركوه وشأنه ، فكل ما قدَّره الله كائنٌ لا مَرَدَّ له ، ويختم هذا التأمُّل بحكمة يقول فيها إن غاية كل إنسان الموت ، وأن يُحْمَل على أعواد نَعْشٍ يُفْضِي به إلى مثواه الأخير :

يَسْعَى الوُشَاةُ بِجَنْبَيْهَا و قَوْلُهُمُ : إنّكَ يا بْنَ أبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
و قالَ كُلُّ خليل كُنْتُ آمُلُهُ لا أُلْفِيَنَّكَ إنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فقُلْتُ : خَلُّوا طريقِي لا أبَا لَكُمُ فكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحمنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ يَوْماً على آلةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ (١)

ويُصَرِّح بعد ذلك بسبب هذا الفزع القاتل الذي استولى عليه ؛ فهو وعيد الرّسول له ، غير أنه يَسْتَمْسِك بحبل الرّجاء ، فيستعطفه ويَسْتَرِقُّ قلبه بأمله في أن يعفو عنه ، ويدعوه إلى أن يَتَثَبَّت في أمره ، وهو الذي لا يقضي إلا بالحقّ ولا يهتدي إلا بِهَدْي القرآن ؛ ولهذا فإنه يدعوه إلى أنْ لا يأخذ بأقوال مُبغضيه الذين يريدون الإيقاع به ، وقولُ كعب هذا هو الذي يرجّح عندنا أن ما أسلَفه الشّاعر من جُرْم يتجاوز تلك الأبياتَ الأربعة التي أجاب بها على رسالة أخيه بُجَيْر : .

أُنْبِئْتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوْعَدَنِي و العَفْوُ عِنْدَ رسول اللهِ مأمولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الّذي أعْطَاكَ نافِلَةَ الـ ـقُرْآنِ فيها مَوَاعيظٌ و تَفْصِيلُ
لا تَأْخُذَنّي بِأقوالِ الوُشاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ ولَوْ كَثُرَتْ عَنّي الأقاوِيلُ
لَقَدْ أقُومُ مَقَاماً لو يقومُ بِهِ أرَى وأسْمَعُ ما لَوْ يَسْمَعُ الفِيلُ

(١) بجنبيها : يقصد بجنبي ناقته ، لا أُلْفِيَنّك : لا أكون معك في شيء ، الآلة الحَدْباء : يريد بها النّعْش ، ومعنى الحَدْباء : المُقَوّسَة .

لَظَلَّ يَرْعَدُ إلا أنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرّسول بإذْنِ اللّهِ تَنْوِيلُ
حتّى وَضَعْتُ يَميني لا أُنَازِعُهُ ... في كَفِّ ذِي نِقَماتٍ قِيلُهُ القِيلُ
لَذَاكَ أهْيَبُ عِنْدِي إذْ أُكَلِّمُهُ ... وقيلَ إنَّكَ مَسْبُورٌ و مَسْئُولُ
من ضَيْغَمٍ من ضِراءِ الأسْدِ مُخْدَرُهُ ... بِبَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَها غِيلُ
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغامَيْنِ عَيْشُهُمَا ... لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَاذِيلُ
إذا يُساوِرُ قِرْنًا لا يحِلُّ لَهُ ... أنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلا وَهْوَ مَفْلُولُ
منه تَظَلُّ حَميرُ الوَحْش ضامِزَةً ... ولا تَمَشَّى بِوَادِيهِ الأراجِيلُ
ولا يزالُ بِوادِيهِ أخُوَ ثِقَةٍ ... مُطَرَّحُ البَزِّ والدِّرْسان مَأكولُ (١)

وفي الأبيات التّسعة الأخيرة صورتان انتزعهما الشّاعر من العالم الحيواني ، الأولى ربما تَحْمِلُ قارئ اليوم على الابتسام لما يخطر بباله من سذاجتها ؛ فهو يقول إنه رأى وسمع من وعيد الرّسول له ، ومِمّا حَلَّ بمن لهم مثلُ جُرمه ما لو رآه أو سمعه الفيل لظل يرتعد رعبًا ، إلا أن يبذل له الرّسول الأمان ؛ ذلك أن قارئ اليوم قد تعوّد على رؤية الفيل في حدائق الحيوان ، أو في حلبات « السيرك » وقد امتطى ظهره الأطفال ، أو وهو ينقاد لأوامر مُرَوِّضه طيِّعًا وديعًا ، ولهذا فإنه قد لا يَسْتَسيغ هذه الصّورة التي أراد الشّاعر أن يهوِّل بها في تصوير ما أصابه من فزع . على أنه ينبغي علينا أن نضع أنفسنا في سياق مجتمع الشّاعر ، فالفيل قد ارتبط في أذهان عرب الجاهليّة وصدر الإسلام بتلك الحملة الجائِحَة التي تعرّض لها البيت الحرام ، وهي التي اقتحم فيها أبْرهة

(١) النّافِلَة : العَطِيَّة ، التَّنْويل : العَطاء ، والمراد هنا الأمان والعفو ، ذو نقمات : أي شديد الانتقام ، قيله القيل: قوله الصادق الحقُّ ، مَسْبور : مُمْتَحَن ، الضيغم : الأسد ، ضِراء : جمع ضارٍ وهو المفترس ، مُخْدَره : مَكْمنه أو غَيْضَته التي يتخذها خدراً له ، عَثَّر : موضع معروف بكثرة أسوده ، الغيل : الشجر الملتفّ ، يُلْحِمُ ضِرْغامَيْن : يُطْعِمهما اللّحم ، ويقصد بهما شِبْلَيْن شديدين له ، المَعْفور : المصْروع الملقى في التراب، خَرَاذِيل : مُقَطَّع ، يُساوِر : يُواثِب ، المَفْلول : المكسور المحَطَّم ، ضامِزَة : ساكنة من هَيْبَته ، الأراجيل : الرَّجّالَة جمع راجل ، وهو الماشي على رجليه ، البَزّ : الثّياب ، الدِّرسان : جمع دِرْس ، وهو الثوب البالي .

الحبشي مكة عازماً على تدمير الكعبة ، وكان الفيل هو الرّمز المرهوب لتلك الغزوة الضّارِيَة ، التي لم يتمّ إنقاذ الكعبة منها إلا بمعجزة من السّماء : بالطّير الأبابيل التي رمت الجيش الحبشيّ بحجارة من سِجّيل ، ويكفي أن نشير إلى أن السّورة القرآنيّة التي قَصّت علينا هذا الخبر حملت اسم « الفيل » ، وأن العرب أرّخَتْ بهذه الغزوة لما ملأ قلوبَهم من فزعها .

أمّا الصّورة « الحَيَوانيّة » الثّانية فهي التي أراد أن يصوّر فيها هيبة الرّسول ﷺ وما كان يخشاهُ من انتقامه ، بل من موقفه أمامه وهو في موضع المُساءَلة والامتحان ، فهو يرى أن مثل هذا الموقف أشدُّ من لقاء أسد ضارٍ كامِنٍ في غَيْضَةِ « عثّر » الملتفّة الشّجر ، وهو أسدٌ لا يبحث عن صيد لرزقه فحسب ، بل كذلك لرزق شِبْلين له لا طعامَ لهما إلا من لحم من يَمرُّ في طريقهما من المسافرين أو من ضروب الحيوان ؛ ولهذا فإن الناس ولا سيّما الرّجّالةُ منهم يعملون على تجنُّب الاقتراب من عَرينه ، أمّا حَميرُ الوَحْش فإنها إذا اقتربت من واديه حبست أنفاسها وظلّت ساكنة حتى لا تسْتَثيرَهُ . ومع ذلك فلا يخلو الأمر من جاهل بأمره أو مُفْرِطٍ في الثّقة بنفسه ، يوقعه سوء حظّه في المرور بغِيل ذلك الأسد ، فإذا به فريسة سهلة لا يبقى منها إلا ثياب وخِرَقٌ مُمَزَّقة .

ويختم كعب قصيدته بأبياتٍ يمدح فيها الرّسول ، ويخصُّ المهاجرين بالثّناء، ويشير إلى خروجهم من مكة إلى المدينة ، لا خوفًا ولا تهيُّبًا للقتال ؛ فهم أبطال مُتَمَرِّسون بالمعارك ، يقون أجسادهم بدروع ضافِيَة مَجْدولة الحَلَق ، فإذا ساروا إلى الحرب مشوا في قوّة وشموخ ، ولهم من رباطَة الجأش وثبات الجَنان ما يجعلهم وقورين ، لا يَسْتَخِفُّهم الانتصارُ على الأعداء ، ولا يجزعون إذا أصابهم قَرْحٌ ، وهم دائماً يُقبلون على القتال ولا يُولّون الأدْبارَ ؛ ولهذا فإن الطّعْن لا يقع إلا في صدورهم . ولا يخلي الشّاعر آخر قصيدته من تَعْريض بالأنصار ؛ إذ إنهم كانوا يريدون إيقاع الرّسول به ، وعلينا ألا ننسى أن

خُصومَتَه للخزرج قديمة ، فقد مَرَّ بنا أن في شعره الجاهلي هِجاءً للخزرج :

إنَّ الرّسولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ اللّهِ مَسْلُولُ
في عُصْبَةٍ من قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لـمَّا أسْلَمُوا : زُولُوا
زالُوا فمازَالَ أنْكاسٌ ولا كُشُفٌ عِنْدَ اللقاءِ ولا مِيلٌ مَعَازِيلُ
شُمُّ العَرانين أبطالٌ لَبُوسُهُمُ من نَسْجِ داوُدَ في الهَيْجَا سَرَابِيلُ
بِيضٌ سَوَابِغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ كأنَّها حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْدُولُ
يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمال الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ
لا يَفْرَحُونَ إذا نالَتْ رِماحُهُمُ قَوْمًا ولَيْسُوا مَجَازِيعًا إذا نِيلُوا
لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلا في نُحورِهِمُ ما إنْ لَهُمْ عَنْ حِياضِ المَوْتِ تَهْلِيلُ (١)

ولكعب شعرٌ إسلاميٌ آخر قاله غير قصيدته هذه ، منه – مما يَتَّصِل بها – قطعةٌ قالها ترضيةً للأنصار بعد تعريضه بهم في مِدْحَته للرّسول ﷺ ، ذلك أن المهاجرين أنفسهم – بفضل مبادئ الأخوّة التي غرسها الرّسول بينهم وبين إخوانهم – قد شَقَّ عليهم أن يُعَرَّضَ بالأنصار فيسمّيهم « السّود التّنابيل » ، فحينئذ صنع كعب أبياتا نورد منها قوله :

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلا يَزَلْ في مِقْنَبٍ من صالِحِي الأنْصَارِ
تَزِنُ الجبالَ رَزَانَةً أحْلامُهُمْ وأكُفُّهُمْ خَلَفٌ مِنَ الأمْطارِ

---

(١) السيف المُهَنّد : المطبوع من حديد الهند ، وهو أجود السُّيوف ، زولوا : هاجِروا وانتقِلوا من مكة ، يريد إجبار مشركي مكة مَنْ أسلم على الهجرة ، أنكاس : جمع نِكْس وهو الضعيف ، الكُشُف : الذين ينكشفون ؛ أي ينهزمون عند اللقاء ، مِيلٌ : مائلون ، معازيل : جمع مِعْزال وهو الأعزل ، العرانين : جمع عِرْنين وهو الأنف ، سرابيل : أي ثياب ، ومن نسج داود : يعني دروعهم من الحديد ، سوابغ : ضافِيَة ، شُكّت لها حَلَق : أُدْخِل بعضُ حَلَقها في بعض ، القَفْعاء : بَقْلَة رملية لها ورق وثَمَر مثل حَلَق الدّروع ، الزُّهْر : البيض ، عَرّد : فَرّ وجَبُن ، التنابيل : جمع تِنْبال وهو القصير اللئيم ، مَجازيع : جزوعين ، تهليل : هُروب وفرار .

والذائدِينَ الناسَ عن أدْيَانِهِمْ بالمَشْرَفِيِّ وبالقَنَا الخَطَّارِ
والباذِلِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ يَوْمَ الهِيَاجِ وسَطْوَةِ الجَبَّارِ (١)

وهو شعرٌ تمتزج فيه القِيَمُ الإسلاميَّة ببعض ما هو موروث عن التقاليد الجاهليَّة في المديح . على أن الرُّوح الإسلاميَّة تبدو على نحوٍ أجلى في أبياتٍ يقولها بعد أن أسلم وحسُن إسلامُه وصلُح شأنُه ، فركب إلى قومه يدعوهم لمتابعته ، وكان في قومه بعض الخلاف ، إذ أسلم منهم كثيرون وبقي بعضهم على شِرْكه :(٢)

رَحَلْتُ إلى قَوْمِي لأدْعُوَ جُلَّهُمْ إلى أمْرِ حَزْمٍ أحْكَمَتْهُ الجَوَامِعُ
لِيُوفُوا بما كانُوا عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا بِخَيْفِ مِنًى واللّهُ رَاءٍ وَسَامِعُ
وتُوصَلَ أرْحَامٌ ويُفْرَجَ مُغْرَمٌ وتَرْجِعَ بالوُدِّ القديم الرَّوَاجِعُ
فأبْلِغْ بها أفْنَاءَ عُثْمَانَ كُلَّها وأوْسًا فَبَلِّغْهَا الّذي أنا صَانِعُ
سَأدْعُوهُمُ جُهْدِي إلى البِرِّ والتُّقَى وأمْرِ العُلا ما شايَعَتْنِي الأصَابِعُ
فكُونُوا جميعًا ما اسْتَطَعْتُمْ فإنَّهُ سَيَلْبَسُكُمْ ثَوْبٌ من اللّهِ واسِعُ
و قُومُوا فآسُوا قَوْمَكُمْ فاجْمَعُوهُمُ وكُونوا يَدًا تَبْنِي العُلا وتُدافِعُ (٣)

وله قطعةٌ أخرى في غزوة حُنَين والطّائف وفتح مكة ، وفيها يقول :(٤)

(١) المِقْنَب : الكتيبة ، خَلَف من الأمطار، الخَلَف : ما استخلفت من شيء ، والبدل والعِوَض ، يريد أنهم كرماء جوادون ، المشرفي : السيف ، الخَطَّار : المَرِن المهتزّ . ديوان كعب ، ص ٢٥-٤١ .

(٢) ديوان كعب ، ص ١١١-١١٢ ، ونسب الأصمعي هذه القصيدة لأوس بن حَجَر ، وهو أمر مستحيل ؛ لأن أوسًا كان جاهليًا بغير شك .

(٣) جُلُّهم : معظمهم ، الخَيْف : ما ارتفع عن غِلَظ الجبل وانحدر عن مسيل الماء ، والناحية ، يريد : ما تعاقدوا عليه في مِنى ، الجوامع : الأمور ، المُغْرَم : أسير الدين ، أفْناء : أخلاط ، وعثمان و أوس من عشائر مُزَيْنَة قبيلة الشاعر ، وشايعَهُ : تابعه وأيّده وأولاه على الأمر .

(٤) ديوان كعب ، ص ٢٤٦-٢٤٧ .

وأعْطَينا رَسُولَ اللّهِ مِنّا   مَوَاثِيقاً على حُسْنِ التّصافِي
فَحُزْنَا بَطْنَ مَكّةَ وامْتَنَعْنَا   بتَقْوَى اللّهِ والبِيض الخِفافِ
وحَلَّ عَمُودُنَا حُجُرَاتِ نَجْدٍ   فَأَلْيَةَ فَالقُدوسَ إلى شَرَافِ
أرادُوا اللاتَ والعُزّى إلَهاً   كَفَى باللّهِ دُونَ اللاتِ كافِ [1]

على أن « بُرْدة » كعب هي أشهرُ شعره على الإطلاق ، بل هي أشهرُ مدائح الرّسول القديمة كلها . وهنا يَبدر إلى ذهننا هذا السؤال : ما هو سِرٌّ إعجاب القدماء والمحدثين بهذه القصيدة ؟ وكيف اهتمّ بها علماء الأدب واللغة ، حتى إن بروكلمان أحصى من شروحها ، ومن بينها شروحٌ بالفارسيّة والتركيّة ، خمسة وثلاثين شرحاً ، ومن تَخْميساتِها ثلاثةَ عشرَ تخْميساً ، وعدداً كبيراً من معارضاتها وترجماتها إلى سائر اللغات .[2] أ ليس من الغريب أن يكون للرّسول ﷺ شعراؤه الذين خاضوا أعنف المعارك دفاعاً عن الإسلام وعن نبيّه ، والذين ملأت أشعارهم دواوين كاملة ، ثم لا يظفرون بمثل حظّ هذه القصيدة التي ليس لكعب من شعره الإسلامي معها إلا ما لا يكاد يُذْكر ؟! وهل لقصيدة كعبٍ من المستوى الفنّيّ ما ليس لِما نعرفهُ من شعر كثير في مديح الرّسول ﷺ ؟

كلٌّ هذه أسئلة لا تسهل الإجابةُ عنها ، غير أنه لا بأسَ في أن نطرح بعض التأمُّلات في محاولةٍ لتفسير ما لقيته قصيدة كعب من شهرة وحظوة .

أما من النّاحية الفنّيّة فالقصيدةُ جيّدة بغير شكٍّ ، وكعب يبدو فيها مصوِّراً من الطِّراز الأوّل ، وهو في تَتبُّعه لأجزاء الصورة واختيار ما يلائمها من ألوان وأصباغ ، يبدو تلميذاً نجيباً لأبيه زهير ، الذي كان يتميّز بمثل هذه الصّفة ، كما يجمعه بأبيه أيضاً دقّته في اختيار الألفاظ والتأنّق البالغ في الصّياغة . وقد

---

(١) العمود : هو الخِباء الطويل ، أَلْيَة والقُدوس وشَراف : مواضع في نجد في ديار مُزَيْنة .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ١٥٦-١٦٢ .

تنبّه القدماء لذلك فسَلَكوه في المذهب الذي دعوا أصحابه « عبيد الشّعر » من أمثال أبيه ، و أوس بن حَجَر ، ثم الحُطَيئة من بعده . غير أن هناك شعرًا جيّدًا كثيرًا قاله الشُّعراء المعاصرون لكعب ممن مدحوا الرّسول ﷺ ، بل كانوا من شعرائه المُقَرَّبين من أمثال حسان بن ثابت ، وكَعْب بن مالك ، وغيرهما .

وقد يميّز هذه القصيدة أنها تنتمي إلى ما سُمّي في الأدب العربي بفَنّ الاعتذاريّات ، وهو فنٌّ يحتاج إلى مقدرة خاصّة يجمع بها الشّاعر بين الحِجاج المُقْنع المستند إلى المنطق والاستثارة العاطفيّة . وقد برع في ذلك النّابغة الذُّبْياني الذي اشتهرت قصائده الاعتذاريّة التي تَوجّه بها إلى النُّعمان ابن المُنْذِر ، وهي قصائدُ تأثّر بها وتأثّرها كعب بن زهير ، حتى إنه نقل ألفاظ بعض أبياتها ، كما في قوله : « نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدني » الذي يذكّرنا بقول النابغة : « نبئت أن أبا قابوسَ أوعدني » . غير أننا نعود فنذكر أن كعبًا لم يَكُن الوحيد الذي أتى إلى الرّسول تائبًا عمّا أسلفه من قبيح القول ، فقد شاركَهُ في ذلك شعراء عرضنا لهم من قبلُ ، مثل أبي سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن الزّبَعْرَى ، وأنَس بن زَنيم ، غير أن التّاريخ لم يُخَلِّد ذِكْر أحدٍ من هؤلاء كما خَلَّدَ ذكر كعب .

وأما الشّعور الدّيني في القصيدة ، فعلينا أن نعترف بأنه ليس من القوّة ، بحيث يؤهّلها لما بلغته من شهرة ، فالشّاعر حديثُ عَهْدٍ بالإسلام ، بل هو لم يُسْلم إلا حفاظًا على حياته ، وقد اهتمّ بتصوير ما تَمَلّكه من مشاعر الخوف ، لما كان يتوقّعه من عقوبة ؛ أكثر مما اهتمّ بالتّعبير عن إيمانه بالدّين الجديد . وأما مديحه للرّسول ، فإنه لا يختلف عما لو كان متَوَجّهًا به إلى سيد من سادات الجاهليّة . وهناك من شعر الصّحابة ما هو أكثر حرارةً وإخلاصًا من قصيدة كعب ، فهذه ناحية لا نرى فيها للشّاعر تميُّزًا خاصا يسمو بها على غيره .

ولعلّنا لا نبعد عن الصّواب إذا رأينا أن هناك – إلى جانب جودة القصيدة من النّاحية الفنيّة ، وهو أمر لا ينكر عليها – عاملين جعلا لهذه القصيدة مكانةً خاصّة : أحدهما مُتَعَلّق بشخصيّة الرّسول ﷺ والآخر متعلّق بشخصيّة الشّاعر .

أمّا العامل الأوّل ، فإنه يتمثّل في سماحة خُلُق الرّسول وإيثارهِ للعفو عمّن جاءه تائبًا منيبًا ، فهو في سلوكه مع أصحابه وأعدائه يُصَدِّق قوله تعالى : « وما أَرْسَلْناكَ إلا رَحْمَةً لِلْعالَمين » ويتّبع هَدي كتاب الله الذي أثنى على : « الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ، ولا غَرْوَ فقد كان خُلُقُه عليه السّلام القرآن كما قالت السيّدة عائشة . وما أكثرَ ما روت لنا كتبُ السّيرة من أخبار حول عفو الرّسول ﷺ عمّن استبلغوا في الإساءة إليه وإلى دعوته ، ومنهم شعراءُ كان صنيعهم شرا من صنيع كعب ، غير أنه ربما كانت الدّلالة في خبر كعب أعمقَ منها في حالات غيرهِ ، فالرّسول لم يكتَفِ بالعفو عنه ، بل زاد على ذلك أن وهبه من التّكرِمَة ما لم يتسنّ لغيره ، فقد خلع عليه بُرْدَتَه التي آلت بعد ذلك إلى الخلفاء ، ولا شكّ في أن هذه الهِبَة الجَليلة كانت مما أسبغ على قصيدة كعب جلالاً وقيمة خاصّة .

وأمّا العامل المُتَعَلّق بشخصيّة كعب فإنه يَتَجَلّى في التّغيّر الكبير الذي أحدثه فيه لقاؤه للرّسول وما قابله من إحسان وتكريم . فقد رأينا كيف كان قبل إسلامه « رجلاً شرّيراً شَرِساً مِمْلاقًا » ، وكيف كان سوء خلقه مُثيراً لنزاع كبير بينه وبين امرأته مما سجّله في شعره ، فإذا به بعد لقائه للرّسول ﷺ يسلم ويحسن إسلامه وتصلح حاله ؛ حتى كأن ذلك اللقاء كان عصاً سحريّة ، حوّلت نوازع الشّرّ في هذا الرّجل إلى خير مَحْض ، بل إننا نراه – كما يشهد بذلك شعرُه – يتحوّل إلى داعِيَة يحضّ قومه على التّمسّك بالإسلام ، ويدعو مُشركي قومه إلى الدّخول فيه .

حينما نعود إلى إلقاء نظرة عامّة على المدائح التي وجّهها إلى الرّسول ﷺ مَنْ عاصرَه من الشُّعراء ، فإننا نلاحظ أنها كانت في الغالب قصائدَ قيلت في غَمْرَة الأحداث التي تتألّف منها سيرة الرّسول ؛ فهي تسجيلٌ صادق دقيق لتلك الأحداث التي غيّرَت مسيرة التّاريخ ، فالشّاعر لم يُتَحْ له من السّكينة والهدوء ما يسمح له بتأمُّل عميقٍ لشخصيّة الرّسول واستخلاص العِبرة من سيرته وأعماله ، كما سوف نرى في الشّعر الذي سوف يَتَدَفّق بعد ذلك بقرون . ولعلّ البُعد الزّمَنيّ كان أكثر عوناً للشُّعراء المتأخّرين على ذلك التأمُّل العميق، وعلى صبغ شعرهم بصِبْغة روحيّة متسامية ، قد نفتقدها في تلك المدائح الأولى .

وسنرى كيف تتوقّف المدائح النبَّويّة خلال فترة طويلة ، حتى تعود إلى الظُّهور في صورة جديدة مُتَوهّجة منذ القَرْن الخامس ، وكأنها جَذْوَة كامنة تحت رماد الأحداث التي مرّت على الأمّة الإسلاميّة ، ثم عادت بعد ذلك إلى التَّوَقُّد من جديد .

الفصل الثاني
المدائحُ النّبويّة في شعر الشّيعة

ربما بدا من المفارَقات الغريبة أن عودة الشُّعراء إلى تأمُّل سيرة الرّسول ﷺ وتَعدادِ شمائله ، لم تعدْ من الموضوعات التي تشغلهم في الوقت الذي رَسَخَت فيه دعائم الإسلام ، وامتدَّ نوره إلى خارج الجزيرة العربيَّة بعد وفاة الرّسول ، وعلى عهد الخلفاء الرّاشدين ، ثم من تَلاهم من خلفاء بني أميَّة وبني العبَّاس. لم يَعْن ذلك ضعفاً في الإيمان ولا تراجعاً في نظرة الإجلال ، التي كان المسلمون ينظرون بها إلى شخصيّة النَّبيّ ؛ وإنما شغلت المسلمين أحداث كبرى تبدأ بحروب الرِّدَّة ، ثم الفتوح الإسلاميَّة ، وما أعْقَبَ ذلك عند قيام دولة بني أميّة من أحداث هائلة ، منها الصِّراع الدّائر بين الأحزاب السِّياسيَّة المذهبيَّة من أمَويّين ، وشيعة ، وخوارج ، وزُبَيْريّين ، وبين العرب والموالي من فُرْس أو بَرْبَر ، وبين القبائل نفسها بعد أن عملت سياسة الأمويِّين على إثارة العصبيّات القبليّة .

أمَّا الشّعر فقد كان في كل ذلك ما يشغله ويَسْتَغْرقُه ، وأصبح الشُّعراء إمّا موزّعين على هذه الفِرق السِّياسيَّة المذهبيّة ، التي نشأت على أثر الخلاف بين علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان ، أو مُنْخرطين في معاركَ قَبَليَّةٍ أجْرَت على ألسنتهم سيلاً من المُساجَلات أو النَّقائض ، بما تَحفِل به من فخر وهجاءٍ على الطَّريقة الجاهليَّة القديمة ، و وضع فريق من الشُّعراء أنفسَهم في خدمة السُّلطان ، متوجِّهين بمدائحهم إلى الخلفاء أو عُمّالهم على الأمْصار ، فاتَّجهَ الشّعْر إلى أن يصبح حِرْفةً يَتَكَسَّب بها الشُّعراء ، ومنذ ذلك الوقت

أصبح المديح هو الغرضَ الغالب على الشّطْرِ الأكبر من الشّعر العربي .

من أجل كلّ ذلك أصبح الشّعراء مَشْغولين عن الالتفات إلى شخصيّة الرّسول ﷺ وتأمّل سيرته وأعماله ؛ فقد صرَفتهم عن ذلك السياسةُ والعصبيّات والتّكسّب بالشّعر ، أو أغراض دنيويّة أخرى مثل الغزل بأنواعه . أما سيرة الرّسول فلم تعدْ مما يَهْتَمُّ به الشّعراء إلاّ فيما يخدم الأغراض الأخرى التي ينظِمون فيها ، وإنما تَوَفّر عليها العلماء من فقهاءَ أو مُحَدّثين أو مُؤَرّخين . أمّا الفقهاء فقد كانوا يَتَتَبّعون أقوال الرّسول وأعمالَه حتى يستخلصوا منها تشريعًا تقوم عليه حياة المجتمع الإسلاميّ ، سواء في عباداته أو في معاملاته . وأمّا المُحَدّثون فقد كان هدفهم جمع الأحاديث النّبويّة ، والحفاظ عليها ، وتمييز صحيحها من زائِفِها . وأمّا المُؤَرّخون فقد كانت سيرة الرّسول أوّلَ ما يَحْظى بعنايتهم ؛ لأنها مُفْتَتَح التّاريخ الإسلاميّ .

وليس معنى ما نقوله أن الرّوح الدينيّ خَبا في نفوس الأمّة ، بل ظلّ مُحَرّكًا رئيسيا لحياة الناس بما فيهم الشّعراء ؛ فكثيرًا ما نجد في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ إشارات مُتَناثرة إلى هذا الحدث أو ذاك من سيرة الرّسول ، ولكنّا لا نرى من بين الشّعراء من اتّخَذَ هذه السّيرة موضوعًا رئيسيا يَتَوَفّرُ عليه. ولعلّ أكثر الشّعراء ارتباطًا بشخصيّة الرّسول واستلهامًا لها هم شعراء الشّيعة ، فقد كانوا يعتبرون الخلافة حقا خالصًا لآل بيت الرّسول ، ويعدّون خلفاء بني أميّة ثم بني العبّاس مغتصبين للخلافة ، وإن كانوا ينتمون إلى قريش . وقد أتى مقتل الحُسَيْن بن عليّ سِبْط رسول الله ﷺ في العاشر من مُحَرّم سنةَ إحدى وستين للهجرة في كربلاء ، فألهب العواطف وأثار مشاعر المسلمين في كلّ مكان ، وأصبحت مراثي الحسين تحتلّ مساحة كبيرة من الشّعر الشّيعيّ ، وكان من الطّبيعيّ أن يتّصل بهذا الموضوع الحديثُ عن فضائل آل بيت الرّسول ، إلى جانب الاحتجاج لِحَقّ علي (رضه) ونَسْلِهِ من بعده في الخلافة. وقد اقتضى هذا الشّعر إشارات عديدة إلى ملامحَ من حياة الرّسول ﷺ ، ولا سيّما

في صِلاته بِرَبيبه وابن عمِّه و وَصِيِّه في نظر الشّيعة ، وبابنته فاطمة زوج عليّ وبِسِبْطَيْه منهما ؛ الحسن والحسين « سَيِّدَيْ شبابِ أهل الجنّة » .

الكُمَيْتُ بن زيد

ولعلَّ من أوّل شعراء الشّيعة الذين نجد لديهم عودةً إلى المديح النّبويّ : الكُمَيْت بن زيد الأسديّ (عاش بين سنتي ٦٠ و ١٢٦هـ)[1] ، ومديحه لآل البيت تَنْتَظِمه ستُّ قصائدَ مُطوَّلة عُرِفت بالهاشِمِيّات وطبعت على حِدَة ، وهي تعدُّ أقوى ما نظمه شاعر شيعيٌّ في عصر بني أميّة ، وتتميّز بصدق العاطفة وبراعة الاحتجاج لحقِّ آل عليّ في الخلافة .

أمّا حُبُّه لآل بيت الرّسول ﷺ فإنه يعبِّر عنه في حرارة وإخلاص ، تشهد بهما هذه الأبيات الأولى من بائيَّتِه المشهورة :[2]

طَرِبْتُ وما شَوْقًا إلى البِيض أطْرَبُ ... ولا لَعِبًا مِنِّي وذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ
ولم يُلْهِنِي دارٌ ولا رَسْمُ مَنْزِلٍ ... ولم يَتَطَرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ

....

ولكِنْ إلى أهْلِ الفَضَائِلِ والتُّقَى ... وخَيْرِ بَنِي حَوَّاءَ والخَيْرُ يُطْلَبُ
إلى النَّفَرِ الْبِيض الذينَ بِحُبِّهِمْ ... إلى اللّهِ فيما نَابَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فإنَّنِي ... بِهِمْ ولَهُمْ أرْضَى مِرَارًا وأَغْضَبُ

ومن هذه القصيدة في الاحتجاج لآل البيت وإثباتِ حقِّهم في الخلافة :

وقالُوا : وَرِثْنَاها أَبَانا وأُمَّنَا ... وما وَرَّثَتْهُمْ ذاكَ أُمٌّ وَلا أَبُ
ولكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ آمِنَةَ الَّذِي ... بِهِ دَانَ شَرْقِيٌّ لكُمْ ومُغَرِّبُ

---

(١) عن الكُمَيْت انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، ص ٣٢٣-٣٢٩ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ج ١ ، ص ٢٤٢-٢٤٤ ، وأدب الشيعة للدكتور عبد الحسيب طه حميدة ، ص ٢٢٩-٣٠٦ .

(٢) الأغاني لأبي الفرج ، ج ١٧ ، ص ٢٨-٢٩ .

يقولُون لم يُورَثْ وَلَوْلاَ تُراثُهُ لَقَدْ شَرِكَتْ فيهِ بَكيلٌ وَأَرْحَبُ
فإنْ هِيَ لم تَصْلُحْ لِحَيٍّ سِواهُمُ فإنَّ ذَوِي القُرْبَى أَحَقُّ وأقْرَبُ (١)

فهو يجادل بني أميّة في ادّعائهم ميراثَ الرّسول بحكم كونهم من قريش ، فيقول إنه إذا كانت الخلافة حقا وراثيا فالهاشميون أقرب نسباً إلى الرّسول من بني أميّة ، أمّا من يحتجُّون بأن الخلافة لا تورث فإنه لو صَحّ ذلك ، لكان من حقِّ أي قبيلة عربيّة أن تطالب بها ، حتى تلك البعيدةِ عن نسب الرّسول ، مثل هاتين القبيلتين اليَمَنِيَّتَيْن .

وتمضي هاشميّات الكميت على هذا النّحو من الضّرْب على الوتر العاطفي من ناحية ، والحِجاج العقلي من ناحية أخرى ، على أن الذي يهمُّنا من هذه القصائد هو ما تضمَّنته من مديح الرّسول أو رثائه . ولعلّ الكميت هو أوّل من عاد إلى مثل هذا الموضوع بعد مُضِيّ قريبٍ من قرن من وفاة الرّسول . فنحن نراه يقول في هاشِميّته البائيّة الثّانية :

فَاعْتَتَبَ الشَّوْقُ من فؤادِيَ والشِّـ ـعْرُ إلى مَنْ إلَيْهِ مُعْتَتَبُ
إلى السّراجِ المنيرِ أَحْمَدَ لا تَعْدِلُنِي رَغْبَةٌ وَلا رَهَبُ
عَنْهُ إلى غَيْرِهِ وَلَوْ رَفَعَ النَّاسُ إليَّ العُيُونَ وارْتَقَبُوا
وقيلَ أفْرَطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْ عَنَّفَنِي القائِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا
إلَيْكَ يا خَيْرَ مَنْ تَضَمَّنَتِ الـ ـأرْضُ وَلَوْ عَابَ قَوْلِيَ العُيُبُ
لَجَّ بِتَفْضِيلِكَ اللِّسانُ وَلَوْ أُكْثِرَ فيكَ اللَّجاجُ واللَّجَبُ
أَنْتَ المُصَفَّى المَحْضُ المُهَذَّبُ في النِّـ ـسْبَةِ إنْ نَصَّ قَوْمَكَ النَّسَبُ

وقد أورد الجاحظ هذه الأبياتَ في كتابين من كتبه ، وعلّق عليها منتقداً

(١) ابن آمنة : يعني به الرسول ﷺ ، بَكيل وأرْحَب : قبيلتان يمنيتان .

الكميتَ ، إذ قال : « ومن غرائب الحُمْق المذهبُ الذي ذهب إليه الكُمَيْت ابن زيد في مديح النّبيِّ ﷺ ... الأبيات ، فَمَنْ رأى شاعراً مدح النّبيَّ ﷺ فاعْتَرَضَ عليه واحدٌ من جميع أصناف الناس ؛ حتى يَزْعُمَ هو أن أناساً يعيبونه ويثلبُونه ويُعَنِّفُونَه ؟» (١)

ولو أن شعر الكميت أخِذَ على ظاهره لكان نقدُ الجاحظ في موضعه ، فليس من المعقول أن يعيب مسلم شاعراً يمدح الرّسول أو يُعَنِّفَه ، غير أنَّ وراء أبيات الكميت سرا كشفه لنا الشّريف المُرتضَى في نصٍّ سنعرض له بعد قليل.

ولم يكتفِ الكميت في هاشِميّاته بمديح الرّسول ، بل نراه يقوم برثائه أيضاً، من ذلك بيتان في آخر بائيّته الأولى :

فَبُورِكَ قَبْرٌ أنْتَ فيه وبُورِكَتْ ... به و لَهُ أهْلٌ بذلكَ يَثْرِبُ
لقد غَيّبُوا بِرا وحَزْماً ونائِلاً ... عَشيَّةَ واراهُ الصَّفيحُ المُنَصَّبُ

وهو يعني بذلك قبرَ الرّسول ﷺ بيثربَ أي المدينة . وانتقد الجاحظ أيضاً هذا الرّثاء ، فقال : « إن هذا شعر يصلح في عامّة النّاس .» (٢)

أمّا دفاع الشّريف المُرْتَضَى عن الكُمَيْت فيقوم على أن الشّاعر لم يُرِدِ النّبيَّ حينما قال إن هناك من يُعَنِّفه على مدحه ، وإنما قصد مديحه لعلي بن أبي طالب ، فورّى عنه بذكر النّبيِّ خوفاً من بني أميّة .(٣) ونحن نعرف أن من مبادئ الشّيعة ، التّقيَّةَ أي المُدارَاةَ حفاظاً على النّفس .

على أننا نرى أن الجاحظ مُحِقٌّ في نقده لبيتي الكميت في الرّثاء ، وذلك إذ قال إن وصف الرّسول بالبِرِّ والحَزْم والكرم من المَديح المُبْتَذل ، الذي قد

---

(١) البَيان والتّبْيين ، ج ٢ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ، والحيوان ، ج ٥ ، ص ١٧٠ ، والتعليق المذكور ورد في البيان ، وكرر الجاحظ هذا النقد بعبارة أخرى في الحيوان . واعتتب : انصرف ، ثلبوا : عابوا ، العُيَّب : العائبون . لجّ : لازمه وأبى أن ينصرف عنه ، واللَّجَب : كثرة الأصوات والنقاش .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٣) أمالي الشريف المُرْتَضَى ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

يُمدح به عامّة النّاس ، فنحن لا نحسُّ في البيتين بما كان يُنْتَظَر من تَسام روحيّ .

على أن الكميت في هاشِميّته الميميّة كان أكثر توفيقاً في رثائه للرّسول ﷺ إذ يقول في مَعرِض الحديثِ عن آل البيت :

أسْرَةُ الصّادِق الحديثِ أبِي القا　　سِمِ فَرْع القُدَامِس القُدَّام
خَيْرِ حَيٍّ و مَيِّتٍ من بَنِي آ　　دَمَ طُرّاً : مَأمُومِهِمْ والإمام
كان مَيْتاً جِنَازَةَ خَيْرَ مَيْتٍ　　غَيَّبَتْهُ مَقابرُ الأقْوام
وجَنِيناً ومُرْضَعاً ساكِنَ المَهْـ　　ـدِ وبَعْدَ الرَّضَاعِ عِنْدَ الفِطام
خَيْرَ مُسْتَرْضَعٍ وَخَيْرَ فَطيم　　وجَنِينٍ أقرَّ في الأرْحام
وغُلاماً وناشِئاً ثمَّ كَهْلاً　　خَيْرَ كَهْلٍ وناشِئٍ وغُلام
أنْقَذَ اللّهُ شِلْوَنَا من شَفَا النّا　　رِ بهِ نِعْمَةً من المِنْعَام
لوْ فَدَى الحَيُّ مَيْتاً قُلْتُ : نَفْسي　　وبَنِيَّ الفِدَا لِتِلْكَ العِظام[1]

فإلحاحُ الشّاعر على تأكيد أفضَلِيّة الرّسول على كلّ خَلْقه في جميع مراحل حياته ؛ منذ كان جنيناً حتى اكتهاله ، ثم تَفْدِيَته له بنفسه وبَنيهِ ، كلُّ ذلك ينبض بحرارة وصدق واضحين ، حتى إننا نجد تعبيره عن حبّه للرّسول وكأنه تمهيدٌ لما سوف نراه في شعر المتصوّفة من روحانيّة وشفافية ، ونلاحظ أيضا تأثر الشّاعر بالتّعابير القرآنيّة ، فالبيت السّابع يكاد يكون نظماً لقوله تعالى : « واذكروا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداءً فَألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بِنِعْمَتِهِ إخْواناً وكُنْتُم على شَفا حُفْرَةٍ من النّار فأنْقَذَكُمْ منها » (آل عِمْران ، آية ١٠٣) .

وهناك ظاهرة نعتقد أنها جديدة مرتبطة بشعر الكميت في مدح الرّسول ﷺ

---

(١) القُدامِس : السّيّد الشّريف ، والقُدّام : المُقَدّم ، الشّلْو : عضو الإنسان بعد البِلى والتّفَرّق ، المِنْعام : الكثير الإنعام .

وآلِهِ ، وهي ظاهرة الرُّؤى التي يُرى فيها الرّسول مُبَشِّراً بغفران ذنوب الشّاعر جزاءً له على مديحهِ ، وسنرى كيف سَتَشيع تلك الرُّؤى المتعلّقة بقصائد المديح النّبويِّ في العصور المتأخِّرة ، وهي تدلُّ على مَدى تأثير ذلك الشّعْرِ في نفوس النّاس مما جعلهم يَتَبَرّكون به . وقد ساق لنا أبو الفرج ثلاث رؤًى من هذا القَبيل في ترجمته للكميت ؛ يروي الأولى منها الشّاعرُ الشّيعي دِعْبِل الخُزاعيّ ، فيقول إنه رأى الرّسول ﷺ في النّوم فقال له : « ما لَكَ ولِلْكُمَيْت ابن زيد ؟» (يعني ما قاله الكميت من شِعْر يهجو فيه اليَمَنِيّة ومناقَضَة دعبل له) فقال : « يا رسول الله ، ما بيني وبينَه إلا كما بين الشُّعراء .» فقال الرسول : « لا تفعلْ ! أ ليس هو القائل :

فلا زِلْتُ فيهِمْ حَيْثُ يَتّهِمُونَني ولا زِلْتُ في أشْيَاعِهِمْ أَتَقَلّبُ

فإن الله قد غَفَرَ له بهذا البيت .» ويقول دِعْبِل بعد ذلك : « فانتهيت عن الكميت بعدَها .»

والرُّؤيا الثّانية منسوبة لرجل أَسَدِيّ يقول فيها إنه رأى الرّسول ﷺ فسأله إن كان من بني أسد ، وإن كان يعرف الكميت فقال له : « عمِّي ومن قبيلتي .» فسأله إن كان يحفظ شيئًا من شعره ، فأنشده قصيدته البائيّة : « طربت وما شوقًا إلى البيض أطرب .» فلما أنشده إياها قال له : « إذا أَصْبَحْتَ فاقْرَأْ عليه السّلام ، وقل له : « قد غفر اللّهُ لك بهذه القصيدة .»

والرُّؤيا الثّالثة يرويها المؤرِّخ الشّيعيُّ نصر بن مُزاحِم المَنْقَري ويقول فيها إنه رأى الرّسول ﷺ وبين يديه رجلٌ يُنشده :

مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيّم مُسْتهام غَيْرَ ما صَبْوَةٍ ولا أحْلام

(وهي القصيدة التي اقتطعنا بعض أبياتها في رثاء الرّسول منذ قليل) . قال نصر : « فسألت عنه ، فقيل لي : «« هذا الكميت بن زيد الأسديّ .»»

فجعل النّبيُّ ﷺ يقول له : « جزاك الله خيراً .» وأثنى عليه .»[1]

الحزين الكِناني

يَنسب ابنُ خَلّكان إلى الشّاعر الأمويِّ المشهور ، الفَرَزْدَق ، قصيدةً ميميّة في مدح علي زَيْن العابدين بن الحُسَين بن عليّ ، قال في تقديمه لها : « إنها مَكْرُمة يُرْجى له بها الجَنَّة » ، ويقول في مناسبتها : « إن هشام بن عبد الملك لما حَجّ في أيام أبيه ، طاف وجَهدَ أن يصل إلى الحجر الأسود لِيَسْتَلِمَه ، فلم يستطع لكثرة الزِّحام ، فنُصِبَ له منبرٌ وجلس عليه ينظر إلى النَّاس ، فبينا هو كذلك إذ أقبل زينُ العابدين عليٌّ بن الحسين ، فطاف بالبيت . فلما انتهى إلى الحجر تَنَحّى له النّاس حتى استَلَم ، فقال رجلٌ من أهل الشّام من أصحاب هشام : « من هذا الذي هابه النّاس هذه الهيبةَ ؟» فقال هشام : « لا أعرفه .» وكان الفرزدق حاضراً فقال : « أنا أعرفه .» ثم أنشد :

هَذَا الّذي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ　　　والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ

إلى آخر القصيدة .»[2]

والقصيدةُ من أروع شعر المديح ، والشّاعر يُشيد فيها بالإمام علي زين العابدين وبنسبه المنتمي إلى الشّجرة النّبويّة المباركة ، ونقرأ فيها هذه الأبياتَ بعد المطلع :

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبادِ اللّه كُلِّهِمُ　　　هذا التّقِيُّ النّقِيُّ الطّاهِرُ العَلَمُ
إذا رَأَتْهُ قريشٌ قالَ قائِلُها :　　　إلى مَكارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الكَرَمُ
يَنْمِي إلى ذِرْوَةِ العِزِّ الّتي قَصُرَتْ　　　عن نَيْلِها عَرَبُ الإسْلام والعَجَمُ
يكادُ يُمْسِكُهُ عِرْفانُ راحَتِهِ　　　رُكْنَ الحَطِيمِ إذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ
في كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ　　　مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ في عِرْنِينِهِ شَمَمُ

---

(١) الأغاني لأبي الفرج ، ج ١٧ ، ص ٢٦–٢٧ .　　(٢) وَفَيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٩٥–٩٦ .

يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِهِ فما يُكَلَّمُ إلا حِينَ يَبْتَسِمُ
يَنْشَقُّ نورُ الهُدَى عن نُورِ غُرَّتِهِ كالشَّمْسِ يَنْجَابُ عن إشْرَاقِها الظُّلَمُ
مُشْتَقَّةٌ من رَسولِ اللهِ نَبْعَتُهُ طابَتْ عَنَاصِرُهُ والخِيمُ والشِّيَمُ
هذا ابْنُ فاطِمَةٍ إنْ كُنْتَ جاهِلَهُ بِجَدِّهِ أنبياءُ اللهِ قد خُتِموا
اللّه شَرَّفَهُ قِدْمًا وعَظَّمَهُ جَرَى بِذاكَ له في لَوْحِهِ القَلَمُ

....

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبُغْضُهُمُ كُفْرٌ وقُرْبُهُمُ مَنْجًى ومُعْتَصَمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كانُوا أئِمَّتَهُمْ أو قيلَ : مَنْ خَيْرُ أهْلِ الأرْض قِيلَ : هُمُ
لا يَستطيعُ جَوَادٌ بُعْدَ غَايَتِهِمْ ولا يُدَانِيهُمُ قَوْمٌ وإنْ كَرُمُوا

....

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللّهِ ذِكْرُهُمُ في كُلِّ بَدْءٍ ومَخْتومٌ بِهِ الكَلِمُ
يَأْبَى لَهُمْ أنْ يَحُلَّ الذَّمُّ ساحَتَهُمْ خِيمٌ كريمٌ وأَيْدٍ بِالنَّدَى هُضُمُ
أيُّ الخَلائق لَيْسَتْ في رِقَابِهِمُ لأوَّلِيَّةِ هَذَا أَوْ لَهُ نِعَمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللّهَ يَعْرِفْ أوَّلِيَّةَ ذا والدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأمَمُ (١)

ويقول ابن خَلّكان بعد إيراده القصيدةَ : « إنَّ هشاماً غضب عند سماعها فأمر بحبس الفرزدق ، وأنفذ له زينُ العابدين اثني عشر ألف درهم ، إلا أن الشّاعر رَدَّها وقال : ‹‹ مَدحتُه لله تعالى لا للعطاء .›› فقال : ‹‹ إنّا أهل بيتٍ إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده .›› فقبلها .»

وفي القصيدة – كما يقول الدكتور زكي مبارك (٢) – « نفحات من

(١) الحطيم : بِناءٌ قُبالَة الميزاب من خارج الكعبة ، يَسْتَلِم : يُقَبِّل الحجر الأسود ، عَبِق : طيِّب الرائحة ، أروع: ماجد ، العِرْنين : عَظْمُ الأنف ، النَّبْعَة : نوع من الشجر ، ويُقال هو من نبعةٍ كريمة أي ماجد الأصل ، الخِيمُ : كرم الخلق ، قِدْمًا : في الزمن القديم ، أَيْدٍ هُضُم : تجود بما لديها .

(٢) المدائح النبوية ، ص ٦٢ .

التّصوُّف ، فالشّاعر يَقْرِن شُكر الله بشُكر آل الرّسول ، ويرى أن حبّهم دين وبغضَهم كفرٌ ، وتلك أقصى غايات الصِّدق في الحبِّ .» كذلك نرى فيها كثيراً من المعاني التي سيتداولها شعراء الصُّوفيّة ، مثل قوله إن ذِكْرَ الرّسول ﷺ وآلِهِ وتشريفَهم ، سَبَقَ به القلَمُ في اللّوْح المحفوظ ، وإنّ معرفتهم إنما هي من معرفة الله .

وتبقى بعد ذلك نسبة الأبيات ، وهو أمرٌ مُشْكِل ؛ فابنُ خَلّكان يُثبتها للفرزدق ، وقد قَبِلَ هذه النِّسْبَةَ بعضُ مؤرِّخي الأدب المتأخّرين ، مثل زكي مبارك [(١)] وبروكلمان .[(٢)] غير أن أبا الفرج الإصفهاني اضطرب في نسبتها فقال إن هناك من ينسبها لداود بن سَلَم في قُثَمَ بن العباس ، أو لخالد بن يزيد فيه ، على أنه بعد ذلك قال إن الصّحيح هو أنها للحزين الكِناني ، وهو عَمْرو ابن عُبَيْد الدّيلي ، وقيل إنه قالها في عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، أو في عبد العزيز بن مروان .[(٣)]

والأرجحُ أنها للحَزين الكِناني وأنها قيلت في علي زين العابدين ؛ لأنّ ما ورد فيها من أوصاف لا يَتّفِق مع ما هو معروفٌ عن أمراءِ بني أميّة ، بل هو أقربُ إلى أن يكون في أئِمّة الشّيعة . أمّا نِسبتُها إلى الفرزدق فقد أنكرها أيضاً الدكتور شوقي ضيف [(٤)] ، مستنداً إلى أنها تخالف نَسْجَ شعر الفرزدق ، كما تخالِفُ نَفْسيّته ؛ إذ كان لا يتعصّب لشيء سوى قبيلتِهِ .

السّيِّد الحِمْيَري

هو إسماعيل بن محمد بن يَزيد بن ربيعة بن مفرغ الحِمْيَري[(٥)] (عاش بين

(١) نفس المرجع ، ص ٥٨ . (٢) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ٢١١ . (٣) الأغاني ، ج ١٥ ، ص ٣٢٦-٣٢٩ . (٤) العصر الإسلامي ، ص ٢٧٣ . (٥) عن السيد الحميري انظر تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص ٣٠٩-٣١٤ ، و بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٦٨-٦٩ ، وقد جمع ديوانه شاكر هادي شكر ، بيروت ، وأفردت بالنشر قصيدته المُذَهَّبة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع شرحها للشّريف المُرْتضى ، بيروت ١٩٦٩ .

سنتي ١٠٥ و ١٧٣) وعاش بين البصْرة والكوفة ، وكان من مُخَضْرَمي الدّولتين الأمويّة والعبّاسيّة ، بدأ حياته مُنْتَمياً إلى فرقة الشّيعة الكَيْسَانيّة القائلين بإمامة محمد بن الحَنَفيّة ، وناصرَ الثّورة العبّاسيّة على الأمويّين ، ومدح خلفاءهم الأوّلين ، ولكنّه انتقل بعد ذلك إلى مذهب الإماميّة الاثنا عشريّة ، وظلّ مخلصاً له حتى وفاته . وكان من غُلاة الشّيعة ، ويكاد ما وصل إلينا من شعرهِ – وقد جمع في ديوان – يكون كلُّه في مديح آل البيت وهجاءِ خصومهم .

وتبرز في ديوان السّيِّد قصيدةٌ طويلة تبلغ مائة وسبعة عشر بيتاً ، تعدُّ من أجود شعره ، حتى إنها لقّبت بالقصيدة المُذَهّبَة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وقد لقيت من أدباء الشيعة عناية خاصّة ، فكان من بين من قاموا بشرحها الشّريف المُرْتَضَى ، عليّ بن محمد الموسَويّ ، وهو يفتتحها بقوله :

هَلا وَقَفْتَ على المكانِ المُعْشِبِ   بَيْنَ الطُّوَيْلِع فَاللّوَى من كَبْكَبِ

وهي أشبهُ بملحمة يتتبّع فيها الشّاعر سيرة علي بن أبي طالب (رضه) ومناقِبَه ، وما نُسب إليه من خوارقَ وكرامات ، ويَحْتَجّ لحَقّه هو وذُرّيّتهِ من بعده في الخلافة ، على أن الحديث عن آل البيت وعن فضائل علي و زوجه فاطمة بنت الرّسول ﷺ لا يمكن أن ينفصل عن سيرة النّبيّ ؛ ولذلك نجده يعرض لبعض ملامح هذه السّيرة ، كما نرى في هذه الأبيات التي يروي فيها عِشيّة هجرة الرّسول من مكة ، حينما رقد عليّ في فراشه حتى يُمَوّهَ على من ائْتَمروا بالرّسول ﷺ من قريش وكانوا يعتزمون قتلَه :[1]

صِهرُ النّبِيِّ وجارُهُ في مَسْجِدٍ   طُهْرٍ بِطَيْبَةَ لِلرّسُولِ مُطَيَّبُ
سِيّانِ فيه عَليهِ غَيْرُ مُذَمّمٍ   مَمْشَاهُ إنْ جُنُباً وإن لَمْ يُجْنِبِ
وَسَرى بمكّةَ حينَ باتَ مَبِيتَهُ   وَمَضَى بِرَوْعَةِ خائِفٍ مُتَرَقِّبِ

---

(١) ديوان السّيّد الحِميَري ، ص٩٣-٩٦ ، وشرح القصيدة المُذَهّبة ، ص١٢٢-١٢٦ .

خَيْرُ البَرِيَّةِ هارِبًا من شَرِّها بالليْلِ مُكْتَتِماً ولم يَسْتَصْحِبِ
باتُوا وباتَ على الفِراش مُلَفَّعًا فَيَرَوْنَ أنَّ محمَّدًا لم يَذْهَبِ
حتَّى إذا طَلَعَ الشَّمِيطُ كَأَنَّهُ في اللَّيْلِ صَفْحَةُ خَدِّ أَدْهَمَ مُغْرِبِ
ثاروا لأخذ أخي الفراش فصادفتْ غيرَ الذي طلبتْ أكُفُّ الخُيَّبِ
وتراجَعُوا لما رَأَوْهُ وعايَنُوا أسَدَ الإلَهِ مُجَالِدًا في مَنْهَبِ
فَوَقَاهُ بادِرَةَ الحُتُوفِ بنَفْسِهِ حَذَرًا عليه من العَدُوِّ المُجْلِبِ(١)

والسَّيّدُ ينظِم في البيتين الأوّلين خبراً يُروى عن أمّ سَلَمَة قالت فيه : « خرج النّبيُّ إلى المسجد فنادى بأعلى صوته ثلاثًا : « ألا إن هذا المسجد لا يَحِلُّ لِجُنُبٍ ولا لحائِض إلا لرسول الله ﷺ وأزواجه وعليّ وفاطمة بنت محمد ﷺ.» وذلك حينما أمر بسدِّ أبواب المسلمين الشارِعَة إلى المسجد ، فيما عدا البابَ الموصِّل بين دار عليّ وفاطمة .»(٢)

ثم يروي في الأبيات التالية قصَّة مَبيتِ عليّ في فراشه (عليه السلام) حين عزم على الهجرة إلى مكة ، وكان المشركون قد تَواعَدوا على الإيقاع به ، فتلَفّع عليّ ببُرده . وتقول المصادر الشّيعيّة إن المشركين حينما فطنوا إلى عليٍّ، نائماً مكانه همّوا بقتله ، ولكنه واثَبَهم بسيفه وأنجاه الله منهم . وهم يقولون إن صَنيع عليّ في هذا الموقف ليس بأقلّ من استسلام إسماعيل عليه السلام لأبيه ، حين رأى أنه يذبحه .(٣)

ويتحدَّث السَّيِّد الحميري في الأبيات التّالية عن هجرة الرّسول ﷺ وخروجه من مكة ولجوئه إلى غار ثَوْر ، ثم تعقُّب المشركين له حتى انتهوا إلى باب

(١) طَيْبة : اسم مدينة الرسول ﷺ ، الشّميط : الصُّبح عند اختلاط بياضه بباقي ظلمة الليل ، مَنْهَب : ضربٌ من الرَّكْض ، المجْلِب : من أجْلَبَ الرَّجلُ ، إذا سمعتَ له صياحاً بقوم يستعين بهم على حرب .
(٢) شرح القصيدة المُذَهَّبة ، ص ١٢٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٤–١٢٥ .

الغار، ثم ما أكرم الله به نَبِيَّهُ حينما رأوا نَسْجَ العنكبوت على مدخل المَغارة ؛ فأشعرهم ذلك بأنه لم يَلِجْه والجِّ وانصرفوا عنه خائبين :

حتّى تَغَيَّبَ عَنْهُمُ في مَدْخَلِ ... صَلّى الإلَهُ عليه من مُتَغَيّبِ
وجزَاهُ خَيْرَ جَزَاءِ مُرْسَلِ أُمَّةٍ ... أدّى رسالتَهُ ولم يَتَهَيَّبِ
قالُوا اُطْلُبُوهُ فَوَجَّهُوا من رَاكِبٍ ... في مُبْتَغَاهُ وطالِبٍ لَمْ يَرْكَبِ
حتّى إذا قَصَدُوا لِبَابِ مَغَارَةٍ ... أَلْفَوْا عَلَيْهِ نَسِيجَ غَزْلِ العَنْكَبِ
صُنْعَ الإلَهِ لَهُ فقالَ فَرِيقُهُمْ : ... ما في المَغارِ لِطالِبٍ من مَطْلَبِ
مِيلُوا فَصَدَّهُمُ المَلِيكُ ومَنْ يُرِدْ ... عنه الدِّفاعَ مَلِيكُهُ لم يَعْطَبِ
حتّى إذا أَمِنَ العُيونَ رَمَتْ به ... خُوصُ الرِّكابِ إلى مَدِينَةِ يَثْرِبِ
فاحْتَلَّ دارَ كَرَامَةٍ في مَعْشَرٍ ... آوَوْهُ في سَعَةِ المَحَلِّ الأَرْحَبِ[١]

ولعلَّ ما سُقْناهُ من أبيات السَّيِّد الحِميري من أولى المُحاوَلات لنَظْم أجزاء من السِّيرة النَّبويَّة شعراً ، لولا أن الهدف الأساسيَّ الذي كان يَتَوَخّاه الشّاعر لم يكن الحديثَ عن سيرة الرَّسول ﷺ ، وإنما عن مناقِب عليِّ بن أبي طالب (رضه) . ويُلاحظ في كلامه عن هجرة الرَّسول أنه تجاهل تماماً صُحبةَ أبي بكر (رضه) للرَّسول في الغار ، فشاعرُنا كان من غُلاة الشِّيعة ؛ ولهذا فقد كان كثيراً ما يتعرَّض في شعره للطَّعْن على كِبار الصَّحابة ، مثل أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وبني أميَّة . ولاشكَّ في أن هذا هو السَّببُ في ضَياع كثير من شعره .

ويبدو الاتِّجاه القَصَصيُّ في شعر السَّيِّد في هذه الأبيات التي ينظم فيها خبر ركوب الحسن والحسين ظهر الرَّسول ﷺ وهو ساجد ، وترفُّقه بهما حتى نزلا ، وكان عمرُ (رضه) من حُضور هذا المشهد فقال : « نِعْمَ المَطِيُّ مطيُّكُمَا .»

(١) الديوان ، ص ٩٦–١٠٠ ، وشرح القصيدة المذهبة ، ص ١٢٧–١٣٠ ، يتهيَّب : يخاف ويفزع ، ويَعْطَب : يَهلِكُ .

فقال الرّسول ﷺ : « و نِعْمَ الرّاكبانِ هما ! » :[١]

أتى حَسَنًا والحُسَيْنَ النّبيُّ ... وقد جَلَسَا حَجْرَةً[٢] يَلْعَبَانِ
فَفَدّاهُمَا ثم حَيّاهُمَا ... وكانا لَدَيْهِ بهذا المكانِ
فراحا وتَحْتَهُما عاتِقَاهُ ... فنِعْمَ المَطِيّةُ والرّاكِبانِ
وَليدانِ أُمُّهُمَا بَرّةٌ ... حَصَانٌ مُطَهَّرَةٌ لِلْحَصَانِ
وشَيْخُهُما ابْنُ أبي طالِبٍ ... فنِعْمَ الوَليدانِ والوَالِدانِ

ويستوقف نظرنا من شعر السّيّد قطعةٌ من قصيدة له طويلة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآل البيت ؛ إذ نرى فيها نواةً مبكّرة لفكرة الحقيقة المحمّديّة التي سوف يَتَوَسّع في تفصيلها الصّوفيّة . وفي شرح هذه الأبيات نموذجٌ لتأويل آيات القرآن الكريم في خدمة العقيدة الشّيعيّة :[٣]

غُرِسَتْ نَخيلٌ من سُلالَةِ آدَم ... شَرَفًا فَطابَ بِفَخْرِ طيبِ المَوْلِدِ
زَيْتونَةٌ طَلَعَتْ فلا شَرْقِيّةً ... تُلْفَى[٤] ولا غَرْبِيّةً في المَحْتِدِ[٥]
ما زالَ يُشْرِقُ نُورُها من زَيْتِها ... فَوْقَ السُّهولِ وَفَوْقَ صُمِّ الجَلْمَدِ
وسِراجُها الوَهّاجُ أَحْمَدُ والذي ... يَهْدِي إلى نَهْجِ الطّريق الأَزْهَدِ
وإذا وَصَلْتَ بِحَبْلِ آلِ مُحَمّدٍ ... حَبْلَ المَوَدّةِ مِنْكَ فابْلُغْ وازْدَدِ
بِمُطَهَّرٍ لِمُطَهَّرِينَ أُبُوّةً ... نالُوا العُلا ومَكارِمًا لم تَنْفَدِ

فمن الواضح أن الشّاعر يشير هنا إلى الآية الكريمة : « اللّهُ نورُ السّمواتِ والأَرْضِ مَثَلُ نورِهِ كَمِشْكاةٍ فيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنّها كَوْكَبٌ دُرّيٌّ يوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتونَةٍ لا شَرْقِيّةٍ وَلا غَرْبِيّةٍ يَكادُ زَيْتُها

---

(١) الأغاني ، ج ٧ ، ص ٢٥٨–٢٥٩ ، وديوان السيد ، ص ٤٥٠–٤٥١ . (٢) حَجْرَة : ناحية .
(٣) ديوان السيد ، ص ١٨٦–١٨٧ . (٤) تُلْفَى : تُوجد . (٥) المحْتِد : الأصل .

يُضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نورٌ عَلى نورٍ يَهْدي اللّهُ لِنورِهِ من يَشاء » (سورة النّور، آية ٣٥) . وينقل مُحَقِّق الدِّيوان في التّعليق على الأبيات من كتاب التّوحيد للفقيه الشّيعيّ ابن بَابَوَيْه القُمّيّ في تفسير الآية ، مُسنداً ذلك إلى الإمام محمد الباقِر قوله : « نور العلم في صدر النّبيّ ﷺ ، المصباح في زجاجة : صدر عليّ . علّمَ النّبيُّ عليّا فصار عِلْمُ النّبيّ إلى صدر عليّ ، يوقد من شجرة مبارَكَةٍ : نور العلم ، لا شرقيّة ولا غربيّة : لا يهوديّة ولا نَصْرانيّة ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، قال : يكاد العالِمُ من آل محمد يتكلّم بالعِلْم قبل أن يُسْأل ، نور على نور : أي إمام مُؤَيّد بنور العلم والحكمة ، في أثر إمام من آل محمّد ، وذلك من لَدُن آدمَ إلى أن تقوم السّاعة . فهؤلاء الذين جعلهم الله خلفاءه في أرضه ، وحُجَجَه على خلقه ، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم .»[١]

على أن ما نلاحظه على شعر السّيّد الحميري ، وغيره من شعراء الشّيعة ، أن تناولهم لجوانب من سيرة الرّسول ﷺ لم يكن مقصوداً لذاته ، بل هو موظّف لخدمة عقائدهم في آل البيت ، فهو مجرّد مُنْطَلَق لهم لكي يبسطوا قضيّتهم وحججهم لأحقيّة أئمّة آل البيت في الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإنهم بوجهٍ عامّ تقدّموا بفنّ المدائح النّبويّة خطواتٍ إلى الأمام ، وأثْرَوا موضوعها بعناصرَ جديدةٍ لها طَرافَتُها وتأثيرها العميق في الشّعر العربيّ المتناوِل لذلك الموضوع .

دِعْبِلُ الخُزاعِيّ

يعدُّ دِعْبِلُ بن علي بن رُزَيْن الخُزاعيّ من أبرز شعراء الشّيعة في الجيل التّالي لجيل السّيّد الحِمْيَري ، وقد وُلد في الكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ، وعاش حياة مضطربة حافلةً بالمغامرات ، فقد بدأ حياته مخالِطًا للشُّطّار[٢] وقُطّاع

(١) حاشية ديوان السيد ، ص١٨٦-١٨٧ .

(٢) الشُّطّارُ : جمعُ شاطر ؛ وهو من عصى أباه وعاش في الخلاعة بعيداً عنه ، ثم تاب ورجع .

الطُّرق ، ثم شَرَعَ يُجالس الشُّعراء ويتّصل برجال الدّولة في بغداد ، ثم رحل إلى خُراسان و وليَ هناك بعض المدن ، ورحل إلى مصرَ فاتّصل بواليها الذي ينتمي إلى نفس قبيلته ، المُطّلِب بن عبد الله الخُزاعيّ ، ومدحه فولاه على أسوان ، وفسدت العَلاقة بينه وبين المطّلب ؛ فرحل عن مصرَ عائداً إلى بغداد وخراسان . وتوجّه بمديحه للخليفة المأمون ، ولعَليّ بن موسى الرِّضا ، إمام الشّيعة الذي أسند إليه ولاية عهده ، وأنشدهما تائيّته المشهورة ونال عطاياهما .

على أنه كان هَجّاءً خبيث اللسان ، فقد أكثرَ من هجاء خلفاء بني العبّاس وغيرهم من رجال عصره ، بل إنه أقْذَعَ في هجاء كثير مِمّن شملوه بعطاياهم . ويُذْكَر أن هذه النّزْعة إلى الشّرّ والنّيل من الأعراض كانت سبباً في مصرعه ؛ فقد هَجا مالِكَ بن طوق التّغْلِبِيّ فأرسل له من يغتاله في بعض قرى الأهواز . ولا يتّفق الباحثون على تاريخ وفاته ؛ فبروكلمان يجعلها في سنة ٢٢٠ ، وبعض المصادر يجعلها في سنة ٢٤٦ ، ويتوسّط الدكتور شوقي ضيف ، فيرى أنها كانت في أوائل عهد الخليفة المُتَوَكّل في نحو سنة ٢٣٥ .[(١)]

وعلى الرّغم من أن دعبلاً كان من الشُّعراء المُكْثرين – إذ يُذْكَر أن الصُّولي جمع ديوانه في ثلاثمائة ورقة – فإن ما وصل إلينا من شعره بعد الجهد القيّم الذي اضطَلَعَ به جامعُ الدّيوان ، الدكتور عبد الكريم الأشْتَر ، يزيد قليلاً على ألف وخمسمائة بيت ، والشّعر الصّحيحُ النّسْبة له من هذا القَدْر أقلُّ من ألف بيت . وهذا يدلُّ على أن معظم شعره ضاع ، ولا شكَّ أن هناك سببين لذلك ، أولهما : أنه كان من غُلاة الشّيعة ، كثير الوقوع في الصّحابة ، مما جعل الأوساط الأدبيّة تَتَحامَى[(٢)] رواية شعره ، والثّاني : خُبْثُ

(١) حول دعبل انظر : العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص ٣١٨–٣٢٤ ، وبروكلمان ج ٢ ، ص ٣٩–٤٠ . وقد قام بجمع شعره وتحقيقه الدكتور عبد الكريم الأشتر ، دمشق ١٩٦٤ .

(٢) تتحامى : تَجْتنب وتتوقّى .

لسانه ، وكثرة هجائه ، ونَيْله من الأعراض .

وربّما كان أشهر شعر دِعْبل هو تائيّته الكبرى المشهورة في مدح آل البيت وبكاء مصارِعِهم ، وهي تقع في سبعة وخمسين بيتاً ، غير أن المصادر الشّيعيّة زادت فيها ، على ما يبدو ، جيلاً بعد جيل حتى إنها تبلغ في بعض مصادرهم المتأخّرة مائة وأربعين بيتاً .[١] وهي تبدأ على هذا النّحو :[٢]

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوَةٍ ... ومَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ
هُمُ أَهْلُ مِيراثِ النَّبيِّ إذا اعْتَزَوْا ... وَهُمْ خَيْرُ قادَاتٍ وَخَيْرُ حُماةِ

وسَرعانَ ما تُدْرِك دعبلاً طبيعةُ الشّرّ المتأصّلة في نفسه ، فإذا به يهجو الأمّة كلّها فيتّهمها بمعاداة الرّسول وآله وبالنّصْب لهم[٣] ؛ انتقاماً لما وقع على المشركين في معارك بَدْر ، وخَيْبَر ، وحُنَيْن ، وكأنّ أمّة الإسلام كلّها مسئولة عن مَصارع من خَرَج من أئمّة العَلَويّين ! وهو يرمز إلى هؤلاء بالمواضع التي قُبِروا فيها ، ويختم ذكرهم بسيّد شباب أهل الجنّة : الحسين بن عليّ قتيل كَرْبَلاء ، ويعبّر عن تجنّبه زيارتَهم ؛ خوفاً مما قد يتعرّض له من عقوبة سلاطين الجور :

وما النّاسُ إلا حاسدٌ ومُكَذِّبٌ ... ومُضْطَغِنٌ ذُو إحْنَةٍ وتِراتِ
إذا ذَكَرُوا قَتْلَى بِبَدْرٍ وَخَيْبَرٍ ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ أسْبَلوا العَبَراتِ
وكَيْفَ يُحبُّونَ النَّبِيَّ وَأَهْلَهُ ... وَقَدْ تَرَكُوا أحْشاءَهُمْ وَغِرَاتِ
لقد لاينُوهُ في المقالِ وأضْمَروا ... قُلُوباً على الأحْقادِ مُنْطَوِياتِ

(١) ديوان دعبل ، ص٧٠–٨٠ ، وما ألحق بها من زيادات في ص٢٢١–٢٤٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٧١–٧٣ ، العَرَصات : جمع عَرْصة ، وهي ساحة الدار ، سُمّيت بذلك لاعتراص الصبيان فيها ؛ أي للعبهم ومرحهم فيها ، واعتَزَوْا : انتسبوا ، ومنه : اعتَزى بعَزاء الجاهلية ؛ أي انتسب بنسبها .

(٣) نَصَبَ له : أظهرَ له الشّرّ .

قُبورٌ بكُوفانٍ وأخْرَى بطَيْبَةٍ ... وأخْرَى بفَخٍّ نالَها صَلَوَاتِي
وَقْبرٌ بأرْض الجَوْزَجَانِ مَحَلُّهُ ... وَقْبرٌ بِباخَمْرَا لَدَى الغَرَمَاتِ
وَقْبرٌ ببغدادٍ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ ... تَضَمَّنَها الرَّحْمَنُ في الغُرُفاتِ
وَقْبرٌ بطُوسٍ يا لَهَا من مُصيبَةٍ ... تَرَدَّدُ بَيْنَ الصَّدْرِ والحَجَبَاتِ
فَأَمَّا المُمِضَّاتُ التي لَسْتُ بَالِغًا ... مَبَالِغَها مِنِّي بِكُنْهِ صِفات
إلى الحَشْرِ حتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ قائِماً ... يُفَرِّجُ مِنْهَا الهَمَّ والكُرُبَاتِ
نُفوسٌ لَدَى النَّهْرَيْن من أرْض كَرْبَلا ... مُعَرَّسُهُمْ منها بشَطِّ فُراتِ
أخافُ بأنْ أزْدَارَهُمْ وَيشُوقُني ... مُعَرَّسُهُمْ بالجِزْعِ من نَخَلاتِ
تَقَسَّمَهُمْ رَيْبُ الزَّمانِ فما تَرَى ... لهم عَقْوَةً مَغْشِيَّةَ الحُجُراتِ[(١)]

ولا ينسى الشّاعر أن يشير في آخر الأبيات إلى انتظاره رَجْعةَ الإمام القائم من آل البيت ، الذي سوف يفرِّج الكَرْب ، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً .

ويُعدِّد الشّاعر مآثِرَ آل البيت ، وأكبرها فخرُهُم بانحدارهم من صُلْب الرّسول ، وبما أحيط به بيتهم من نور النُّبوَّة وتَنَزُّل الوحي على جَدِّهم ، وحُظْوَتهم بتبليغ جبريل رسالة ربِّه في حُجراتهم . على أنه سرْعان ما يعود إلى الهجوم على خصوم آل البيت ، فيسدِّد سهام هجائه إلى معاوية بن هند بنت

(١) الإحنة : الحقد ، والتِّرات : جمع تِرَة ، وهي الثأر ، وَغِرات : متَوَقِّدة من الغيظ ، الحَجَبات : مجاري النفَس ، المُعَرَّس : اسم مكان من التَّعْريس ، وهو نزول القوم في السفر آخر الليل للاستراحة . العَقْوة : الساحة . والمواضع التي ذكرها دعبل في هذه الأبيات هي التي فيها قبور العلويين الذين أوقع بهم وهي : كوفان ، اسم الكوفة ، وبها قبر علي بن أبي طالب (رضه) ، طيبة : اسم مدينة الرسول ﷺ وبها قبور فاطمة (رضه) بنت الرسول ، وابنها الحسن بن علي ، وعلي زين العابدين بن الحسين ، ومحمد بن عبد الله بن الحسن ، النفس الزَّكِيَّة ، الجَوْزَجان : من كور بَلْخ بخُراسان ، وبها قبر يَحْيى بن زيد بن علي زين العابدين ، باخَمْرا : موضع قريب من الكوفة في أرض الطَّف ، وبه قبر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فَخّ : وادٍ قرب مكة ، قتل فيه الحسين بن علي بن الحسين في زمن الخليفة الهادي ، طُوس: مدينة بخُراسان دفن فيها الرشيد ، وإلى جواره دفن الإمام علي الرِّضا بن موسى الكاظم .

عُتْبة ، وإلى زِياد بن أبي سُفْيان ، وابن سُميّة ، ويعبّر عن حبّه لآل الرّسول وهم خيرَة العالم ، ويدعو الله أن يزيده بصيرة في حبّهم والولاء لهم ، وأن يجعل ذلك الحبّ له في حسناته :

وإنْ فَخَرُوا يَوْمًا أَتَوْا بمُحَمَّدٍ ... وجِبْرِيلَ والفُرْقانِ ذي السُّوَرَاتِ
أُولَئِكَ لا مِنْ شَيْخِ هِنْدٍ وتربِها ... سُمَيَّةَ مِنْ نَوْكَى ومن قَذِرَاتِ
مَلامَكَ في أَهْلِ النَّبِيِّ فإنَّهُمْ ... أَحِبَّايَ ما عاشُوا وأَهْلُ ثِقاتي
تَخَيَّرْتُهُمْ رُشْدًا لأَمْرِي فإنَّهُمْ ... على كُلِّ حالٍ خِيرَةُ الخِيَراتِ
نَبَذْتُ إِليهِمْ بالمَوَدَّةِ جَاهِدًا ... وسَلَّمْتُ نَفْسِي طائِعًا لِوُلاتِي
فيارَبِّ زِدْنِي من يَقيني بَصِيرَةً ... وزِدْ حُبَّهُمْ يارَبِّ في حَسَنَاتِي[1]

وفي قصيدة أخرى يعود دِعْبل لمهاجمة المسلمين جميعًا ؛ لأنه يعدُّهم مسئولين عن مصارع آل البيت ، فكلُّ قبائل العرب شركاء في دمائهم ، وهو يرى أن بني أميَّة قد يكونون معذورين في إيقاعهم بآل البيت ؛ لأنهم إنما كانوا ينتقمون لمن أوقع بهم الرّسول ﷺ وعليّ بن أبي طالب في معاركهم مع المشركين . أمّا بنو العبّاس فما عُذْرهم في ذلك ؟ ثم يختم القصيدة بالدّعوة لزيارة طوس ، حيث دفن علي الرِّضا بن موسى ، ولا يفوته أن يعود لهجاء خلفاء بني العبّاس في إقذاع سليط ، فيقول إن طوسًا ضمّت قبرين : قبر خير النّاس ؛ أي : علي الرِّضا ، وقبر شرّهم ، وهو هارون الرّشيد :

يا أُمَّةَ السُّوءِ ما جازَيْتِ أَحْمَدَ عن ... حُسْنِ البَلاءِ على التَّنْزِيلِ والسُّوَرِ
خَلَفْتُموهُ على الأَبْنَاءِ حِينَ مَضَى ... خِلافَةَ الذِّئْبِ في أَبْقَارِ ذِي بَقَرِ
ولَيْسَ حَيٌّ مِنَ الأَحْيَاءِ نَعْلَمُهُ ... من ذِي يَمانٍ ومن بَكْرٍ ومِنْ مُضَرِ
إلا وَهُمْ شُرَكَاءُ في دِمَائِهِمُ ... كما تَشَارَكَ أَيْسارٌ على جُزُرِ

(١) نوْكى : حَمْقى .

قَتْلاً وأَسْرًا وتَحْرِيقًا وَمَنْهَبَةً فِعْلَ الغُزَاةِ بأَرْضِ الرُّوم والخَزَرِ
أَرَى أُمَيَّةَ مَعْذُورِينَ إنْ قَتَلُوا وَلا أَرَى لبَنِي العَبَّاس من عُذُرِ
أَبْنَاءُ حَرْبٍ ومَرْوَانٍ وأَسْرَتُهُمْ بَنُو مُعَيْطٍ وُلاةُ الحِقْدِ والوَغَرِ
قَوْمٌ قَتَلْتُمْ على الإسْلام أَوَّلَهُمْ حتَّى إذا اسْتَمْكَنُوا جازَوْا على الكُفُرِ
اِرْبَعْ بِطُوسٍ على قَبْرِ الزَّكيِّ بها إنْ كُنْتَ تَرْبَعُ من دَيْنٍ على وَطَرِ
قَبْرَانِ في طُوسَ : خَيرِ الخَلْقِ كُلِّهِمُ وقَبْرُ شَرِّهِمُ هَذَا منَ العِبَرِ
ما يَنْفَعُ الرِّجْسَ من قُرْبِ الزَّكيِّ وما على الزَّكيِّ بقُرْبِ الرِّجْس من ضَرَرِ (١)

ولا يزال دعبل يُكَرِّر هذه المعاني في كلِّ قصائده الشّيعيّة . والحقيقة أننا لا نكاد نرى في هذا الشّعر حديثًا عن الرّسول نفسه ؛ ذلك أنه هو ومعظم شعراء الشّيعة لا يهتمّون إلا بآل البيت من نسل عليّ ، وحديثهم عن الرّسول حديث عارِض يأتي مُقَدِّمَةً وتمهيداً للكلام عن فضائل آل البيت ، حتى إشارات دعبل التي رأيناها إلى بعض مشاهد الرّسول ﷺ وغزواته ؛ مثل بدر وخَيْبَر و حُنَيْن لم تأتِ للحديث عن انتصاراته ، وإنما للتّعريض بمن قُتِل فيها من أجداد خلفاء بني أميّة الذين نكّلوا بالعَلَوِيّين . وإنما استحقّ دعبل منا هذا الحديث ؛ لأن التّقرّب إلى آل البيت وطلب الشّفاعة منهم قد أصبح بعد ذلك من العناصر الرّئيسيّة في المدائح النّبويّة ، وأصبح يَحْتَلُّ من جُمْلتها مساحة غير قليلة .

الشّريفُ الرّضيّ

الشّريف الرّضي ومِهيار الدّيلَمي شاعران تجمع بينهما صلات وثيقة حميمة ؛ أولاها المذهب ، فكلاهما شيعيٌّ إماميٌّ يفرد جانبًا من شعره لمراثي

---

(١) أيْسار : جمع ياسر وهو الذي يقوم بقسمة الذّبيحة ، الجُزُر : جمع جَزور : الناقة المَجْزورَة ، أبناء حرب : يعني أبا سفيان بن حرب بن أمية وابنه معاوية ونسله ، ومَرْوان : هو مَرْوان بن الحكم جَدّ الفرع الآخر من فروع بني أمية ، بنو مُعَيْط : يعني عُقْبَة بن أبي مُعَيْط الذي قُتِلَ على شِرْكِهِ في بدر وسلالته . ارْبَع : انزل.

الحسين بن علي وآل البيت ، ويدافع عن قضيّة حق العلويّين في الإمامة ، ويسدّد سهام هجائه لخصومهم . وثانية هذه الصّلات ما يجمع بين الأستاذ وتلميذه ، فقد كان مهيار تلميذاً للشّريف وعليه تخرّج في الشّعر ، بل يقال إنه اعتنق الإسلام على يديه ناجياً من إسارِ المجوسيّة ، وإذا كان هذا الفَرْضُ لم يقع عليه دليل من شعر مِهيار ، فإنه لا يُستَبْعَد مع ذلك أن تلمذته على الشّريف كان لها بعض الأثر في توجيهه إلى استبدال هَدْي الإسلام بضلالة المجوسيّة . وثالثة الوشائج التي تربط بين الشّاعرين ؛ المذهب الفنّيٌّ من الجمع بين رِقّة الحضارة وجَزالة البَداوَة ، ولاسِيّما في افتتاحِيّات القصائد التي تقدّم لنا ألواناً من الغزل العذريّ ، لعلّه من أجمل ما نعرفه في الشّعر العربيّ من عاطفيّة ورومانسيّة مُتسامِية .

أما الشّريف الرّضي ، فهو محمد بن الحسين الموسَويّ العَلَويّ [1] ، وُلد ببغداد سنة ٣٥٩ ، وكان أبوه من سادة العَلويّين ومن كبار رجال الدّولة في ظلّ دولة بني بُوَيْه ، و وليَ نقابة الأشراف العلويّين خلفاً لأبيه بعد موته في سنة ٣٩٧ ، وكان عظيم الحُظْوَة لدى الخليفتين العبّاسيّيْن الطّائع ثم القادر ، وعند ملوك بني بوَيْه ، وكانت وفاته في سنة ٤٠٦ ، ورثاه تلميذه مِهيار بقصيدتين تُعَدّان من أروع شعر الرّثاء في الشّعر العربيّ .

وقد تفتّحت موهبة الشّريف الشّعريّة وهو في سنّ مبكّرة ، وأقبل على العلم منذ غَضاضَة الصّبا ، فلم يكن شاعراً فحسب ، بل كان له باعٌ في التّأليف ، فقد جمع خُطب علي بن أبي طالب (رضه) وأقواله في كتاب « نَهْج البلاغة » ، وإن كان في هذه الخُطب ما يُشَكُّ في نسبته إلى عليّ ، وله كتاب في تفسير القرآن سمّاه « حقائق التأويل في مُتَشابه التّنزيل » ، وكتاب

---

(١) عن الشريف الرضي انظر الدكتور شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، ص ٣٧١-٣٧٥ ، و بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٦٢-٦٥ ، وقد أفردت لدراسته كتب منها : عبقرية الشريف الرضي ، لزكي مبارك ، والشريف الرضي : للدكتور إحسان عباس ، ودراسة مُفَصّلة لعبد الفتاح الحلو .

في المجازات النَّبويّة ، ومختارات من شعر ابن الحَجّاج البغدادي . ولم يمنعه هذا الجهد العلمي ولا المناصب التي وليها من الإكثار من نظم الشِّعر ، فقد خلَّف لنا ديوانًا يشتمل على أكثر من سبعةَ عشرَ ألف بيت .

ومع أن شطراً غير قليل من شعر الشَّريف في مدح الخليفتين العبَّاسيَّين اللذين عاصرهما ، وفي ملوك البُوَيْهيِّين ورجال دولتهم ، فإنه كان يشعر بالغَضاضَة من اضطراره لهذا المديح ، فقد كان بَعيدَ المطامح ، بل إنه كان يرى نفسه أجدر بالخلافة ، يرشّحه لذلك في نظره نسبُه العَلَويُّ وما اجتمع فيه من فضائل ، فهو يقول في قصيدة يمدح بها أباه [١] :

تطالِبُني نَفْسِي بكُلِّ عظيمةٍ أرَى دُونَها جارِي دَم يَتَصَبَّبُ
أ بَعْدَ النَّبيِّ والوَصِيِّ تَرُوقُنِي مَنَاسِبُ مَنْ يُعْزَى لِمَجْدٍ ويُنْسَبُ
يُقِرُّ بِفَضْلي كُلُّ بادٍ وحاضِرٍ ويَحْسُدُني هذا العظيمُ المُحَجَّبُ
أريدُ من اللّهِ القَضَاءَ بحالةٍ تَقَرُّ بها عَيْنٌ وقَلْبٌ مُعَذَّبُ

وكثيراً ما عبَّر الشَّريف عن ثورته المكبوتة على العباسيِّين في مراثيه للحسين وآل البيت ، وقد اصطبَغت مراثيه بالحزن العميق والتَّفَجُّع الصَّارخ ، حتى أطلق عليه الأدباء لقب « النّائحة الثَّكْلَى » ، كما يذكر الصَّفَدي .

ومن قصائده في رثاء الحسين مقصورتُه التي يفتتحها بقوله [٢] :

كَرْبَلا لا زِلْتِ كَرْبًا وَبَلا ما لَقِي عِنْدَكِ آلُ المُصْطَفَى
كم على تُرْبِكِ لـمَّا صُرِعُوا من دَم سالَ ومن دَمْع جَرَى

ويخاطب الشّاعر رسول الله مستثيراً حَفيظتَه على قَتَلَة سِبْطِه :

يا رسولَ اللهِ لو عايَنْتَهُمْ وَهُمُ ما بَيْنَ قَتْلَى وسِبَا
من رميضٍ يُمْنَعُ الظِّلَّ ومن عاطِشٍ يُسْقَى أنابيبَ القَنا

(١) ديوان الشريف الرضي ، ج ١ ، ص ٨٠-٨٣ . (٢) ديوانه ، ج ١ ، ص ٤٤-٤٨ .

وَمَسُوقٍ عاثِرٍ يُسْعَى بِهِ خَلْفَ مَحْمُولٍ على غَيْرِ وِطا
لَرَأَتْ عَيْنَاكَ منهم مَنْظَراً لِلْحَشَا شَجواً وللعَيْنِ قَذَى (١)

وهو لا يُنْحي باللائِمَة على قَتَلَة الحسين فحسب ، بل يعتبر الأمّة كلّها مسئولةً عن تلك الجريمة ، على نحو ما رأينا عند دِعْبل الخُزاعي من قبلُ ، ويرى أن مصرع الحسين إنما كان أخذاً بثأر من قُتِلَ من كفار قريش في مشاهد الإسلام الأولى :

لَيْسَ هذا لِرسولِ اللّهِ يا أُمّةَ الطُّغْيَانِ والبَغْيِ جزَا
غارِسٌ لم يَألُ في الغَرْس لهُمْ فأذَاقُوا أهْلَهُ مُرَّ الجنَى
جَزَرُوا جَزْرَ الأضَاحِي نَسْلَهُ ثم ساقُوا أهْلَهُ سَوْقَ الإمَا
هاتِفاتٍ برسولِ اللهِ في بُهَرِ السَّعْيِ وعَثْرَاتِ الخُطَى
أدْرَكَ الكُفْرُ بهم ثارَاتِهِ وأُدِيلَ الْغَيُّ مِنْهُمْ فاشْتَفَى (٢)

ويخاطب الحسينَ الشّهيد مُسْتَدِرّا الدُّموعَ ، وهو يصف مصرعه على أيدي قوم لم يراعوا رَحِمَه من الرّسول ﷺ ، ومن ابنته فاطمة (رضه) :

يا قتيلاً قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ عُمُدَ الدِّين وأعْلامَ الهُدَى
قَتَلُوهُ بَعْدَ عِلْم مِنْهُمُ أنّه خامِسُ أصْحَابِ الكِسا
غَسَّلُوهُ بِدَم الطَّعْن وما كَفَّنُوهُ غَيْرَ بَوْغَاءِ الثَّرَى
مُرْهَقاً يَدْعُو ولا غَوْثَ لَهُ بأبٍ بَرٍّ وَجدٍّ مُصْطَفَى
وبأمٍّ رَفَعَ اللّهُ لَهَا عَلَماً ما بَيْنَ نِسْوَانِ الوَرَى
يا رسولَ اللّهِ يا فَاطمَةٌ يا أميرَ المؤمنينَ المُرْتَضَى

---

(١) سِبا : أسرى ، الرّميض : المُتَحرِّق القدمين من الحر ، القنا : الرماح .

(٢) جَزَروا : ذبحوا ؛ بُهْر السّعْي : انقطاع النَّفَس عند الجري ؛ أُدِيلَ الْغَيُّ : أخذ بثأره ، وفي طبعة الديوان « أزيل » وهو تحريف .

كيفَ لم يَسْتَعْجِلِ الله لَهُمْ بانقلابِ الأَرْضِ أو رَجْمِ السَّمَا [(١)]

وفي قصيدة أخرى يُنَدِّد بجريمة عُبَيْد الله بن زِياد قاتل الحسين ، وبيَزِيدَ بن معاوية الذي تمّت الجريمة في عهده فيقول :[(٢)]

لِلَّه مُلْقًى على الرَّمْضَاء عَضَّ بِهِ فَمُ الرَّدَى بَيْنَ إقْدَام وتَشْمِيرِ
أغْرَى بِهِ ابْنَ زيادٍ لُؤْمُ عُنْصُرِهِ وسَعْيُهُ لِيَزِيدٍ غَيْرَ مَشْكُورِ

ويَتَهَدَّد بني أميّة بالثّأر لمصارع آل البيت :

بني أمَيّةَ ! ما الأسْيَافُ نائِمَةً عن شاهِرٍ في أقاصِي الأرْض مَوْتُورِ
إنّي لأرْقُبُ يوماً لا خَفَاءَ لَهُ عُرْيَانَ يَقْلَقُ منه كُلُّ مَغْرُورِ

وقد يبدو من الغريب أن يُنذر الشّريف بني أميّة ؛ ونحن نعرف أن دولتهم قد دالت وانقرضت منذ عهد بعيد ، والحقيقة أن الشّريف إنما يعني الخلفاء العبّاسيّين الذين اضطهدوا العلويّين أيضاً ، غير أنه لا يُصرِّح بذلك ؛ لأنه كان يعيش في كَنَف بني العبّاس ، وكان هو وأسرته يتولّون مناصب لها وَجاهتها ومكانتها في ظلِّ تلك الخلافة . على أن ما كان يُعَرِّض به الشّريف في مثل هذا الشّعر ، وغيرُه كثيرٌ في ديوانه ، كثيراً ما جرى على لسانه في صراحة ، فهو يخاطب بني العبّاس قائلاً :[(٣)]

رُدُّوا تُرَاثَ محمدٍ رُدُّوا لَيْسَ القضيبُ لكم ولا البُرْدُ
هل عَرَّقَتْ فيكم كَفَاطِمَةٍ أمْ هَلْ لَكُمْ كَمُحَمَّدٍ جَدُّ
جُلُّ افتخارِهِمُ بِأَنَّهُمُ عِنْدَ الخصام مَصَاقِعٌ لُدُّ
إنَّ الخلائِفَ والأُلَى فَخَرُوا بِهِمُ عَلَيْنَا قَبْلُ أوْ بَعْدُ

---

(١) قوله « أصحاب الكِسا » في البيت الثاني : إشارة إلى خبر يقول إن الرسول ﷺ كان ملتفا في بيت فاطمة هو وابنته وعلي وابناها الحسن والحسين ، وإنه قال : هؤلاء عترتي وأهل بيتي . وبَوْغاء الثرى : التراب الرِّخْو .

(٢) ديوان الشريف ، ج ١ ، ص ٤٨٨–٤٨٩ . (٣) ديوانه ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

شَرُفُوا بنا ولِجَدِّنَا خُلِقُوا ... وَهُمُ صنائِعُنَا إذا عُدُّوا [(١)]

وتتردّد هذه المعاني على نحو مُلحّ في شعر الشّريف ، على أننا نلاحظ في حديثه عن الرّسول ﷺ أنه لا يكاد يذكر من سيرته شيئاً إلا فيما يفيد تأكيداً لمناقِب عليّ (رضه) وذُرِّيّته من بعدُ ، فهو إما يَفخر به ، عادّا انتسابَه إليه مِنْ أهمّ حُجَجه في المطالبة بالخلافة ، أو يناجيه مُسْتَعْدِيًا على قَتَلَة سِبْطِه ، وعلى كلّ من ارتكبوا جريمة في حقّ آل البيت ، وهو بهذا لا يكاد يضيف شيئاً إلى ما هو معتادٌ في شعر الشّيعة ، فيما عدا شيئاً واحداً : هو أن الشّريف « ذا النَّسَبَيْن » ، يتميّز على غيره من شعراء الشّيعة بأنَّهُ كان يطالب بالخلافة ويسعى لها ، بل إنه في أحلام يقظته يتوهّم نفسه وقد آلت إليه الخلافةُ فعلاً :

هذا أمِيرُ المؤمنينَ مُحَمَّدٌ ... كَرُمَتْ مَغَارِسُهُ وطابَ المَوْلِدُ

أ و مَا كَفَاكَ بأنّ أمّكَ فاطِمٌ ... وأبُوكَ حَيْدَرَةٌ وجَدُّكَ أحْمَدُ [(٢)]

مِهْيار الدّيْلميّ :

وُلد أبو الحسن مِهْيار بن مَرْزُوَيْه الدّيْلَمي[(٣)] على ما يبدو في أوائل العقد السّادس من القرن الرّابع الهجريّ ، ويظهر أن مولده كان في بغداد من أسرة تنتمي إلى الدّيْلَم ، وهم فرع من الشّعوب الفارسيّة كان يعيش على الضّفاف الجنوبيّة لبحر قزوين ، وإلى الدّيلم ينتسب بنو بُوَيْه الذين استطاعوا السّيطرة على إيران ، ثم استبدّوا بالسُّلطة في بغداد مقرّ الخلافة العباسيّة .

---

(١) القضيب والبُرْد : هما رمز للخلافة ، والبُرْد : هو البُرْدَة التي منحها الرسول ﷺ كعبَ بن زهير ، واشتراها معاوية من بعض ولده ، فكان خلفاء بني أمية وبني العباس يتوارثونها ويلبسونها في الأعياد ، عَرِّقت : كانت لهم أم ينتسبون إلى أعراقها ، مَصاقع : جمع مِصْقَع وهو الخطيب البليغ ، لُدٌّ : جمع ألَدّ ، وهو الشديد الخصام .

(١) ديوانه ، ج ١ ، ص ٤٠٩ ، وحَيْدَرة : من أسماء علي بن أبي طالب (رضه) .

(٣) عن مهيار الدّيْلمي انظر : تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ، ج ٥ ، ص ٣٧٥ – ٣٧٨ ، وبروكلمان ، ج ٢ ، ص ٦٥-٦٦ .

والطّريف في الأمر أن مهيار وُلد مجوسيا ، وظلّ على مجوسيّته شطراً من شبابه ، ولم يمنعه ذلك من استيعاب الثقافة العربية على نحو جدير بالإعجاب، وقد اتصل منذ شبابه المبكّر بالشّريف الرّضي وتخرّج عليه في الأدب والشّعر ، ويظهر أنه وليَ منصباً من مناصب الكتابة في ديوان الرّسائل ، وهو لا يزال على مجوسيّته ، ولكن أخْذَه بأسباب الثّقافة الإسلاميّة ، وتردُّده على مجالس العلم في بغداد ، وصِلته الوثيقة بالشّريف ، كلُّ ذلك جعل قلبه يتفتّح للإسلام ، فإذا به ينبذ مجوسيّته ويعتنق الإسلام في سنة ٣٩٤ .

وقد ذكر ابن الأثير أنه أسلم على يد الشّريف الرّضي ، ولكن ديوان الشّعر يُسَجِّل أنه حينما اعتنق الإسلام كتب إلى أبي العبّاس أحمد بن إبراهيم الضّبّي، وزير فَخْر الدّولة في الرّيّ (ت ٣٩٨) يبشّره بذلك ويُهَجِّن ديانة قومه ويُسَفِّه ما هم عليه من مجوسيّة ، وهذا يدلُّ على أن الفضل في إسلامه يعود إلى هذا الوزير الأديب . وتدلُّ القصيدة التي كتبها في هذا الشّأن على صدق إيمانه واستِبْصاره في دينه الجديد ، بل إنه سرعان ما يتحوّل إلى داعيةٍ للإسلام ، يُهيب بقومه الباقين على مجوسيّتهم باحْتِذاء مثله ، والاهتداء بِهَدْيه ، وفي ثنايا هذه القصيدة أبياتٌ جميلة يمدح بها الرّسول ﷺ ويفاخر به أهل مِلّتِه القديمة :[1]

وَبَلِّغْ أخا صُحْبَتي عَنْ أخيكَ — عَشيرَتَهُ نائِياً أوْ قَريبا
تَبَدَّلْتُ من نارِكُمْ رَبَّها — وَخُبْثِ مَوَاقِدِها الخُلْدَ طِيبا
نَصَحْتُكُمُ لو وَجَدْتُ المُصِيخَ — ونادَيْتُكُمْ لو دَعَوْتُ المُجِيبا
أفِيئوا فَقَدْ وَعَدَ اللّهُ في — ضَلالَةِ مِثْلِكُمُ أنْ يَتُوبا
وإلا هَلُمُّوا أباهِلْكُمُ — فَمَنْ قامَ والفَخْرَ قامَ المُصِيبا
أ مِثْلُ مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى — إذا الحُكْمُ وَلَّيْتُمُوهُ لَبِيبا

(١) ديوان مهيار ، ج ١ ، ص ١٣ .

بِعَدْلٍ مكانَ يكونُ القَسِيمُ وفَصْلٍ مكانَ يَكُونُ الخطيبا
وَثَبْتٍ إذَا الأَصْلُ خانَ الفُرُوعَ وفَضْلٍ إذَا النَّقْصُ عابَ الحَسِيبا
وصَدْقٍ بإقرارِ أعدائِهِ إذا نافَقَ الأَوْلياءُ الكَذُوبا
أبانَ لنَا اللّٰهُ نَهْجَ السَّبِيل بِبعثَتِهِ وأَرَانَا الغُيُوبَا
لَئِنْ كُنْتُ مِنْكُمْ فإنَّ الهَجِيـ ـنَ يُخْرِجُ في الفَلَتَاتِ النَّجِيبا [١]

وفي قصيدة أخرى يوجِّهها إلى أبي العبَّاس الضبِّي أيضاً ، وذلك بمناسبة اعتزاله الوزارةَ وهجرته من الرَّيّ ، يسجِّل صراحَةً أنه صاحب الفضل في هدايته إلى الإسلام ، ويقول إن ما بينه وبين أبي العبَّاس من عهود سابقة قد زادت وَثاقَةً بفضل ماتَّة الدِّين الجديد :[٢]

سَيَلْقَى بها « الكافِي » عُهُوداً وثيقَةً لقد زادَهَا الإسلامُ حقا وأكَّدَا
هُوَ المُنْقِذي من شِرْكِ قَوْمِي وباعِثِي على الرُّشْدِ أنْ أصْفِي هَوَايَ مُحَمَّدا
وتارِكُ بَيْتِ النارِ يَبْكي شَرَارُه عَلَيَّ دماً أن صَارَ بَيْتِيَ مَسْجِدا [٣]

ونجد الشَّاعر في هذه القصيدة نفسِها يَسْتوحي تاريخ الإسلام في مديحه لأبي العبَّاس ، فهو يقول إن هجرة الرَّسول ﷺ من مكة إلى يثرب كانت خيراً وبركة عليه وعلى دعوة الإسلام ، ويقيس على ذلك اعتزالَ ممدوحه للوزارة وهجرتَه من الرَّيّ ؛ إذ يُبَشِّره بأن ذلك لن يَضيره في شيء :

فإنْ يَكُ ضَرَّتْ هِجْرَةٌ بَعْثَ أَحْمَدٍ
فَقَدْ حَطَّ هَجْرُ « الرَّيِّ » رُتْبَةَ « أَحْمَدَا »

وقد كان المنتظَر أن يكون الإسلام هو طريق مِهْيار إلى التَّشيُّع ، ولكن الذي

---

(١) المُصيخ : المُصْغي ، أفيئوا : ارجعوا وتوبوا ، أباهِلُكم : أفاخِرُكم ، الهجين : اللئيم ، والنَّجيب : الفاضل النفيس في نوعه . (٢) ديوان مِهيار ، ج ١ ، ص ٢٣٢–٢٣٣ ، الماتَّة : الصلة والوسيلة والحُرْمَة .
(٣) الكافي أو كافي الكُفاة : هو لقب الوزير أبي العباس الضبِّي ، وبيت النار : رمز للمجوسية .

يتبيّن لنا من ديوانه أن ميله إلى آل البيت كان قبل إسلامه وهو لا يزال يَدين بالمجوسيّة ، تدلُّ على ذلك قصيدةٌ له مؤرَّخَة في سنة ٣٨٩ أي قبل إسلامه بخمس سنوات ، وهي قصيدة تمثّله مُتَشَيِّعًا وهو مجوسيٌّ مُتَشَبِّع بالشُّعوبيّة الفارسيّة . ومطلع هذه القصيدة :(١)

هَلْ تعلَمِينَ يا ابْنَةَ الأعاجِمِ كم لأخِيكِ في الهَوَى مِنْ لائِمِ

وفيها يحمل على العرب في لهجة تذكِّرنا بما شهدناه من قبل في شعر دعبل والشّريف الرّضي ؛ لنكثهم عهودَهم في آل النّبيّ وغدرهم بهم ، وكأن العرب جميعًا مسئولون عن جريمة اقترفها عُبَيْد الله بن زياد ، وذلك بعد أن عَدَّد مآثر نبيِّ الإسلام على العرب واعتلاء شأنهم بفضله ، ونَدَّد بما لقيه من قومه قريش في حياته ، فهو يقول مخاطبًا العرب :

ما بَرِحَتْ مُظْلِمَةً دُنْيَاكُمْ حتَّى أضاءَ كَوْكَبٌ في هاشِمِ
بِنتُّمْ بِهِ وكُنْتُمْ من قَبْلِهِ سِرا يموتُ في ضُلُوعِ كاتِمِ
حَلَلْتُمْ بِهَدْيِهِ ويُمْنِهِ بَعْدَ الوِهادِ في ذُرَى العَوَاصِمِ
تَخْفُقُ رايَاتُكُمْ مَنْصُورَةً إذا ادَّرَعْتُمْ باسْمِهِ في جاحِمِ
عُمِّرَ منكُمْ في أذًى تَفْضَحُكُمْ أخبارُهُ في سِيَرِ المَلاحِمِ
بَيْنَ قَتِيلٍ مِنْكُمْ مُحارِبٍ يَكْفُرُ أو مُنَافِقٍ مُسَالِمِ (٢)

ثم يصل ذلك بالحديث عن غدرهم بآل البيت بدءًا من مقتل علي بن أبي طالب (رضه) ، وانتهاءً بمصرع الحسين :

---

(١) ديوان مِهْيار ، ج ٣ ، ص ٣٣٤-٣٣٦ .

(٢) بِنْتم : ظهرتم ، الوهاد : جمع وَهْدة ، وهي الأرض المنخفضة ، والهُوَّة في الأرض ، وادَّرَع : لبس الدِّرع ، وكل ما أدخلته في جوف الشيء فقد أدْرعته ، والمراد احتميتم ، الجاحِم : شدة القتل في الحرب ، وضيقها وشدّتها .

ثُمَّ قَضَى مُسَلَّماً من رِيبَةٍ فَلَمْ يَكُنْ من غَدْرِكُمْ بسالِم
وقد شَهِدْتُمْ مَقْتَلَ ابْنِ عَمِّهِ خَيْرِ مُصَلٍّ بَعْدَهُ وَصَائِم
وما اسْتَحَلَّ باغياً إمامُكُمْ يَزِيدُ بالطَّفِّ من ابْنِ فاطِم
وَهَا إلى اليَوْمِ الظُّبا خاضِبَةٌ من دَمِهِ مَنَاسِرَ القَشَاعِمِ (٢)

وهو يكرِّر هذا الهجوم على قريش وعلى العرب عامّةً في قصيدةٍ من أوَّل قوله بعد إسلامه ، فهو إذْ يَنْدب ما يعانيه من حرمان ، يقول إنه يأتسي بما لقيه الرّسول ﷺ وآلُ بيته من قومه :(٢)

لَئِنْ نامَ دَهْرِيَ دُونَ المُنَى فَأَصْبَحَ عَنْ نَيْلِها مُقْعِدِي
وَلَمْ أكُ أحْمَدُ أفْعَالَهُ فَلِي أُسْوَةٌ بِبَنِي أحْمَدِ
بِخَيْرِ الوَرَى وبَنِي خَيْرِهِمْ إذا وَلَدُ الخَيْرِ لَمْ يُولَدِ
وأكْرَم حَيٍّ عَلَى الأرْض قَامَ ومَيْتٍ تَوَسَّدَ في مَلْحَدِ
وبَيْتٍ تَقَاصَرُ عَنْهُ البُيوتُ وطالَ عَلِيا عَلَى الفَرْقَدِ
تَحُومُ المَلائِكُ مِنْ حَوْلِهِ ويُصْبِحُ لِلْوَحْيِ دَارَ النَّدِي(٣)

ويخاطب قريشاً فيقول متحدِّثاً عما لقيه الرّسول ﷺ منهم بعد أن أعلن لهم أن علي بن أبي طالب هو « وَصِيُّه » و وارث خلافته من بعده ، وذلك حسب عقيدة الشّيعة جميعاً :

أ لا سَلْ قُرَيْشاً وَلُمْ مِنْهُمُ مَن اسْتَوْجَبَ اللَّوْمَ أو فَنِّدِ

(١) الطَّفّ : ساحل الفرات بكَرْبَلاء حيث قتل الحسين ، المناسِر : جمع مِنْسَر وهو المِنْقار ، القَشاعِم : النُّسور. ويريد بالبيت الأخير أن جثث القتلى بكربلاء تُركت نهباً للنسور ، وجوارح الطير تَلِغُ في دمائها ؛ ولهذا اصطبغت مناقيرها بالدماء حتى اليوم .

(٢) ديوان مهيار ، ج ١ ، ص ٢٩٩–٣٠٠ .

(٣) المَلْحَد : القبر ، الفَرْقد : من نجوم السماء . تَقاصَرُ : تتقاصَرُ ، أي لا تسمو سُمُوَّه ، عَلِيًا : عاليًا .

وقُلْ : ما لَكُمْ بَعْدَ طُولِ الضَّلا ... لِ لَمْ تَشْكُرُوا نِعْمَةَ المُرْشِدِ ؟
أتاكُمْ على فَتْرَةٍ فَاسْتَقَامَ ... بِكُمْ جائِرِينَ عَنِ المَقْصِدِ
وَوَلَّى حَمِيداً إلَى رَبِّهِ ... وَمَنْ سَنَّ ما سَنَّهُ يُحْمَدِ
وقَدْ جَعَلَ الأمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ... لِحَيْدَرَ بالخَبَرِ المُسْنَدِ
وسَمَّاهُ مَوْلَى بِإقْرارِ مَنْ ... لَوِ اتَّبَعَ الحَقَّ لَمْ يَجْحَدِ
فَمِلْتُمْ بها حَسَدَ الفَضْلِ عَنْهُ ... وَمَنْ يَكُ خَيْرَ الوَرَى يُحْسَدِ
وقُلْتُمْ بِذاكَ قَضَى الاجْتماعُ ... ألا إنَّما الحَقُّ لِلْمُفْرَدِ [1]

ولمهيار عَيْنِيَّةٌ تعدُّ من أروع شعره الشّيعيّ ، افتتحها بمطلع حزين يوحي بما سيُعَبِّر عنه من ألَم لما حلَّ بآل البيت :

هل بَعْدَ مُفْتَرَقِ الأظْعانِ مُجْتَمَعُ ... أمْ هَلْ زَمَانٌ بهم قد فاتَ يُرْتَجَعُ [2]

وفي هذه القصيدة نرى مِهْيار يَحْتَجّ لحقِّ آل البيت في الخلافة على نحوٍ لم يسبق لشاعر شيعيّ أن أداره بمثل هذه البَراعة ، إلا ما سبق أن رأيناه لدى الكُمَيْت ، ولن نُطيل باقتطاف هذا الحِجاج الطّويل ، وإنما يهمُّنا في موضوعنا إشاراتُه فيها إلى رسول الله ﷺ ، وما لقي آل البيت على أيدي النّاكثين بعهد الرّسول من وُلاة الجور :

هَذِي قَضَايا رسول الله مُهْمَلَةٌ ... غَدْرًا وشَمْلُ رسولِ اللهِ مُنْصَدِعُ
والناسُ لِلْعَهْدِ ما لاقَوْا وما قَرُبُوا ... ولِلْخيانَةِ ما غابُوا وما شَسَعُوا
وآلُهُ وَهُمُ آلُ الإلَهِ وَهُمْ ... رُعاةُ ذا الدِّين ضِيمُوا بَعْدَهُ وَ رُعُوا

(١) قوله « وسمّاه مولى » يشير إلى خبر غَدير خُم ، حيث أخذ الرسول ﷺ بيد علي بن أبي طالب وخطب المسلمين فقال : « من كنت مَوْلاهُ فعَلِيٌّ مولاه ، اللّهُمَّ والِ مَنْ وَالاهُ ، وَعادِ مَنْ عاداهُ ، وأدِرِ الحقَّ معه حيث دارَ » . ويعني بالاجتماع في البيت الأخير اجتماع السَّقيفَة الذي انتهى بالبيعة لأبي بكر الصِّدّيق .

(٢) ديوان مِهْيار ، ج ٢ ، ص ١٨١-١٨٤ .

مِيثاقُهُ فيهمُ مُلْقَى وأمّتُهُ   مَعْ مَنْ بَغاهُمْ وعادَاهُمْ لَهُ شِيَعُ (١)

ولا ينسى مهيار في نهاية القصيدة فارسيّته فيتوجّه إلى الإمام عليّ طالبًا شفاعتَه وماتًا له بِصِلة سلمان الفارسيّ ، الذي قال فيه الرّسول ﷺ : « سلمان منّا آل البيت » ، ويختم قصيدته بأن حبّه لعليّ (رضه) وإخلاصه له هو ضمانه الوحيد لغفران ذنوبه :

آبايَ في فارِسٍ والدِّينُ دِينُكُمُ   حَقا لَقَدْ طابَ لي أسٌّ ومُرْتَفَعُ
ما زِلْتُ مُذْ يَفَعَتْ سِنِّي ألْوذُ بكُمْ   حتّى مَحَا حَقُّكُمْ شَكِّي وأنْتجعُ
وقدْ مَضَتْ فُرُطَاتٌ إن كَفَلْتَ بها   فَرَّقْتَ عن صُحُفِي البَأسَ الذي جَمَعُوا
سَلْمَانُ فيها شَفِيعي وَهْوَ مِنْكَ إذَا الـ   ـآباءُ عِنْدَكَ في أبنائِهِمْ شَفَعُوا
فكُنْ بها مُنْقِذاً من هَوْلِ مُطّلَعِي   غَداً وأنْتَ من الأعْرَافِ مُطّلِعُ
سَوّلَتْ نَفْسِي غُروراً إن ضَمِنْتُ لَهَا   أنّي بِذُخْرٍ سِوَى حُبِّيكَ أنْتَفِعُ (٢)

ولمهيار قصائدُ عديدة أخرى في سيرة الإمام عليّ (رضه) وفي مَراثي الحسين ، بلغ فيها ذروة التّعبير الذي يجمع بين رقّة التّفجُّع وقوّة الحِجاج ، بل إننا نراها أجود مما نظمه أستاذه الشّريف الرّضي الذي كان في شعره دائم الإدْلال بنسبته إلى بيت النُّبوّة ، وكانت لا تفارق مُخَيِّلته أحلامُه في تولّي الخلافة ، مما جعل الفخر والوعيد أغلب على شعره من الرّثاء .

أمّا مهيار فكان رجلاً من عامّة الشّعب حديث عهد بالإسلام ، وكان حبُّ آل بيت هو طريقه إلى الإسلام ، فكان تعبيره عن ولائه لهم والتّفاني في الدّفاع عن قضيّتهم يتّسم بالصّدق والحرارة . ومن ناحية أخرى ، فإن في شعر مهيار من التّعبير عن حبّ الرّسول ﷺ ومناجاته ما لا نجد منه إلا القليل في شعر الشّيعة الآخرين ؛ إذ شغلهم عن ذلك اهتمامُهم بتَعْداد مناقِب آل البيت.

(١) شَسَعوا : بعدوا . (٢) يَفَع : ترعرع وناهز البلوغ ، أنْتجع : أطلب معروفهم ، فُرُطات : ذنوب سابقة .

ومع ذلك ، فإن لشعراء الشّيعة فضلاً لا يُنْكر في العودة إلى موضوع المديح النّبويّ ، حتى وإن كان ذلك يأتي عندهم تابعًا للحديث عن آل البيت ؛ ولهذا فإنهم هم الذين يُمَثّلون استمرار هذا الموضوع ومواصلتَه حتى القرن السادس ، الذي يُقْبِل فيه الشُّعراء من شيعة وأهل سُنّة على المديح النّبوي بصورة بالغة الاتّساع .

وإنما نقول ذلك لأن من الغريب أننا حينما نتأمّل دواوين الشُّعراء الكبار منذ القرن الثّاني الهجري حتى السّادس ، من أمثال : أبي تمّام ، والبُحتُري ، والمتنبّي ، فإننا لا نكاد نجد واحدًا منهم يخصُّ بالحديث سيرة الرّسول ﷺ ، أو يعود إلى تأمُّل جوانب شخصيّته وشمائله ، وأنه لا تأتي الإشارة إلى شيء من ذلك إلا على نحو عارِض في المديح ، أو في غير ذلك من أغراض الشّعر .

شُعراءُ آخرون :

ولسنا نرى بأساً في تتبُّع تلك الإشارات إلى الرّسول لدى الشُّعراء غير المُتَشيِّعين ؛ فهي – على قِلّتها – لا تخلو من قيمة ودلالة . على أننا نسجّل أن معظمها لشعراء مَغْمورين أو مجهولين ، ولعلّ القُصّاص الشّعبيّين هم أكثر النّاس نظماً لمثل هذا الشّعر ، ولا بدّ أن الشّعر الكثير الذي نجده في كتب السِّيرة والذي يتناول معجزات الرّسول ﷺ ، مما تتبّعه العلماء وتشكّكوا في نسبته ، من وضع أولئك القُصّاص الذين لم تُفِدْنا كتب التّراجم عنهم بالكثير، فهم في الغالب ينتمون إلى طبقات شعبيّة ، وليسوا على درجة عالية من الشُّهرة ، ولا من إجادة بحيث كانوا من الشُّعراء الفحول ، غير أن إيمانهم السّاذَج وحبّهم الخالص للرّسول هو الذي حملهم على النّظم في هذا الموضوع .

مُحَمّد بن المُسْتَنِير « قُطْرُب » :

ربّما كان من الغريب أن يكون من أوّل المشاركين في المديح النّبويّ من

رجال القرن الثّاني هذا النّحويُّ اللُّغويّ ، الذي لم يُعْرَف بالشّعر ، ولم تحفظ عنه المصادر إلا مشاركتَه في علوم العربيّة التي كان من أعلامها المُبرَّزين ؛ فقد كان قُطرب تلميذاً لسيبَوَيْهِ ملازماً له . واشتهر بعد ذلك بأنه من أئمّة النّحو واللُّغة البصريّين ، كذلك عُرِف بأخذه بمذهب الاعتزال ، وقد اتّصل بأبي دُلَف العِجْلِيّ وأدّبَ ولده ، وكان له نشاط كبير في التّأليف ؛ إذ يُنْسب إليه عددٌ كبير من الكتب ، يدور كُلُّهُ حول : النّحو ، وغريب اللُّغة ، ومعاني القرآن وإعرابه ، ويقال إنه أوّل من ألّف في المُثَلّث في اللغة . وكانت وفاته في سنة ٢٠٦ .(١)

وقد روى له ياقوت قطعتين من الشّعر ، لا تدلان على طبقة عالية في الشّعر ، ومع ذلك فإننا نجد قصيدة طويلة منسوبةً إليه في كتاب « نور القَبَس » لليَغْموريّ (٢) يناجي فيها الرّسول ﷺ ويتحدّث عن معجزاته ، ولسنا على يقين من أن هذه القصيدة له ، فهو لم يُعرف بهذا الطّراز من الشّعر ، ولكنّا لا نرى بأساً في إثباتها :

إلَيْكَ رَسُولَ اللّهِ منا تَحيّةً وصلّى عليكَ العابدُ المُتَهَجِّدُ
فَأنْتَ رَسُولَ اللّهِ هَادٍ ومُهْتَدٍ نَبِيُّ هُدًى ، لِلأنْبِيَاءِ مُؤَيِّدُ
وقد قالَ « حَسَّانٌ » وفي الشّعر شاهِدٌ تُجَدِّدُهُ الأيّامُ يُرْوَى ويُنْشَدُ :
« أغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوّةِ خَاتَمٌ مِنَ اللّهِ مَشْهورٌ يَلوحُ ويَشْهَدُ
وأعْطَاهُ من لَفْظِ اسْمِهِ لِيُجِلّهُ فَذُو العَرْش مَحْمُودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ »

---

(١) ترجمة قُطْرُب في طبقات النحويين واللغويين للزُّبَيدي ، ص ٩٩-١٠٠ ، معجم الأدباء لياقوت ، ج ١٩ ، ص ٥٢-٥٤ ، بُغْيَةُ الوُعاة للسيوطي ، ج ١ ، ص ٢٤٢-٢٤٣ ، والمدارس النَّحْوية للدكتور شوقي ضيف ، ص ١٠٨-١١١ ، وبروكلمان ، ج ٢ ، ص ١٣٩-١٤٢ .

(٢) أورد هذه القصيدة اليغموري في : « نور القَبَس المختصر من المقتبس » بتحقيق رودلف زلْهايم ، النشرات الإسلامية ، سنة ١٩٦٤ ، ولم أتمكن من الرجوع إلى هذا المصدر ؛ فنقلت القصيدة من كتاب : « شعر الدعوة الإسلامية » جمع وتحقيق الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجعيثن ، الرياض ١٩٧٤- ج ٣ ، ص ٥٣-٥٥ .

فقُلْتُ شَبيهاً بالذي قالَ : إنَّني به مؤمنٌ حقا لِربِّي مُوَحِّدُ
فلا يُقْبَلُ التوحيـدُ إلا بِذِكْـرِه لِيَقْرِنَهُ عِنْدَ النِّداءِ المُوَحـِّدُ

ثم يسوق عدداً من معجزات الرَّسول التي أشارت إليها كتب السِّيرة ، والتي أصبحت موضوعاً يُلحُّ عليه كلٌّ من نظموا في المدائح النَّبويَّة ، مثل : حَنين الجِذْع إليه ، وإدْرار اللَّبَن من الشَّاة العَجْفاء ، وخَبَر الإسْراء ، وحديث العِير التي مَرَّ بها وهو على البُراق ، وتسليم الأحجار والجمادات عليه ، والسَّحابَة التي كانت تُظَلِّله والتي شهدها بَحيرا الرَّاهب :

وما جاء يَدْعُونا بغَيْرِ دلالَةٍ ولكِنْ بآياتٍ تَدُلُّ وتَشْهَدُ
ومن ذاك جِذْعٌ حَنَّ شَوْقًا إلى الرِّضا فما زالَ ساعاتٍ يَميلُ ويُسْنِدُ
وقد سَمِعُوا صَوتًا من الجِذْع بَيِّنًا فيا عَجَبًا مِمَّنْ يَشُكُّ ويُلْحِدُ
ومن ذاكَ شاةٌ خِلْوَةُ الضَّرْع مَسَّها فَدَرَّتْ بِغُزْرٍ حافِلٍ يَتَرَبَّدُ
فقامَ إليها الحالبانِ فَأَتْرَعَا أَوَانِيهِمَا والضَّرْعُ رَيَّانُ أَبْرَدُ
يَدٌ مَسَّتِ الأَطْبَاءَ طابَتْ وبُورِكَتْ مُؤَيَّدَةً باللّهِ وَهْوَ المُؤَيِّدُ
مُطَهَّرَةُ التَّركيبِ من كُلِّ آفَةٍ مُبارَكَةُ الأَفْعَالِ ما مِثْلَهَا يَدُ
وسارَ إلى البَيتِ المُقدَّس ليلةً مَسِيرةَ شهرٍ وارداً لَيْسَ يَطْرُدُ
يُخَبِّرُ بِالعيرِ التي في طَرِيقِهِ لِيُوقِنَ أَهْلُ الشِّرْكِ ذاكَ فَيَسْعَدُوا
ومن ذاك أخبارٌ عن الغَيبِ قالَها يُعايَنُ منها الصدقُ فيها ويُوجَدُ
تُسَلِّمُ أحجارٌ عليهِ فَصيحَةً إذا ما خَلا في حاجَةٍ يَتَفَرَّدُ
ويَسْمَعُ من أصواتِها في طريقِهِ تُمَجِّدُهُ ، إنَّ النبيَّ مُمَجَّدُ
وأنشأَ رَبِّي مُزْنَةً فوقَ رأسِهِ رآها « بَحيرا » الراهبُ المُتعبِّدُ
تظلِّلُهُ من كُلِّ حَرٍّ يُصيبُهُ تقيمُ عليهِ ما أقامَ فيَرْكُدُ
وإنْ سارَ سارَتْ لا تُفارِقُ رأسَهُ فقالَ لهم : هذا النبيُّ مُحَمَّدُ

حليمٌ رحيمٌ ليِّنٌ مُتواضعٌ سخِيٌّ حَيِيٌّ عابِدٌ متزهِّدُ
وكانَ رسولُ اللهِ فَوْقَ صِفاتِنا يُقَصِّرُ فيه من يقولُ فَيَجْهَدُ (١)

أبو العَتاهِية :

إسماعيل بن القاسم المعروفُ بكُنْيته أبي العَتاهية ، من أعلام شعراء العصر العبّاسيِّ الأوَّل ، وُلد في سنة ١٣٠ وعاش في الكوفة مُخالطاً المُجّان من الشُّعراء ، واتّصل بالخليفة المَهْدي ونال عطاياه ، كما اتَّصَل أيضاً بالهادي والرَّشيد ، وحينما أخذ منه الكِبَرُ انتقل إلى حياة الزُّهد ، ونَظَمَ في ذلك أشعاراً كثيرة ، وكانت وفاته سنة ٢١٣ على الأرجح .(٢)

ومن بين هذه الأشعار الزُّهْدِيّة قِطعٌ التفتَ فيها أبو العتاهية إلى شخصيّة الرَّسول ﷺ ، مادحاً و راثِياً على نحو يكاد ينفرد به دون شعراء عصره . ففي القطعة الأولى يرى أن الله قد أكرم النّاس ببَعْثِه رسولَه إليهم ، فهم جديرون بأن يكرموه جزاءً وِفاقاً على ذلك ، وأنه كان أولى بالشُّعراء أن يتوجّهوا بمديحهم إلى الرَّسول ، بدلاً من إهداء مدائحهم إلى أمثالهم من البشر :(٣)

يا بني آدَمَ صُونوا دينَكُمْ ينبغي لِلدِّين ألا يُطَّرَحْ
واحْمَدُوا اللهَ الذي أكْرَمَكُمْ بِنَبيٍّ قامَ فيكُمْ فَنَصَحْ
بِنَبيٍّ فَتَحَ اللهُ به كُلَّ خيرٍ نِلْتُمُوهُ وَشَرَحْ
مُرْسَلٍ لو يُوزَنُ النّاسُ به في التُّقَى والبِرِّ شالُوا و رَجَحْ
فرسولُ اللهِ أوْلَى بالعُلا ورسولُ اللهِ أوْلَى بالمِدَحْ (٤)

(١) خِلْوَة : خالية ، يَتَرَبَّد الضَّرع : أيْ ظهرتْ فيه لُمَعُ سوادٍ وبياض ، أتْرع : ملأ ، مُزْنة : سحابة ، يجْهَد : يبلغ المشقّة . (٢) عن أبي العتاهية ، انظر العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ، ج ٣ ، ص ٢٣٧-٢٥٣ ، وبروكلمان ، ج ٢ ، ص ٣٤-٣٦ ، ودراسة الدكتور محمد محمود الدّش : أبو العتاهية ، حياته وشعره ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٣) أبو العَتاهِيَة : أشعاره وأخباره لأبي بكر الصّولي ، بتحقيق الدكتور شكري فيصل ، دمشق ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ نقلاً عن شعر الدعوة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٥٥ . (٤) شالوا : خَفَّت كِفّتُهم .

ولأبي العتاهية مراثٍ للرّسول ﷺ تبدو لنا شيئا فريداً في عصره ، ولرثاء الرّسول ﷺ بعد مُضِيٍّ نحو قرنين على وفاته دلالةٌ خاصّة ؛ لأننا نرى الشّاعر فيها يَسْتحضر شخصيّة الرّسول ﷺ كما لو كان قد مات لِتَوّه ، ونُحِسُّ في هذه المراثي حُبًّا وإخلاصاً بَعيدَيْن عن التّكَلُّف ، ولعلّ هذا الشّعر يُغَيّر ما يَكادُ يَتّفِق عليه دارسو أبي العتاهية من أمْر زَنْدَقَته . ولنتأمَّلْ هذه القطعة :[1]

سلامٌ على قَبْرِ النبيِّ مُحَمَّدٍ نَبيِّ الهُدَى والمصطفى والمُؤَيَّدِ
نَبِيٌّ هَدَانا اللهُ بَعْدَ ضَلالَةٍ به لم نَكُنْ لولا هُدَاهُ لِنَهْتَدي
فكانَ رسولُ اللهِ مِفْتاحَ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ أهْدَاها لكُلِّ مُوَحِّدِ
وكانَ رسولُ الله أفْضَل مَنْ مَشَى على الأرْض إلا أنَّهُ لم يُخَلَّدِ
شَهِدْتُ على أنْ لا نُبُوَّةَ بَعْدَهُ وأنْ لَيْسَ حَيٌّ بَعْدَهُ بِمُخَلَّدِ

ويقول في قطعة أخرى تبدو ثمرةً لوقوفه على المشاهِد النّبويّة في الحَرَمَيْن:[2]

لِيَبْكِ رسولَ اللّهِ مَنْ كانَ باكِيا ولا تَنْسَ قبراً بالمدينةِ ثاويا
جَزَى اللهُ عنّا كُلَّ خَيْرٍ مُحَمّداً فقد كانَ مَهْدِيا دليلاً وهادِيا
ولَنْ تسرِيَ الذِّكْرَى بما هُوَ أهْلُهُ إذا كُنْتَ لِلْبِرِّ المُطَهَّرِ ناسِيا
أ تَنْسَى رسولَ الله أفْضَلَ مَنْ مَشَى وآثارُهُ بالمَسْجِدَيْن كما هِيا
تَكَدَّرَ من بَعْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عليه سلامُ اللهِ ما كانَ صَافِيا

القاسِم بن يُوسُف :

القاسم بن يوسُف الكوفي هو أخو الكاتب المشهور أحمد بن يوسُف ، أحد أعلام كتّاب الرّسائل في عصر المأمون ، وكان أسَنَّ من أخيه . ويقول الصّولي

(١) أبو العَتاهيَة : أشعاره وأخباره ص ١١٦ ، عن شعر الدّعْوة ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٢) ثَوى بالمكان وفيه : أقام ، وثاوياً : واقعاً ، أبو العَتاهِيَة ، ص ٤٣٣ ، عن شعر الدعوة ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

عنه إنه أكثر شعراً منه وأفصح ، ولا سيّما في فنٍّ غريب انفرد به في عصره ، وهو رثاء البهائم ! كما يَذْكر أنه كان أحدَ متكلّمي الشّيعة . وجمع الصّولي أشعاره ورتّبها على حروف المُعْجَم ، واختار منها مُقْتَطَفاتٍ كثيرة في كتاب « الأوراق » ، وكانت وفاته في نحو سنة ٢٢٠ .[١]

وللقاسم قصيدةٌ جعل جانباً كبيراً منها في المديح النّبويّ يقول فيها :[٢]

ألا إنَّ خَيْرَ بني آدم ... نَبِيُّ الهُدَى والتُّقَى والكَرَمْ
مُحَمَّدٌ المُصطفَى والرَّسولُ ... إلى النّاس من عَرَبٍ أَوْ عَجَمْ
فَأَدّى الرِّسالَةَ عن رَبِّهِ ... ولم يَثْنِه مَلّةٌ أو سَأمْ
فَنَوَّرَ للمؤمنينَ الهُدَى ... وأَخْرَجَهُمْ من دَيَاجِي الظُّلَمْ
بِأَحْمَدَ أُغْلِقَ بابُ الضَّلالِ ... وهَدَّمَ أَرْكانَهُ فانْهَدَمْ
عليهِ السَّلامُ وصَلّى عَلَيْـ ... ـهِ رَبُّ العِبادِ وبارِي النَّسَمْ
وأُمّتُهُ جُعِلَتْ في الكِتا ... بِ وَحْياً مِنَ اللهِ خَيْرَ الأُمَمْ

ويصلُ ذلك بالحديث عن آل البيت ، ويتفَجَّع لِما أصابهم من ظُلم .

(١) ترجمة القاسم بن يوسف في الأوراق للصّولي ، تحقيق هيوارث دن ، ص ١٦٣-٢٠٦ ، والأغاني حيث يرد ذكره عَرَضاً في أثناء ترجمته لأخيه أحمد بن يوسف ، ج ٢٣ ، ص ١١٨ ، ومعجم الشعراء للمَرْزُباني ، ص ٢١٦-٢١٧ .

(٢) الأوراق للصّولي ، ص ١٩٢ .

الفصل الثّالث

المَوْلدُ النّبويُّ والمَوْلِديّات

ليس الاحتفال بالموالد من التّقاليد الإسلاميّة الأصيلة ؛ ولهذا فإن المسلمين لم يتّخذوا من مولد الرّسول ﷺ مُبْتَدَأً للتّاريخ الإسلاميّ ، كما فعلت المسيحِيَّة بالنِّسبة لمولدِ السّيِّد المَسيح ، وإنما اتّخذوه من الهجرة ، وهي – في الحقيقة – ميلادٌ للجماعة الإسلاميّة في المدينة ، ولكنّ احتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم ، أصحابِ الدِّيانات القديمة ، جعلهم يتأثّرون ببعض عاداتهم ومنها الاحتفالُ بتاريخ المولد . ولسنا نعرف متى بدأ الاحتفال بمواليد الأشخاص في العالم الإسلاميّ ، ولكننا نعتقد أن ذلك بدأ في نحو منتصف القرن الرّابع الهجريّ .

ويظهر أن الأصل في ذلك هو الاحتفالُ بالذّكرى السّنَويّة لحَدَث جَليل يَسْتأثر باهتمام عامّة النّاس ، وأن أوّل عيد من هذا النّوع هو احتفال الشّيعة بالذّكرى السّنويّة لعيد الغَدير ، والمقصود غَدير خُم ، الذي قال رسول الله ﷺ فيه تلك العبارة المشهورة ، التي أصبحوا يستندون إليها في إثبات « الوِصايَة » لعلي بن أبي طالب (رضه) ، وهي : « مَنْ كنتُ مولاه فعَليٌّ مولاه » . يقول المَقْريزي في « الخُطَط » : « وأوّل ما عُرِفَ هذا العيدُ في الإسلام كان في العراق أيّامَ مُعِزّ الدّوْلة ابن بُوَيْه ، أحدثه في سنة ٣٥٢ فاتّخذه الشّيعة عيداً منذ ذلك الوقت ، وهو يوم الثّامنَ عشرَ من ذي الحِجّة .»[١]

---

(١) الخُطَط ، ج ٢ ، ص ٢٢٢–٢٢٣ .

وانتقل الاحتفال بهذا العيد من الشّيعة الاثنا عشريّة في العراق وفارس إلى الشّيعة الإسماعيلِيّة في مصرَ الفاطِميّة ، إذ يقول المَقْريزي أيضاً : « إن أوّل احتفال بعيد الغَدير في مصرَ في أيّام المُعِزّ لِدين الله الفاطمي كان سنة ٣٦٢، وهي التي قَدِم فيها من إفريقيّة إلى مصر .» [(١)] وفي السّنة التّالية انتقل إلى مصر أيضاً الاحتفالُ بالذّكرى السّنويّة لِمَصْرَع الحُسَيْن في يوم عاشوراء ، وذلك بالنِّياحَة وخروج المُنْشِدين وإعلان مآتِم الحزن وتعطيل الأسواق .[(٢)] واستمرّ الاحتفال بهذين العيدين في العراق وإيران حتى اليوم ، وفي مصر الفاطميّة حتى نهاية هذه الدّولة ، وإن كان قد قُطِعَ خلال بعض السّنوات[(٣)] ، وظلّت بقايا من الاحتفال بيوم عاشوراء بمآتمه الصّاخِبَة في القاهرة حتى عهدٍ قريب .[(٤)]

ويُلْحق بذلك الاحتفالُ بأعياد ميلاد الأشخاص ، وهي عادة لا ندري مَبْدأها على وجه التّحديد ، ولكننا نراها منتشرةً في العراق وإيران في ظلّ الدّولة البُوَيْهيّة ، وكانت تُسمّى « التّحويل » ؛ أي مرور حَوْلٍ على مولد الشّخص . وفي « يتيمة الدّهْر » للثّعالبي رسالةٌ لإبراهيم بن هِلال الصّابي يهنّئ فيها عَضُدَ الدُّولة (ت ٣٧٢) بتحويل سَنَتِه [(٥)] ، وفي ديوان الشّريف الرَّضي تهنئةٌ لبَهاء الدّولة (ت ٤٠٣) بالتّحويل [(٦)] ، وكذلك في ديوان الشّريف المُرْتَضى قصائد عديدة في تهنئة جَلال الدّولة (ت ٤٣٥) والوزير أبي

---

(١) اتّعاظ الحُنَفا ، ج ١ ، ص ١٤٢ . (٢) اتّعاظ الحُنَفا ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) اتّعاظ الحُنَفا في الكلام عن أحداث سنوات ٣٨١ - ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ (ج ١ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، و ٢٤/٢ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ١٦٨) .

(٤) وصف الدكتور زكي مبارَك مشاهد من الاحتفال بيوم عاشوراء ، ومنها المواكب التي كانت تطوف بمسجد الحسين بالقاهرة ، وهم يعلنون بالبكاء والنّواح وقد خَضّبوا أجسادهم بالدّماء ويبكون ويصرخون وهم يسمعون سيرة الحسين وقصة مصرعه ، وذلك خلال السنوات الأولى من هذا القرن . انظر المدائح النبوية ، ص ٧٠ .

(٥) يتيمة الدهر للثّعالبي ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ . (٦) ديوان الشّريف الرَّضي ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

سعد بن عبد الرّحيم (ت ٤٤٧) بمثل هذه المناسبة.[١]

المَوْلديات في المشرق :

ولعلّ بعض المُتَديِّنين رأوا أن الاحتفال بعيد مولد الرّسول ﷺ أوْلَى من الاحتفال بمواليد الأفراد ، ويقول « آدم متز » إنّ هذا الاحتفال بدأ منذ أوائل القرن الرّابع الهجريّ ، ولكننا لا نراه يتّخذ صفةً رسمِيّة ، ولا نجد شواهِدَ على الاحتفال به بشكل منتظم فيما بين أيدينا من مصادرَ ، على حين نجد أن الخلافة الفاطميّة في مصرَ قد أوْلَتْ اهتماماً كبيراً بعَدَدٍ من الموالد ، أصبحت أعياداً رسميّة ، وأهمُّها أربعة : مَوْلد الرّسول ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأوّل ، ومَوْلد علي بن أبي طالب (رضه) ، ومَوْلد فاطمةَ بنت الرّسول (رضه)، ومولد الخليفة الحاضر .

وقد انقطع الاحتفال بهذه الموالد فترةً ، منذ أن وَلِيَ الوزارَةَ الأفضَلُ بن بَدْر الجمالِيّ ؛ إذ إنه كان سُنّيا ، غير أنهم عادوا للاحتفال بها بعد ذلك ، وكان للخليفة جلوس عامٌّ بهذه المناسبة . وقد وصف لنا المَقْريزي بالتّفصيل مَرَاسِمَ هذا الاحتفال الكبير ، وما كان يُقدَّم فيه من أطْعِمة ، وأشار إلى ما يُلْقى فيه من خُطَب وأشعار .[٢]

ولا شكّ في أن التّشيُّع ، سواء منه الاثنا عشريّ أو الإسماعيليّ ، كان له أثرٌ في توجيه الاهتمام إلى المولد النّبويّ ، وقد رأينا – فيما مَرَّ بنا من شعر الشّيعة وقصائدهم في مراثي الحسين ، أو في الاحتجاج لحَقّ آل البيت في الإمامة – أنها كانت تتّخِذ من وصف شمائِل الرّسول ، والإشادة بالمَناقِب النّبويّة مُنْطَلَقاً للحديث عن فضائل آل البيت ؛ ولهذا يُمكن اعتبارُ كثير من هذا

---

(١) ديوان الشّريف المُرْتضَى ، بتحقيق رشيد الصّفّار . القاهرة ١٩٥٨– ج ١ ، ص ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٤٠ .

(٢) خُطط المَقْريزي ، ج ١ ، ص ٤٣٢–٤٣٣ ، وكذلك : صُبْحُ الأعْشَى للقَلْقَشَنْدي ، ج ٣ ، ص ٤٩٨–٤٩٩ .

الشِّعر الشّيعيّ ضَرْبًا من المدائح النّبويّة ، أو على الأقل نرى فيه نواةً مُبَكِّرة لهذه المدائح .

وحينما نُمْعِنُ النَّظَر في الفكر الشّيعيّ الإسماعيليّ ، الذي كان مذهبَ الدّولة الرّسميّ في ظلّ الدّولة الفاطميّة بمصرَ ، نجد أن فكرة الحقيقة المُحَمَّدِيَّة، التي سوف نراها ماثِلَةً بعد ذلك في المدائح النّبويّة المُتَأخّرة منذ القرن السابع ، تبدو كامِنَةً في كتابات دُعاة الفاطميّين . ولْنَرَ كيف يُفَسِّر المؤيّدُ في الدّين الشّيرازي داعي الدُّعاة (المُتَوَفّى في القاهرة سنة ٤٧٠) الآيةَ القرآنيّة الكريمة : « يا أيُّها النّاسُ اتّقوا رَبَّكم الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهما رجالاً كثيراً وَنساء ... » (سورةُ النِّساء ، آية ١) :

« قال المُفَسِّرون : النَّفْس الواحدة التي خُلِقَ النّاسُ منها : آدمُ ، وزوجُه المخلوقة منه : حوّاء . ونحن نقول إنه في ضِمْن الآية من مَعْنى الحِكْمَة التّنْبيهُ على مَنازل النّبيّ والوَصِيّ والأئمّة . وقوله : خلقكم من نفس واحدة ، النَّفْس الواحدة التي خلقنا منها خَلْقَ الدِّين : هو النّبيُّ ﷺ . والزَّوْج المَخْلوقة منه ضلعًا من أضلاعه ، ككَوْن حواء ضلعًا من أضلاع آدم (عليه السلام) هو وَصِيُّه (عليه السلام) الذي كان أَحَدَ حُجَجِه فصار زوجًا له ، حاملاً لعلمه ، وخازنًا لسِرِّه ، ومُسْتَوْدَعًا لعِلْمِه وحكمته .» [1] فنحن نرى من هذا النّصّ كيف يورد تفسير الآية على ظاهرها ثم يؤوِّلها تأويلاً باطنيا ، فيرى النّبيّ ﷺ أصلاً « في الخَلْق الدينيّ » (أي الرّوحيّ) ، وأن عليا هو المنبثق منه . وسنرى كيف يلتقي الفكر الصّوفيّ لدى ابن عربي مع هذا الفكر الإسماعيليّ .

والواقع أن نَواة هذه الفكرة الصُّوفيّة توجد منذ قديم لدى الحسين بن منصور الحَلاج ، (ت ٣٠٩) الذي ربما كان أوّل مُعَبِّرٍ عنها ؛ إذ كان يرى

(١) المؤيّد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشّيرازي : المجالس المؤيّديّة ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، تحقيق محمد عبد القادر عبد الناصر ، القاهرة ١٩٧٥ ، المجلس ٧٩ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، وكذلك : المجلس ١٧ ، ص ٩٤-٩٧ .

أن الرّسول ﷺ بحقيقته المُحَمّديّة ، لا بصورته الجَسَديّة ، يُعَدُّ مبدأ العالم ؛ إذْ هو النّور الذي تفجّرت من يَنابيعه جميع أنوار النُّبوّات ، و وجودُه هو السّابق لكلّ موجود .(١)

وحينما قضى صلاح الدّين الأيّوبي على الخلافة الفاطميّة في سنة ٥٦٧ وأبطل رسومَها وأعيادَها ، لم يَستَبْقِ من هذه الأعياد إلا المولدَ النّبويّ ، ولا شكّ أن ذلك راجعٌ إلى عمق الشّعور الدّينيّ لدى المصريّين ، وإلى التّأثير المُتَزايِد للحركات الصّوفيّة في مصر وما جاورها من الأقطار . فنحن نعرف أن هذه الفترة من أواخر القرن السّادس الهجريّ ، كانت هي التي بدأت فيها الطُّرق الصّوفيّة تتّخذ شكل مؤسّسات مُحْكَمَة التّنظيم ، وشرعَتْ تستهوي قلوب النّاس ، ومن هذه الطُّرق : القادِريّة ، طريقة عبد القادر الجِيلاني (المُتَوَفّى سنة ٥٦١) ، والرّفاعِيّة ، طريقة أحمد الرّفاعي (المُتوفّى سنة ٥٧٨) ، وشجّع صلاح الدين نفسُه هذه الحركات ؛ فقد أقام أوّل خانْقاه للصّوفيّة في سنة ٥٦٩ ، و وَقّف عليه أوقافًا كثيرة . وظهر في مصر من الصّوفيّة في أواخر العصر الفاطميّ ابنُ الكيزاني (المُتَوَفّى سنة ٥٦٢) وفي العصر الأيوبيّ سلطان العاشقين ، عُمَر بن الفارِض (المتوفّى سنة ٦٣٢) .

ولا شكّ في أن من العوامل التي أعانت على نشر التّصوّف ، وحملت المسلمين على العودة إلى شخصيّة الرّسول ﷺ وسيرتِهِ ، يستَخْلصون منها العِبْرَة، ويستَمِدّون منها العَوْن ، هو تعرُّضَ عالَم الإسلام لتلك الهجَمات الجائِحَة التي نفذتْ إلى صميم البِقاع الإسلاميّة في بلاد الشّام ، والتي تمثّلت في المَغول من جهة الشّرق والصّليبيّين من ناحية الغرب ؛ فقد أيقظت هذه الهجماتُ – التي استهْدَفَت الإسلام في عُقْر داره – مشاعرَ المسلمين ، وجعلت للمُتصوّفة في نفوس الشّعب مكانةً راسخةً مرموقة ، لاسيّما وأن

(١) للمستشرق ماسينيون دراسة طويلة قيِّمَة للحَلاج ومِحْنَته ، نشرت في باريس سنة ١٩٢٢ ، وانظر تاريخ الأدب العربي ، العصر العَبّاسي الثاني ، ج ٤ ، ص ٤٨١ ، حيث يقدم خُلاصَةً لفِكْره .

الكثيرين منهم كانوا يتصدّرون صفوف المجاهدين . ولعلَّ المسلمين في مصر والشّام بصفة خاصّة رأوا كيف يُمَجِّد الصّليبيّون شخصيّة المسيح (عليه السّلام) ويقدّسون رموز المَسيحيّة ، فحرَصوا بدورهم على ألا يكونوا دونَهم تمجيداً لمحمَّد ﷺ ولَهَجاً باسمه .

وربما كان من أولى قصائد المديح التي أنشئت خالِصَةً للرّسول ﷺ خلال العصر الفاطمي ، دون أن يكون المديح فيها تابعاً لتَعْداد مَناقب آل البيت أو رثائهم ؛ القصيدةُ المعروفة بـ « الشَّقْراطيسيَّة » ، نِسْبَةً إلى مؤلّفها أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن يحيى الشَّقْراطيسِيّ التَّوْزَري ، وكان فقيهاً مالِكيًّا وشاعراً ، وُلد بتَوْزَر (في تونس) وأخذ عن علماء القَيْروان ، ثم رحل إلى مصر ، وخاض هناك معركة ضدَّ الفرنج وعاد إلى تَوْزَر ، حيث اشتغل بالتّدريس والإفتاء إلى أن تُوفّي سنة ٤٦٦ . وقصيدتُه في المديح النَّبويِّ هي التي ختم بها كتابه « الإعلام بمعجزات النَّبيِّ عليه السّلام » ، ومطلعُها : « الحمد لله مِنّا باعثِ الرُّسُل » ، وتقع في ١٣٥ بيتاً .

وقد اهتمَّ بها الأدباء بعد ذلك اهتماماً كبيراً ؛ فقد أحصى بروكلمان ستّة شروح لها ، أحسنُها شرحُ أبي شامَة (ت ٦٦٥) ، وشرح محمد بن علي بن الشَّبّاط ، المُسَمّى « صِلَة السِّمْطِ وسِمَة المِرْطِ ، في شرح سِمْط الهَديِّ في الفَخْر المحمديّ » ، وشرح ابن عظيمة الإشبيليّ (المتوفّى سنة ٥٤٣) [1] كما اهتمَّ الشُّعراء بتخميسها وتشطيرها . ولعلَّ هذه القصيدة كانت ممّا يردّده المُنشِدون في الاحتفالات التي كانت تقام إبّانَ العصر الفاطميِّ بالمولد النَّبويِّ.

وقد سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين الأيوبي حينما قضى على الدّولة

---

(١) عن الشَّقراطيسي انظر الذَّيْل والتَّكْمِلَة لابن عبد الملك المراكِشِيّ ، ج ٦ ، ص ٣٥٩ ، ونَفْح الطِّيب للمَقّري ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، و بروكلمان ، ج ٥ ، ص ١٠٨ ، ومقدمة الدكتور أحمد مُخْتار العَبّادي لتاريخ الأندلس لابن الكردبوس و وصفه لابن الشَّبّاط . مدريد ، ١٩٧١ ، ص ١٦-١٨ ، والأعلام للزِّرِكْلي ، ج ٤ ، ١٤٤ ، وانظر فَهْرَسَة ابن خير ، ص ٤١٩ .

الفاطميّة ، ومحا رسومَها ، لم يستبقِ من الأعياد التي استحدَثَتْها إلا عيدَ المولد النّبويّ ، الذي ظلّ المسلمون في شرق العالم الإسلاميّ يحتفلون به ، على أننا لا نلبث أن نرى هذا العيد يتّخذ طابَعاً من الجَلال والفخامة لا عهدَ لنا به من قبلُ ، على يد قائدٍ من قوّاد صلاح الدين وكبار رجاله ، هو الملك المظَفّر أبو سعيد كُوكبوري بن علي كُجَك صاحب مدينة إرْبل بقرب الموصل ، وكان من القوّاد الذين شاركوا صلاح الدين في كثير من مَشاهِدِه و وقائعه ، وأبدى شجاعة ونجدة ، مثل موقفه معه في معركة حطّين ، فكافأه صلاح الدين بأن أعاده إلى ولاية إرْبل بعدَ خَلْعه عنها في سنة ٥٨٦ .

ومع أن ياقوت لم يُخْلِه من النّقد مُتّهماً إيّاه بعَسْف الرّعيّةِ ، فإن ابن خَلّكان أثنى عليه ثناءً مُسْتفيضاً ، فقال إنّ سيرته كانت عجيبة في فعل الخيرات ، وإفْشاء الصّدقات ، وبناء الخانقاهات للمرضى والعميان والأيتام والأرامل واللُّقَطاء ، وإنشاء المدارس وروابط الصّوفيّة ، وغير ذلك من أعمال البِرّ و العُمْران . ويضيف ابن خَلّكان إلى ذلك قوله : « وأما احتفاله بمولد النّبيّ ﷺ فإن الوصف يَقْصُر عن الإحاطة به .» ثم يُفصّل هذه العبارة ؛ فيذكر أنه كان يصل إليه كلّ سنة من البلاد القريبة من إربل خَلْقٌ كثير من الفقهاء والصُّوفيّة والوُعّاظ والشُّعراء ، ويقوم بنصب قِباب من الخشب من طبقات عديدة يُزَيِّنها بالزّينة الفاخرة ، ويُقْعِد في كل قبّة جَوْقاً من المغاني وأرباب الخَيال (خيال الظّل) لأصحاب الملاهي ، ويُعْمل السَّماعات في ليلة المولد ، ويقوم الوُعّاظ والخُطباء والشُّعراء بإلقاء مواعظهم وأشعارهم ، فإذا فرغوا جَهّز كلّ من قدِمَ منهم بنفقة ومال ليعود إلى بلده .(١)

وهكذا يتحوّل الاحتفال بالمولد النّبويّ على يد هذا الأمير التُّركُماني الأصل ، إلى مهرجانٍ شعبيّ على أعظم جانبٍ من الفخامة والبهجة ، ويذكر

(١) انظر معجم البُلْدان لياقوت ، ج ١ ، ص ١٣٨ (مادة إرْبل) ، وترجمة كوكبوري في وَفَيات الأعيان لابن خَلّكان ، ج ٤ ، ص ١١٣-١٢١ .

ابن خَلّكان بعد ذلك أن الأديب المُحَدِّث الأندلسيّ ، أبا الخطاب عُمر بن الحسن المعروف بابن دِحْيَة الكَلْبي (ت ٦٣٣) ، قَدِمَ على الأمير كُوكبوري بإرْبِل في سنة ٦٠٤ ، ولما رآه مولعاً بالاحتفال بالمولد النّبويّ ألّف له كتاب « التّنْوير في مَوْلِد السِّراج المُنير » وقرأه عليه بنفسه . ولعلّ هذا هو أوّل كتاب في هذا النّوع من التّآليف الذي توالت بعده كتب « الموالد » . وظلّ الملك المظَفّر يقرأ كتاب ابن دِحْيَة في مشهدٍ حافل في أيّام المولد من كلّ سنة ، حتى إن ابن خَلّكان يقول إنه سمعه منه في ستة مجالس سنة ٦٢٥ .[1]

وهكذا يمكن أن نقول إن الفضل الأكبر في الاحتفال بالمولد النّبويّ على هذا النّحو الرّسميّ والشّعبيّ ، وإشاعةِ هذا الاحتفال في العالم الإسلاميّ ببلاد المشرق ؛ هو هذا الأميرُ الذي عاش في النّصف الثاني من القرن السّادس والثّلث الأوّل من القرن السّابع (عاش بين سنتي ٥٤٩ و ٦٣٠) .

وكان ذلك منطَلَقاً لحركة شعريّة واسعة النّطاق ، موضوعُها تلك المدائح النّبويّة مما كان يُنْشد بمناسبة هذه الاحتفالات ، التي أصبحت منذ ذلك الوقت تقليداً ثابتاً في جميع بلاد المشرق في العراق والشّام ومصرَ ، حتى إننا نرى دواوينَ كاملةً تُفْرَد لهذا الموضوع ، وشعراءَ كادوا يتخصّصون فيه .

وربما كان من أوّل هؤلاء الشُّعراء جمال الدين يحيى بن يوسُف الأنصاري، المعروفُ بالصَّرْصَرِيّ (نسبةً إلى صَرْصَرَ ، وهي قرية قرب بغداد) الذي وُلد سنة ٥٨٨ ، واستشهد عندما اقتحم مغول هولاكو بغداد وأطاحوا بالخلافة العبّاسيّة سنة ٦٥٦ . ويقول عنه ابن شاكر الكُتُبِيّ : « إنه صاحب المدائح النّبويّة السّائرة في الآفاق ، لا أعلم شاعراً أكثرَ من مدائح النّبيّ ﷺ أشعرَ منه ، وشعره طبقة عالية .»[2] ثم يَقْتَطف من مدائحه النّبويّة قدراً موفوراً ، منها قوله :

(١) وَفَيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ، و ج ٣ ، ص ٤٤٨-٤٥٠ .
(٢) فوات الوَفَيات ، ج ٤ ، ص ٢٩٨-٣١٩ .

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَهْدِي مَدَائِحي فَتَكْسِبُ من رَيَّاكَ نَشْراً مُؤَرَّجَا
وتُلْبِسُهَا أَوْصَافُكَ الزُّهْرُ حُلَّةَ الـ ـبَهَاءِ ورَوْضاً من حِلاكَ مُدَبَّجَا
أَسَوْتَ بِما بَيَّنْتَ داءَ قُلُوبِنا كما كُنْتَ تَأْسُو قَبْلُ أَوْساً وخَزْرَجَا
وكُنْتَ نَبِيا قَبْلَ آدَمَ مُرْتَجَى لِتَفْتَحَ بَاباً لِلْهِدَايَةِ مُرْتَجَا [١]

ونحن نراه في البيت الأخير يُشير إلى الحديث النَّبويِّ : « كنتُ نبيا و آدمُ بين الماء والطِّين[٢] » ، ثم يناجي الرَّسول ﷺ مُسْتَشْفعاً به فيقول :

أَجِرْني فقد أصبَحْتُ في زَمَنٍ له عُرَامٌ لأَهْلِ الحِلْمِ أَصْبَحَ مُزْعِجَا
ولستُ أَرَى خِلاً مُعِيناً أَبُثُّهُ شُجوني فما أَزْدَادُ إلا تَوَهُّجَا
لأَنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْجَحُ شافعٍ لِدَفْعِ المُلِمَّاتِ الشَّدائِدِ تُرْتَجَى[٣]

وفي قصيدة أخرى يتجلّى دافعٌ نَفْسِيٌّ للإكثار من هذه المدائح التي عبَّر الشُّعراء فيها عما كانت تقاسيه الأُمَّة الإسلاميَّة من كوارث ، ما بين هجماتٍ شرِسَة أقبلت عليها من الغرب والشَّرق ؛ من الصَّليبيِّين من ناحية ومن التَّتار من ناحيةٍ أخرى ، ثم من فساد كثير من الحكومات وظُلمِها للرَّعيَّة ، فالصَّرصَرِيّ لا يرى ملاذاً له وللأُمَّة من تلك الأهوال إلا في التَّوسُّل إلى الرَّسول ، يَبُثُّه تلك الآلام :

يا خَيْرَ من بَرَأَ المُهَيْمِنُ وارْتَضَى لِبَلاغِ حُجَّتِهِ التي لا تُقْطَعُ
أَشْكُو إليكَ - وأنتَ تَعلَمُ - فِتْنَةً كادَتْ لها الصُّمُّ الصِّلابُ تَصَدَّعُ

(١) الرَّيَّا : الرائحة الطيبة ، والنَّشْر : الريح الطيبة أو الريح عموماً . يقال له نَشْر طيب ، والمُؤَرَّج : المُعَطَّر والمُتَطَيِّب، والزُّهْر : جمع أَزْهر و زهراء ، وهو النَّيِّر والصافي اللون ، أو المشرق الوجه ، والمُدَبَّج : المزَيَّن بالدِّيباج ، وهو الثوب من الحرير الخالص ، و أَسَوْت : داوَيْت ، مُرْتَج : مغلَق .

(٢) صحيح البخاري ، أدب : ١١٩ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة : ٢٨ ، مسند أحمد بن حنبل ، ٤ رقم ٤٠٦ .

(٣) العُرام هنا : الشَّراسة والأذى . يقال « به شِرَّة وعُرام » أي شراسة وأذى ، والمُلِمّات : جمع مُلِمَّة وهي النَّازلة الشديدة من نوازل الدنيا .

فَبِمَنْ أعَزَّكَ واصْطَفَاكَ فأَجْزَلَ الـ ـنُّعمَى عليكَ فَحَوْضُ فَضْلِكَ مُتْرَعُ
سَلْ جَبْرَ أُمَّتِكَ الكسيرَةِ إنَّهُ لم يَبْقَ في قَوْس التَّجَلُّدِ مَنْزِعُ
مَحَقَتْ طُغَاةُ التُّرْكِ أطْرَافَ القُرَى فالمالُ نَهْبٌ والمنازِلُ بَلْقَعُ
واشفَعْ إلى الرَّحمن في غُفْرَانِ ما هَذي عُقوبَتُهُ فأنْتَ مُشَفَّعُ (١)

فنحن نرى الشّاعر هنا – وكأنه ينطق باسم الأمّة كلّها – يتحدّث عمّا أصاب البلاد من اجتياح التُّرْك ، ويعني بهم المغول الذين قُدِّر أن يكون الشّاعر نفسُه واحداً من أولى ضحايا اكتساحهم لبغداد .

وكما ارتبط المديح النّبويُّ في العراق بصلاح الدين الأيوبي ، وبالرِّجال الذين حَفّوا به وشاركوا في جهاده الإسلاميّ ، كذلك كان الأمرُ في بلاد الشّام ومصرَ . ففي هذه الفترة من أواخر القرن السّادس وأوائل السّابع نجد في الشّام كَوْكَبَةً من كبار الشُّعراء الذين نَظَموا في هذا الفنّ كثيراً من قصائدهم ، منهم علي بن محمد الدِّمَشْقِيّ المعروف بابن السّاعاتي (عاش بين ٥٥٣ و ٦٠٤) وهو الذي تنبّأ له بفتح القدس ، وهنّأه بعد ذلك بهذا الفتح العظيم وغير ذلك من انتصاراته (٢) ، كما نرى في قوله :

لقد ساغَ فَتْحُ القُدْس في كُلِّ مَنْطِقٍ وشاعَ إلى أنْ أسْمَعَ الأسَلَ الصُّمّا
فليت فَتَى الخَطّابِ شاهَدَ فَتْحَها فَيَشْهَدَ أنَّ السَّهْمَ من يُوسُفٍ أصْمَى (٣)

(١) برأ : خلق ، الصُّمُّ الصِّلاب : الصُّخور الصُّلْبة ، مُتْرَع : مليء ، وجَبْر : سلامة ، خِلاف الكسر ، ولم يبق في قوس التَّجلُّد مَنْزِع : كناية عن فروغ الصَّبر . محقت : أهلكت ومحت ، وبلقع : قفر خالية من مظاهر الحياة .

(٢) عن ابن السّاعاتي انظر : عصر الدّوَل والإمارات للدكتور شوقي ضيف ، ج ٦ ، ص ٦٤٠–٦٤٢ ، وبروكلمان ، ج ٥ ، ص ٤٩–٥٠ .

(٣) ساغ : حلا ، الأسل : الرماح ، فتى الخطاب يعني عمر بن الخطاب (رضه) الذي تم في عهده فتح بيت المقدس ، يوسف هو اسم صلاح الدين الأيوبي ، أصمى : أصاب .

وكان ابن السّاعاتي ممن عارضوا قصيدة كعب بن زهير بمِدْحة نبويّة يكرّر فيها ما استقرّ لدى المتصوّفة في أمر الحقيقة المحمّديّة ، وأن الرّسول ﷺ هو جوهرُ الوجود وعِلّةُ الكون ، وأنه صاحب الشّفاعة ، والذي بشّرت به الكتبُ السّماويّة السّابقة :

هُوَ البشيرُ النَّذيرُ العَدْلُ شاهِدُهُ ... وللشّهادَةِ تَجْريحٌ وتَعْديلُ
لولاهُ لم تكُ لا شَمْسٌ ولا قَمَرٌ ... ولا الفُراتُ وجاراهُ ولا النِّيلُ
وسَيِّدُ الرُّسْل حَقا لا خَفَاءَ بِهِ ... وشافعٌ في جميع الناس مَقْبولُ
بَثّتْ نُبُوّتَهُ الأخبارُ إذْ نَطَقَتْ ... فَحَدَّثَتْ عنهُ تَوْرَاةٌ وإنجيلُ [١]

ومن شُعراء الشّام أيضاً في هذه الفترة فِتْيان الشّاغُوريّ (المتَوَفّى سنة ٦١٥)[٢] ، وكان شيعيَّ المَذْهَب ، ومع ذلك فقد كان مُعَلّماً لابن أخي صلاح الدين ، وفي ديوانه تلتقي مراثي الحسين وآل البيت مع المديح النّبويّ ، الذي يُعَبّر فيه عن شوقه لزيارة قبر الرّسول ﷺ وتَعْفير خَدّه في ترابه :[٣]

أؤَمِّلُ من خَيْرِ الأنام شَفَاعَةً ... بها في نَعيمٍ بالجنانِ أخَلَّدُ
وَدِدْتُ بأنّي زُرْتُ قَبرَكَ راجِلاً ... وقَبّلْتُ تُرْبًا أنْتَ فيه مُوَسَّدُ

ويكاد المديح النّبويّ منذ بداية القرن السّابع يكون موضوعاً لا يتخلّف عنه شاعرٌ في مصرَ ، فمنهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِر ، ومنهم من كانوا يُفْردون له دواوين كاملةً ، وأعان على ذلك ازدهارُ الفكر الصّوفيّ والقبولُ العظيم الذي لقيتْه الطُّرق الصّوفيّة ، التي كانت حلقاتها تعمل على استثارة المواجد بإنشاد « السّماعات » وترتيلها ، وطبيعيٌّ أن يكون الكثير من هذه السّماعات في المديح النّبويّ ، ويبرز في مصر في الثُّلُث الأوّل من القرن السّابع صوفيُّها

---

(١) عصر الدّول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٧٦١ .

(٢) عن فِتْيان الشاغوري انظر : عصر الدول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٦٧١ ، وبروكلمان ، ج ٥ ، ص٥٠.

(٣) عصر الدول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٧٦١ ، راجلاً : ماشياً .

الكبير عمر بن الفارِض (المتوفّى سنة ٦٣٢)[١] ، وهو الذي كان أكثرُ تَغنّيهِ بالحبِّ الإلهيِّ .

وإذا كان هذا الحبُّ هو الذي استغرق كلَّ حواسّه واستأثر بِنِتاجه الشّعريِّ ، فإن شعره لا يخلو من إشارات إلى الرّسول ﷺ يذكر فيها - في لغة معقّدة تشيع فيها الرّموز - أن كلَّ الأنبياء السّابقين إنما كانوا تبعاً لمحمد ﷺ ، ويفرّق بين نُبُوّتِهم ورسالته على نحو ما نرى في تائيّتِهِ الكبرى :[٢]

وجاءَ بأسرارِ الجميع مُفِيضُهَا علينا لَهُمْ خَتْماً على حِين فَتْرَةِ
وما منهُمُ إلا وقد كانَ داعِيًا به قَوْمَهُ لِلْحَقِّ عن تَبَعِيَّةِ
فعالِمُنا منهم نَبِيٌّ ومَنْ دَعَا إلى الحَقِّ مِنّا قامَ بالرُّسُلِيَّةِ
وعارِفُنَا في وَقْتِنَا الأحْمَدِيِّ مِنْ أولي العَزْم منهم آخِذٌ بالعَزِيمَةِ
وما كانَ منهم مُعْجِزاً صارَ بَعْدَهُ كَرَامةَ صِدِّيقٍ له أو خَلِيفَةِ
كراماتُهُمْ من بَعْض ما خَصَّهُمْ بهِ بما خَصَّهُمْ من إرْثِ كُلِّ فَضِيلَةِ

فهو يرى أن الأنبياء السّابقين استمدّوا من محمّد ﷺ معجزاتهم التي أصبحت كراماتٍ لدى صحابته وأوليائه من بعده .

البوصيري :

ويطول بنا الأمرُ لو عددنا شُعراء المديح النّبويِّ على طول القرن السّابع وما بعده ، غيرَ أن هناك من هؤلاء الشّعراء من يستحقُّ منا وقفة خاصّة ؛ لعمق تأثيره على هذا الفنِّ في العصور التّالية ، بل حتى اليوم ، ونعني به شرف الدّين البوصيري .

---

(١) عن ابن الفارض انظر : عصر الدول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٣٥٧-٣٦١ ، وبروكلمان ج ٥ ، ص ٦٧-٧٧ .

(٢) ديوان ابن الفارض ، ص ٥٩-٦٠ .

وهو محمّد بن سعيد بن حمّاد الصّنهاجِيّ (نسبةً إلى هذه القبيلة البَرْبَريَّة التي تَدُلُّ على أصله المغربي) ، وُلد في دلاص ، وهي قرية تقع غربيّ النيل وتتبع البهنسا ، في نحو سنة ٦٠٨ ، واشتغل كاتباً في بلبيس (بمحافظة الشّرقيّة) ، ثم عاد إلى القاهرة فاحترف إقراء القرآن ، ومدح بعض وزراء الدّولتين الأيّوبيّة والمملوكيّة وبعض وُلاة الأقاليم المصريّة ، وكان كثيراً ما يشكو حاجته وفقره ، ويهجو موظّفي الدّواوين ، ويذكر مساوئَهم وخياناتهم في أسلوب فكِهٍ ظريف . وقد امتدّت الحياة به حتى توفّي سنة ٦٩٨ على الأرجح .(١)

وقد اتّصل البوصيري بالشّيخ أبي الحسن الشّاذْلي ، صاحبِ الطّريقة الصّوفيّة المشهورة المنسوبة إليه ، فلما توفّي الشّيخ لازم تلميذَه و وارثَ طريقتهِ أبا العباس المُرْسي وليّ الإسكندريّة الكبير ، وانتظم في سِلْك مُريديه ، ومدح هذين الشّيخين بشِعر يبدو فيه صدقُ عقيدته فيهما ؛ إذ يشبّههما ، في الهداية واستقامة الطّريقة ، بموسى ويوشَع :

اليومَ قامَ فتى عَلِيٍّ بَعْدَهُ … كيما يُبَلِّغَ مُرْشِدٌ عَنْ مُرْشِدِ
فكأنَّ يُوشَعَ بَعْدَ مُوسَى قائِمٌ … بِطَرِيقِهِ المُثْلَى قيامَ مُؤَكِّدِ

ولم يكن البوصيري صوفيا ، وإنما كان رجلاً يضطرِب في الحياة ، ويسعى لكسب رزقه سَعْيَ رجال الدُّنيا ، ولكنه كان رجلاً فيه صلاحٌ وطيبة ، أمّا ثقافتُهُ فكانت متوسّطة .

وإن كنّا نسجّل له عنايَته بدراسة أديان أهل الكتاب ، كما يبدو من قصيدته اللاميّة الطّويلة (في مائتين وسبعين بيتاً) التي ردّ فيها عليهم وفنّد ما رَمَوا به الإسلامَ ورسولَه عليه الصّلاة والسّلام ، كذلك يُذْكر له أنّ اثنين من كبار

---

(١) عن البوصيري انظر : عصر الدول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٣٦١–٣٦٥ ، ومقدمة ديوانه الذي قام بتحقيقه الأستاذ محمد سيد كيلاني ، القاهرة ١٩٥٦ ، وبروكلمان ، ج ٥ ، ص ٨١–١٠٤ .

العلماء قد أخذا عنه ؛ وهما ابن سَيِّد النّاس (المتوفَّى سنة ٧٣٤) وهو صاحب السِّيرة المشهورة ، وأبو حَيّان الغَرْناطي (المتوفَّى سنة ٧٤٥) إمام النَّحو والتَّفسير . على أن أخْذَهما عنه لم يكن لِفَضْل عِلْم فيه ، وإنما لِصلاحِهِ وروايَةَ لمدائحِه النَّبويَّة .

وللبوصيري قصائدُ عديدة في المديح النَّبويِّ ، منها ما نظَمه قبل توجُّهِهِ للحَجِّ ، وأهمُّها معارَضتُه لكعب بن زهير ، ولامِيَّته في الرَّدِّ على أهل الكِتاب ، وقد ختمها بمدح الرَّسول ﷺ وبالتَّعبير عن شوقه لزيارته . وله قصائدُ في أثناء رحلته للحجّ وأمام الضَّريح النَّبويِّ ، وعلى أثر أداء الفريضة . وبعد عودته إلى مصر نظَم أشهرَ مدائحه ، وهما قصيدتان : هَمْزِيَّته التي سمّاها « أمّ القُرَى في مدح خير الوَرَى » ، وبُرْدَتُه التي دعاها « الكواكب الدُّرِّيَّة في مدح خير البَرِيَّة » .

أما الهَمْزِيَّة فإنها تبلغ أربعمائة وخمسةً وخمسين بيتًا ، والشّاعرُ يبدؤها بغير مقدِّمات ؛ فيتحدَّث عن فضل رسول الله ﷺ وتقَدُّمِه على سائر الأنبياء ، ويُكرِّر ما سبق أن رأيناه لدى الصّوفيَّة ومُدّاح الرَّسول السّابقين من أمر الحقيقة المحمَّديَّة السّابقة على خلق الكون :

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الأنبياءُ ... يا سَمَاءً ما طاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لم يُساوُوكَ في عُلاكَ وقَدْ حا ... لَ سَنًا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
أَنْتَ مِصْباحُ كُلِّ فَضْلٍ فما تَصْـ ... ـدُرُ إلا عَنْ ضَوْئِكَ الأَضْوَاءُ
لَكَ ذاتُ العُلوم من عالَم الغَيْـ ... ـبِ ومنها لآدم أسْمَاءُ
لم تَزَلْ في ضَمَائِرِ الكَوْنِ تُخْتَا ... رُ لَكَ الأُمَّهَاتُ والآبَاءُ
ما مَضَتْ فَتْرَةٌ من الرُّسْل إلا ... بَشَّرَتْ قَوْمَهَا بِكَ الأَنْبِيَاءُ

ويتحدَّث عن شرف نسب الرَّسول ثم عن بشائر مولده ، مُرَدِّدًا ما يُذكر من تَداعي إيوان كسرى وخُمودِ نار المَجوس ، ثم معجزاته أثناء رضاعه ، وما أسْبَغ

اللّه على مُرْضِعَتِهِ حليمة السَّعْديَّة من بَرَكَةٍ أخصَبَ بها عيشَها ، ثم قصَّة شَقِّ المَلَكَيْن عن قلْبه (عليه الصَّلاة والسَّلام) .

ويَتتبَّعُ بعد ذلك أحداثَ حياة الرَّسول وتعبُّدِه في غار حِراء ، ثم بعثته وما لاقاه من أذى قومه ، وهجرته وما أحاط بها من معجزات : الحمامة التي عَشَّشَت على باب غار ثَوْر ، ونَسْج العنكبوت ، وما وقع لِسُراقَةَ حينما اقتفى أثَرَه ، ولكن قوائم فرسه ساخَتْ به في الأرض :

أخْرَجُوه منها و آواهُ غارٌ وحَمَتْهُ حَمَامَةٌ وَرْقَاءُ

....

وَاخْتَفَى منهُمُ على قُرْبِ مَرْآ ةُ ومن شِدَّةِ الظُّهورِ الخَفَاءُ
وَنَحا المُصْطفَى المدينَةَ واشْتَا قَتْ إِلَيْهِ من مَكَّةَ الأنْحَاءُ

....

واقْتَفى إِثْرَهُ سُرَاقَةُ فاسْتَهْـ ـوَتْهُ في الأرْض صافِنٌ جَرْدَاءُ
ثمَّ ناداهُ بعدما سِيمَتِ الخَسْـ ـفَ وقد يُنْجِدُ الغَرِيقَ النِّداءُ (١)

ويتحدَّث بعد ذلك عن خبر الإسراء والمِعْراج ، والمُكَذِّبين للخبر من كفّار قريش ، وما حَلَّ بهؤلاء المُسْتَهْزئين الخمسةِ من عقوبةٍ بعد دعوة الرَّسول ﷺ عليهم :

فَطَوَى الأرْضَ سائِراً والسَّماوا تِ العُلا فَوْقَها لَهُ إِسْرَاءُ
فَصِفِ اللَّيْلَةَ التي كانَ للمُخْـ ـتَارِ فيها على البُرَاقِ اسْتِواءُ

....

وكفاهُ المُسْتَهْزِئينَ وكم سا ءَ نبيا من قومِهِ اسْتِهْزَاءُ
ورَمَاهُمْ بدَعْوَةٍ من فِناءِ الـ ـبيتِ فيها للظَّالمينَ فَنَاءُ

(١) الوَرْقاء : الرّمادية اللّون ، ونحا : قصد ، والصّافِن يَعْني الفرس ، والجَرْداء : القصيرة الشَّعْر .

....

خَمْسَةٌ كُلُّهُمْ أصيبُوا بداءٍ والرَّدَى من جُنودِهِ الأدْوَاءُ

ويمضي بعد ذلك إلى ذكر الصَّحيفة التي تحالَفت فيها بطونُ قريش على مقاطعة بني هاشم ، ومعجزةِ الأَرَضَةِ التي قرَضَتْها ، وما لقيه الرَّسول من أذى عُتَاة المشركين من أمثال أبي جَهْل وأبي لَهَب . وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن خِلال الرَّسول ﷺ وشمائله ، وعن إعجاز القرآن ، ويناقش أهلَ الكتاب في معتقداتهم ، ويعودُ مرَّة أخرى لاستعراض بعض وقائع السِّيرة حتى فَتْح مكة ، وعَفْوِ الرَّسول عن أهلها بعد اقتداره عليهم :

فَدَعَوْا أحْلَمَ البَرِيَّةِ والعَفْـ ـوُ جَوَابُ الحَلِيم والإغْضَاءُ
ناشَدُوه القُرْبَى التي من قُريشٍ قَطَّعَتْها التِّراتُ والشَّحْنَاءُ
فَعَفَا عَفْوَ قادِرٍ لم يُنَغِّصْـ ـهُ عليهم بما مَضَى إغْرَاءُ (١)

وبعد الانتهاء من أحداث السِّيرة يذكرُ آل البيت مادحًا وراثيًا ، ومشبِّهًا نفسَهُ في الحالتين بحسّان بن ثابت وبالخَنْساء :

آلَ بَيْتِ النَّبيِّ إنَّ فؤادِي لَيسَ يُسْلِيهِ عَنْكُمُ التَّأسَاءُ
آلَ بيتِ النَّبيِّ طِبْتُمْ فَطابَ الـ ـمَدْحُ لي فِيكُمُ وطابَ الرِّثاءُ
أنا حَسَّانُ مَدْحِكُمْ فإذا نُحْـ ـتُ عليكم فإنَّنِي الخَنْسَاءُ
سُدْتُمُ النَّاسَ بالتُّقَى وسِواكُمْ سَوَّدَتْهُ البيضاءُ والصَّفْرَاءُ (٢)

ويذكر أيضًا صَحابة الرَّسول مختصا منهم العشَرة المبَشَّرين بالجنَّة . ويختم القصيدة طالبًا شفاعةَ الرَّسول ويعترف بذنوبه ، ولكنه يرجو رحمة الله وغُفْرانه مُسْتَذِمًّا بمديحه لرسوله :

---

(١) التِّرات : جمع تِرَة ، وهي الثأر ، والشَّحْناء : البُغض .

(٢) التَّأساء : التَّعْزية ، والبيضاء والصُّفراء : كناية عن المال .

يا شفيعاً في المُذْنِبينَ إذا أشْـ ـفَقَ من خَوْفِ ذَنْبِهِمْ بُرَآءُ
جُدْ لِعَاصٍ وما سِوَايَ هُوَ العا صِي ولَكِنْ تَنَكُّرِي اسْتِحْيَاءُ
وتَدارَكْهُ بالعنايَةِ ما دا مَ له بالذِّمام منك ذَمَاءُ [1]

ويختم القصيدةَ بالصّلاة والسّلام على الرّسول :

وسلامٌ من كُلِّ ما خَلَقَ اللّـ ـهُ لِتَحْيَا بِذِكْرِكَ الأمْلاءُ
وصلاةٌ كالمِسْكِ تحمِلُهُ مِنّـ ـي شَمالٌ إلَيْكَ أو نَكْبَاءُ
ما أقامَ الصَّلاةَ مَنْ عَبَدَ اللّـ ـهَ وقامَتْ بِرَبِّها الأشياءُ [2]

وتُعَدُّ هذه الهَمْزِيَّة من أجمل قصائد المديح النَّبويّ ، وفيها يعرض الشّاعر – كما رأينا – جانباً كبيراً من السِّيرة النّبويّة ، ومع ذلك فإنها ليست نظْماً تاريخيا بارداً ، بل نُحِسُّ فيها دائماً بحرارة الإخلاص واتّقادِ العاطفة ، فهي تجمع بين القَصَصِيَّة والغنائيَّة في مزيج رائع .

أمّا البُرْدَةُ فقد روى لنا البوصيري نفسُه مناسبة نظْمِها ؛ وهي أن الشّاعر أصابه فالجٌ أبطل نِصْفَه ؛ فنظم هذه القصيدة مُستَشْفعاً بها إلى اللّه وطالباً منه العافِية ، وحينما نام رأى الرّسول ﷺ فمسح وجهه بيده المُبارَكة وألقى عليه بُرْدَةً ، وانتبه فإذا به يرى نفسَه سليماً مُعافًى . وليس من شأننا تحقيقُ هذا الخبر والتّأكُّدُ من مدى صِحّته ؛ فالواقعُ أن صاحب القصيدة كان صادقًا في تصوُّرِه، ثابتَ العقيدة في صحّته ، وأن جمهور النّاس من معاصريه كانوا يعتقدون في بَرَكة « البردة » ، حتى إنه لا يخلو مجلسٌ من مجالس الأذْكار الصّوفيّة إلا كان تَرْتيل « البُرْدة » من أهمِّ عناصره . بل يذكر الدكتور زكي مبارك أن « مِنْ كَتَبَةِ الأحْجِبَة والتّمائم مَنْ يعرف لكلِّ بيتٍ فائدةً : فهذا البيت يشفي

(١) بُرَآء : جمع بريء ، والذَّماء : بقيّة الرّوح .

(٢) الأمْلاء : جمع مَلأ وهو الجماعة ، وشمال : ريح الشّمال ، والنّكْباء : الرّيح المنحرفة بين ريحين .

من الصَّرْع ، وذاك ينفع في حفظ المزارع والمنازل من التَّلف والحريق ، وذلك يفيد في الجمع بين النّافِرين من الأحباب ، إلى آخر ما ابتدعوا لها من الفوائد الحِسِّيَّة والمعنويَّة » .(١)

وتتألّف البُردة من مائة وسبعة وستين بيتاً موزّعة على عشَرَة فصول : فالفصلانِ الأوّل والثّاني يضمّان مقدِّمةً غزليّة تقليديَّة ، غير أننا نلاحظ فيها تسامياً روحيًّا واضحًا ، فليس فيها تغنٍّ بمحاسن محبوبةٍ ، كما رأينا في مِدْحة كعب بن زهير ، وإنما نرى الشّاعر يشكو آلام الغرام ويتحدَّث عن زيارة الطَّيف وعن لائِميهِ في حبِّه « العُذْري » ، والوُشاة الكاشفين لِسرِّه مهما بالغ في كتمانه ، كذلك نراه يُرَدِّد أسماء مواضعَ حجازيَّة ونَجْدِيّة ، مثل ذي سَلَم وكاظمة وإضَم ، على النَّحو الذي أشاعه في الشِّعر العربيِّ الشَّريفُ الرَّضِي ومِهْيار الدَّيْلمي . وكلٌّ ذلك دليل على أن هذه المقدِّمة الغَزَليَّة الأولى إنما هي تعبيرٌ رمزِيٌ عن حبِّه للرَّسول ﷺ وشوقه لزيارته ، والمقدِّمة الثّانية مجموعةٌ من الوصايا والنَّصائح يتحدَّث فيها عن النّفْس الأمّارة بالسّوء ، والتَّحذير من الانقياد لهواها وشهواتها ، وفيها تشبيهاتٌ جميلة مثل قوله :

والنَّفْسُ كالطِّفْل إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضَاع وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

أو قوله :

كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً للمَرْءِ قاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لمْ يَدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَم

كما تتردَّد خلالها عباراتٌ أصبحت من الحِكَم الجارية على الألسنة ؛ لما فيها من إيجازٍ وإحكام تَعْبير ، من أمثال قوله :

« إنَّ الطَّعامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِم »

« إنَّ الهَوَى ما تولَّى يُصْمِ أو يَصِمِ »

---

(١) المدائح النبوية ، ص ٢١٦ .

« فَرُبَّ مَخْمَصةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَم » [(١)]

وينتقلُ بعد هاتين المقدِّمتين إلى مديح الرَّسول ﷺ ، فيتحدَّث عن زُهْده مع ما عُرِض عليه من كنوز الأرض ، وعن كَمال شمائله واصطفاء الله تعالى له ، وفي هذا المديح تتكرَّر المعاني القائمةُ على أساس التَّصوُّر الصُّوفيِّ للحقيقة المحمَّديَّة : فهو سيِّد الكونين السَّماء والأرض ، والثَّقَلَيْن : الإنس والجنّ ، والجِنْسين : العرب والعَجَم ، وهو حبيب الله وصاحبُ الشَّفاعة يوم الحساب ، ومَرْتَبَتُه أرفعُ من مراتب سائر الأنبياء ، وفضائلُهُ تُعْجِز ألسنةَ الواصفين ، حتى إن اسمه يكاد يحيي الموتى . على أنه بعد ذلك يعود إلى تأكيد بَشَرِيَّته حتى لا يُتَوَهَّمَ في عباراته السَّابقة ما يَشي بالتَّقديس أو العِبادَة :

محمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْن والثَّقَلَيْـ ـنِ والفَرِيقَيْنِ من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
هُوَ الحبيبُ الذي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لكُلِّ هَوْلٍ من الأهْوَالِ مُقْتَحِمِ
فاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدَانُوهُ في عِلْم ولا كَرَم
فإنَّ فَضْلَ رسولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرِبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَم
لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَماً أحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دارسَ الرِّمَم

....

فَمبْلَغُ العِلْم فيهِ أنَّه بَشَرٌ وأنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللّه كُلِّهِم
وكُلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكِرامُ بها فإنَّما اتَّصَلَتْ من نُوره بِهِم
فإنَّه شمْسُ فَضْلٍ هُمْ كواكِبُها يُظْهِرْنَ أَنْوَارَها للنَّاس في الظُّلَم

وفي الفصل الرَّابع يتحدَّث عن مولده (عليه السَّلام) وما صاحَبَهُ من بشائرَ، حتى بدا وكأن الكون كلّه يحتفل بهذا المولد في نشوة وطرَب ، ويذكر من هذه البشائر تَصَدُّعَ إيوانِ كِسْرى ، وخمودَ نار المَجوس ، وجفاف بُحَيْرة

(١) يُصْمي : مضارع أصْمَى ، يقال أصْمَى الرَّمِيَّة : أنفذ فيها السَّهم ، ويَصِم : مضارع وَصَمَ : عاب ، والمَخْمَصَة : الجوع .

ساوَة ، هذا على حين يملأ هُتافُ الجِنِّ أرجاءَ السماء ويعمُّ الكَوْنَ كلّه نورٌ ساطع :

وباتَ إيوانُ كِسْرَى وهو مُنْصَدِعٌ كَشَمْلِ أصحابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ
والنارُ خامِدَةُ الأنفاس من أسَفٍ عَلَيْهِ والنَّهْرُ ساهِي الْعَيْن من سَدَمِ
وساءَ ساوَةَ أن غَاضَتْ بُحَيْرَتُها و رُدَّ وارِدُهَا بالغَيْظِ حِينَ ظَمِي
والجِنُّ تَهْتِفُ والأَنْوارُ ساطِعَةٌ والحَقُّ يظهر من مَعْنى ومِنْ كَلِمِ (١)

وينتقل في الفصل الخامس إلى الحديث عن بعض ما تتَناقَلُه كتب السِّيرة عن معجزات الرّسول ﷺ ، وما ظهر على يده من خوارق العادات : سجود الشّجرة ومَشْيُها نحوه ، وتَظْليلُ الغَمامَة إيّاه ، وانشقاقُ القمر ، وهنا نرى البوصيري يعقد مقارنةً طَريفة لعلّه أوّل من ذكرها بين هذا الانشقاق ، وما يُذْكر من شقِّ المَلَكَيْن لقلبه رمزاً لتطهير روحه من كلِّ رِجْس ، ثم وقاية الله له من تعقُّب مُشرِكي قريش حينما لجأ إلى الغار ، فصرف الله كيدهم عنه بعد أن رأوا الحمام مُعَشِّشاً والعنكبوتَ ناسجاً خيوطَه على بابه :

جاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً تَمْشِي إليهِ على سَاقٍ بِلا قَدَمِ
مِثْلَ الغَمامَةِ أنَّى سارَ سائِرَةً تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجيرِ حَمِي
أقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ من قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرورَةَ الْقَسَمِ
وما حَوَى الغارُ من خَيْرٍ ومن كَرَمٍ وكُلُّ طَرْفٍ من الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ على خَيْرِ البَرِيَّةِ لم تَنْسِجْ ولم تَحُمِ (٢)

ومع أن الإسلام لا يَعْتَدُّ كثيراً بهذه المعجزات ، ولم يردْ بعضها في كتب السِّيرة الأولى فإن عامّة المسلمين يُرَدِّدونها في انبهار وإعجاب ، وقد ضَخَّمها

(١) السَّدَم : الغيظ والحُزْن ، غاضَت : جَفَّت .

(٢) الوَطيس : اللَّهيب ، والهَجير : ساعة الظَّهيرة عند اشتداد الحر .

الخيالُ الشَّعبيُّ كثيراً وأضاف إليها تفاصيل عديدة شائقة ، قد لا تُرضي العقل ولكنَّها تستهوي الأخْيِلَة ، وتستثير العاطفة الدِّينيَّة عند الجماهير .

وفي الفصل السّادس يتحدَّث عن معجزة الإسلام الكُبرى الخالدة ؛ وهي القرآن الكريم ، وهو هنا يصف القرآن بأنه قديمٌ ومُحْدَث في الوقت نفسه ، وكأنَّه في ذلك يأخذ برأي الأشاعِرَة الذين وقفوا موقفاً وسطاً بين المُعْتَزِلة وأهل السَّلَف ؛ فقد رأى الإمام الأشعريُّ أن كلام الله تعالى يُطْلَق إطلاقين : المعنى النَّفسيّ القائم بذاته وهو أزليٌّ قديم ، والقرآنُ المكتوب والمقروء وهو حادِثٌ مخلوق ، وإنما يُطلَق عليه « كلام الله » على المجاز لا على الحقيقة .[1]

ويَصف البوصيري وقوف العرب عاجزين عن معارضة بلاغة القرآن ، وأن عجائبَ الكتاب المُنَزَّل لا تُحْصى ومعانيه لا تنفَد ، فكأنه البحرُ في تَتابُع أمواجه ، وكأن ألفاظه لآلِئ البحر في الحُسْن والقيمة :

آياتُ حَقٍّ من الرَّحمن مُحْدَثَةٌ　　قديمةٌ صِفَةَ المَوْصوفِ بالقِدَم
لم تَقْتَرِنْ بزمانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنا　　عَن المَعادِ وعن عَادٍ وعن إرَم
دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ　　مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جاءَتْ ولَمْ تَدُم
رَدَّتْ بَلاغَتُهَا دَعْوى مُعَارِضِها　　رَدَّ الغَيُورِ يَدَ الجانِي عَن الْحَرَم
لها مَعَانٍ كَمَوج البَحْرِ في مَدَدٍ　　وفَوْقَ جَوْهَرِه في الحُسْن والقِيَم
فما تُعَدُّ ولا تُحْصَى عَجَائِبُها　　ولا تُسامُ على الإكْثَارِ بالسَّأَم[2]

وفي الفصل السّابع يتحدَّث عن الإسراء والمِعْراج ، وكيف مضى الرَّسول ليلاً من الحَرَم المكّي إلى حرم بيت المَقْدِس ، ثم عن مِعْرَاجِهِ في السَّموات السَّبع حتى صار « قابَ قَوْسَيْن أوْ أدْنى » (سورة النَّجْم ، آية ٩) وهناك أمَّ

---

(١) ضُحى الإسلام ، لأحمد أمين ج ٣ ، ص ٤٠ .

(٢) تُسام : مضارع وَسَمَ ، ومعناه جعل له علامة يُعرف بها ، والمعنى هنا : توصف .

الأنبياءَ في الصّلاة وظهرت فَضيلتُهُ على سائر الأنبياء :

سَرَيْتَ من حَرَم لَيْلاً إلى حَرَم كما سَرَى البَدْرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَم
وبتَّ تَرْقَى إلى أن نِلْتَ منزِلَةً مِنْ قابَ قَوْسَيْن لم تُدْرَكْ ولم تُرَم
وَقَدَّمتْكَ جميعُ الأنبياءِ بها والرُّسْل تقْديمَ مَخْدُوم على خَدَم
وأنْتَ تخترِقُ السَّبْعَ الطِّباقَ بهم في مَوْكِبٍ كُنْتَ فيه صَاحِبَ الْعَلَم
حتّى إذا لَمْ تَدَعْ شَأوًا لِمُسْتَبِقٍ من الدُّنُوِّ ولا مَرْقًى لِمُسْتَنِم
خَفَضْتَ كُلَّ مَقام بالإضافَةِ إذْ نُودِيتَ بالرَّفْع مِثْلَ المُفْرَدِ الْعَلَم(١)

وهي أبياتٌ تناسب في جَلالها وتَساميها الرّوحيّ ذلك المِعْراجَ السّماويّ الذي يأخذ بمَجامع القلوب ، ولا يعيبها إلا هذا التّلاعبُ البعيد عن التّوفيق بمصطلحات النّحو في البيت الأخير .

وفي الفصل الثّامن يتحدّث الشّاعر عن جهاد النّبيّ ﷺ ، وهو لا يتتبّع مَشاهدَ الرّسول في معاركِهِ مع المشركين ، وإنما يُشيد بشجاعته وشجاعة من التفّ به من صحابته ، وليس هذا الجزء في قوّة سائر أجزاء القصيدة ؛ إذ المديحُ فيه لا يكاد يختلف عمّا كان الشُّعراء يتوجّهون به إلى الملوك والقادة ، هذا وإن لم يَخْلُ من أبياتٍ يصف فيها أصحاب الرّسول ﷺ بالشّجاعة النّابعة من قوّة الإيمان ، ويردُّ انتصاراتهم إلى ما بثّه فيهم الرّسول ﷺ من روح التّضحية والفِداء :

من كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلّهِ مُحْتَسِبٍ يَسْطُو بمُسْتَأصِلٍ للكُفْرِ مُصْطَلِم
حتى غَدَتْ مِلّةُ الإسلام وَهْيَ بهمْ من بَعْدِ غُرْبَتِها مَوْصُولَةَ الرَّحِم
ومَن تَكُنْ برسولِ اللّهِ نُصرَتُهُ إنْ تَلْقَهُ الأسْدُ في آجَامِها تَجِم

(١) سَرَى : سارَ ليلاً ، وتُرَم : تُرام ، أي تُطلب ، والشّأو : الأمَد والغاية والمطلب . مُسْتَنِم : صاعد إلى القمة .

وَلَنْ تَرَى من وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ بهِ ولا من عَدُوٍّ غيرِ مُنْقَصِمِ[١]

والفصلان الأخيران ، وهما خَتَامُ القصيدة ، مجموعةٌ من الابتهالات والتّوسُّل برسول الله ، تتّسِم بالصِّدق وحرارة العاطفة ، وهو يبدأ بالاعتراف ، في تواضُع ومَذَلَّة ، بأنه قضى شطراً كبيراً من حياته يبذل شعره في خدمة أصحاب الجاه والسُّلطان ؛ فلم يَجْنِ من ذلك إلا النّدمَ والخُسْرانَ ، ولكنه في النّهاية وجد خلاصَه في إلزام نفسه بأن يجعل مديحه خالصاً للرّسول ﷺ ، لا يبتغي به شيئاً من عَرَض الدُّنيا ، وهو يرى أن ذنوبه مهما عظمت فإنه يطمع في شفاعة الرّسول له ؛ لغفران تلك الذُّنوب :

خَدَمْتُه بمَديحٍ أسْتَقِيل بهِ ذُنوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعرِ والخِدَمِ
أطعتُ غَيَّ الصِّبَا في الحالَتَيْن وما حَصَّلْتُ إلا على الآثام والنَّدَمِ
فيا خَسَارَةَ نَفْسِي في تِجارَتِها لم تَشْتَرِ الدِّينَ بالدُّنيا ولم تَسُمِ
إنْ آتِ ذَنْباً فما عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ مِن النَّبيِّ ولا حَبْلِي بمُنْصَرِمِ
إن لم يكُنْ في مَعَادي آخِذاً بيَدِي فَضْلاً وإلا فقُلْ يا زَلَّةَ الْقَدَمِ
ومُنْذُ أَلْزَمْتُ أفكارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُه لِخَلاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ[٢]

* * *

تُعَدُّ البُردة – بحقٍّ – من خير ما نُظِم في المديح النّبويِّ ، والغريبُ أن البوصيري في سائر شعره الذي احتفظ به ديوانُه ، لا يعدو مرتبة الشُّعراء المتوسِّطين ، وأنه عاش في عصرٍ غَلَب على الشِّعر فيه الزُّخرفُ المتكَلَّف والصَّنعة التي تُفقد الشِّعر روحه ، وتجعله أشبَهَ بجسدٍ مُحَنَّط . والبردةُ نفسها لا

(١) مُصْطَلِم : مُستَأصِل ، وهو يعني بذلك السَّيف ، والآجام : جمع أَجَمَة ، وهي الشَّجر الملتفُّ ، يعني به عَرين الأسد ، وتَجِم : تصبح واجِمَة ، أي ساكنة على غيظ ، ومُنْقَصِم : منكسر .

(٢) أستقيل : أنهض من العَثْرة ، والخِدَم : جمع خدمة ، لم تَسُم : لم تفاوض في البيع ، مُنْصَرِم : مقطوع .

تخلو من هذا التّكلُّف ومن المُحَسِّنات البديعِيَّة ، ولكن البوصيري بلغ فيها من صِدْق التّعبير ما ارتفع بها إلى مستوًى لم يقاربه سائِرُ شعره ، وحتى الزّخارفُ اللّفظيّة نفسها أتت – في أكثر الأحيان – مقبولةً لا يضيق بها الذّوق . وهذا هو ما ضمن للبردة شهرةً وذيوعًا لم تبلغهما أيُّ مِدْحةٍ نبويّةٍ أخرى ، على كثرة ما نُظِمَ في عصرها وبعد ذلك حتى اليوم ؛ وهو ما يفسِّر اهتمام الأدباء والعلماء بها من عرب وغير عرب ، بشكل لا نكاد نجد له مثيلاً مع أيِّ نصٍّ شعريٍّ آخر .

فقد أحصى بروكلمان من شروحها المخطوطةِ المحفوظةِ في مكتبات العالم أكثرَ من مائة شرح ، فضلاً عَمّا فُقِد ، ومن التّشْطيرات والتّخميسات وما إليها ما يَزيد على هذا العدد . أما المعارَضَاتُ فإنها لا تكاد تُحْصَى ، وما زلنا نرى حتى اليوم مِن الشُّعراء مَنْ تستهويهم معارضةُ البردة والنَّظْمُ على نهجها . وسوف نرى من بين هذه المعارَضات مجموعةً ذات هدف مزدَوِج : مدحِ الرّسول من ناحية ، وتفصيلِ أنواع البديع من ناحيةٍ أخرى ، وهي المعروفة باسم البَديعِيّات التي تستحقُّ وقفة خاصّة .

* * *

المدائح النّبويّة في المغرب العربيّ

شهدنا في الصّفحات السّابقة العوامل التي أحاطت بنشأة المدائح النّبويّة وتطوُّرها في الشّرق العربيّ ، والآن لِنَرَ كيف كان أمر هذه المدائح في الجَناح الغربيّ من عالم الإسلام .

إن بلاد المغرب العربيّ الممتدّة من حدود مصر الغربيّة إلى الأندلس ، لم تصبح جزءاً من « دار الإسلام » إلا في زمن متأخِّر نسبيا ، فالمغربُ لم يتمّ فتحه إلا في حدود سنة سبعين للهجرة ، والأندلسُ بعد هذا التّاريخ بنحو عشرين سنةً (في سنة اثنتين وتسعين) ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تتشكّل في هذه الرُّقعة

الفسيحة مجتمعاتٌ إسلاميّة الدِّين عربيّة اللغة . وكان من الطَّبيعيِّ أن يحرص الأندلسيون والمغارِبَة على أداء فريضة الحجِّ إلى البِقاع المقدَّسة ، وأن يُصبح الحَجُّ من أهمِّ الوَشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب ، وعملت على توحيد الثّقافة في سائر أنحاء الوطن الإسلاميِّ . ولعلَّ البعد الجغرافيَّ بين بلاد المغرب والبقاع المقدَّسة قد زاد حِرصَ أهل تلك البلاد على أداء فريضة الحجِّ ، والتردُّد على مراكز الثّقافة الإسلاميّة في الشّرق : في مكة والمدينة والفسطاط والبصرة والكوفة وبغداد .

ومن أوّل ما يصوِّر هذا الشّوق إلى البقاع المقدَّسة هذه الأبياتُ التي قالها العالِم الأندلسيّ عبد الملك بن حبيب الإلْبِيريّ (المتوفّى سنة ٢٣٨) مصوِّراً فيها تجربةَ رحلته لزيارة قبر الرّسول ﷺ :[١]

لِلّهِ دَرُّ عِصابَةٍ صاحَبْتُها ... نَحْوَ المدينَةِ نَقْطَعُ الفَلَوَاتِ
ومَهَامِهٍ قَدْ جُبْتُها ومَفَاوِزٍ ... مازِلْتُ أذكُرُها بِطُولِ حَيَاتِي
حتّى أتَيْنَا القَبْرَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ ... خَصَّ الإلَهُ مُحَمَّداً بصَلاةِ
خَيْرِ البَرِيَّةِ والنَّبِيِّ المُصْطَفَى ... هادِي الوَرَى لِطَرَائِقِ الجَنَّاتِ
لَمَّا وَقَفْتُ بقُرْبِهِ لِسَلامِهِ ... جادَتْ دُمُوعِي واكِفَ العَبَرَاتِ
ورأيْتُ حُجْرَتَهُ وَمَوْضِعَهُ الّذي ... قد كانَ يَدْعُو فيهِ في الْخَلَوَاتِ[٢]

ثم يُعدِّد المشاهد التي زارها : حجرات الرّسول ﷺ ، وغار حِراء حيث كان يخلو للعبادة ، والرَّوْضة الشّريفة ، ومنازل الأنصار ، وقبر حمزة (رضه) ، وقبور غيره من الصّحابة . ويختم القصيدة بقوله :

---

(١) نفح الطّيب ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٢) عصابة : جماعة ، مَهامِه : جمع مِهْمَه ، ومَفاوِز : جمع مَفازَة ، وكلاهما بمعنى صحراء ، و واكِف: غزير ، والعَبَرات : الدّموع .

سَقْيًا لِتِلْكَ مَعَاهِدًا شاهَدْتُها وشِهِدْتُها بالخَطْوِ واللَّحَظاتِ
لازِلْتُ زَوَّارًا لِقَبْرِ نَبِيِّنَا ومَدينةٍ زَهْرَاءَ بالبَرَكاتِ
صَلَّى الإلَهُ على النَّبِيِّ المُصْطَفَى هادِي البَرِيَّةِ كاشِفِ الكُرُبَاتِ
وعلى ضَجِيعَيْهِ السَّلامُ مُرَدَّدًا ما لاحَ نُورُ الحَقِّ في الظُّلُمَاتِ[(١)]

وقد اهتمَّ الأندلسيُّون منذ وقت مبكِّر بالسِّيرة النَّبويَّة ، فبدأوا بتدارس السِّيَر التي كتبها علماء المشرق ؛ مثل سيرَة موسى بن عُقْبَة الأسَديّ (ت ١٤١) وسيرة محمد بن إسحاق المُطَّلبي (ت ١٥٠) ، وتهذيب هذه السِّيرة لابن هشام (ت ٢١٨) . ومغازي الواقدي (ت ٢٠٧) ، ومغازي عبد الرَّزَّاق ابن هَمّام الصَّنْعاني (ت ٢١١) ، و « تاريخ » خليفة بن خياط البَصْري (ت ٢٤٠) . وحينما نضجت الثَّقافة الأندلسيَّة خلال القرنين الرَّابع والخامس رأينا الأندلسيِّين أنفسهم يشاركون في التَّأليف في السِّيرة النَّبويَّة ، ومن أجَلّ العلماء الذين اضطلعوا بذلك ابنُ حَزْم القُرْطبي (ت ٤٥٦) صاحب « جوامع السِّيرة » ، وصديقُهُ أبو عمر بن عبد البَرّ (ت ٤٦٣) صاحب « الدُّرَر في اختصار المغازي و السِّيَر » و « الاستيعاب في مَعْرِفة الأصحاب » .

وبعد ذلك بنحو قرنٍ يتجَلّى اهتمام الأندلسيِّين والمغاربة بالسِّيرة النَّبويَّة ، وبوصف شمائل النَّبيِّ ﷺ في كتابين أصبحت لهما مكانةٌ عظيمةٌ وذيوعٌ هائل في العالم الإسلاميّ بأسره ؛ أولهما كتاب « الشِّفا في التَّعريف بحقوق المصطَفَى » للقاضي عِياض بن موسى السَّبْتي (ت ٥٤٤) ، والثَّاني « الرَّوْض الأُنُف » في شرح سيرة ابن هشام لأبي زيد عبد الرَّحمن بن عبد الله السُّهيلي (ت ٥٨١).[(٢)]

---

(١) يعني بضَجيعَي الرَّسول ﷺ : أبا بكر وعمر المدْفونَيْن بجواره .

(٢) سبق أن قمنا ببحث مفصَّل لما كتبه الأندلسيون حول هذا الموضوع في مقالنا : « السِّيرة النَّبوية في التراث الأندلسي » ، المنشور في مجلة « الهلال » القاهرية ، عدد شهر أغسطس سنة ١٩٧٨ ، ص ١٠٢-١٠٩ .

كذلك كان من مظاهر هذا الاهتمام ابتداعُ الأندلسيِّين لفنٍّ نثريّ ، يبدو أنهم أوّل من كتبوا فيه ثم أصبح بعد ذلك تقليداً شائعاً ، هو الرّسائل التي تُوَجَّه إلى قبر الرّسول ﷺ ، وربما كان أوّلَ من فتح هذا الباب الوزيرُ الكاتب أبو القاسم محمّد بن عبد اللّه بن الجد الإشْبيلي (ت سنة ٥١٥) ، على لسان رجل صَدَر من بيت اللّه الحرام بعد زيارة قبر النّبيّ [١] ، وهي في التّوسُّل له وطلب الشّفاعة منه . وسار الأدباء الأندلسيُّون بعد ذلك على هذا النّهج من كتابة الرّسائل إلى الرّوضة النّبويّة الشّريفة ، لاسيّما بعد أن اعتقد كثير من المسلمين في قدرة هذه الرّسائل على أن تكْفُل الاستجابةَ لدعوات كاتبيها ، فالمَقّري يورد رسالة لرجل من أهل قرطبة هو عبد الله بن عبد الحق الصّيْرَفي ، وكان عليل الجسم ، فلما وصلت رسالته إلى القبر الشّريف بَرئَ من عِلّته .[٢]

كما نقل لنا عدّة رسائل أخرى مماثلة كتبها ابن الغَمّاد المالقي (ت ٥٣٠) ، والكاتب المعروف ابن أبي الخِصال (ت ٥٤٠) ، والقاضي عِياض (ت ٥٤٤) .[٣] واستمرّ هذا التّقليد حتى نهاية الإسلام في الأندلس، فنحن نجد لسان الدين بن الخطيب ، الكاتب الوزير المعروف ، يكتب رسالتين عن سُلْطانَي غَرْناطة : أبي الحَجّاج يوسُف (ت ٧٥٥) وابنه محمد الغني بالله (ت ٧٩٣) يصفُ فيهما أحوال بلاده ، ويطلب منه العون في دفاعه عن كلمة الإسلام وجهاد أعدائه .[٤]

وليس من العسير أن نقدِّر العامل النّفسيَّ المَوَجِّه لكتابة مثل هذه الرّسائل ؛

---

(١) احتفظ لنا بهذه الرّسالة ابن بَسّام في كتاب الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، ج ١ ، ص ٢٨٦-٢٨٨ .

(٢) أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ٢٩-٣٢ .

(٣) انظر هذه الرّسائل الثلاث في أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ٣٣-٣٤ ، و ٢١-٢٩ ، و ١١-٢٠ على التوالي .

(٤) نص الرسالتين في أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ٣٤-٤٥ و٤٥-٧٩ .

فقد كانت أحوال المسلمين في الأندلس تسير منذ بداية القرن السّادس الهجريّ في طريق التّدهور والضّعف ، وألحّت عليهم قوى المسيحيّة الأوربيّة التي شرعت في انتزاع الحواضر الأندلسيّة واحدةً بعد أخرى ، فكانوا يبثّون شجونهم ويُفْرِغون همومهم في هذه الرّسائل التي يتوسّلون بها إلى الرّسول، ويستمدّون بها العون منه .

وهذا هو العامل الرّئيسيُّ الذي جعل فنّ المدائح النّبويّة يعود للازدهار في الأندلس والمغرب منذ القرن السّادس الهجريّ . ومن أولي هذه القصائد قصيدتان لابْن السِّيدِ البَطَلْيَوْسِيّ (ت ٥٢١) ، في مخاطبة مكة ، والتّعبير عن الشّوق إلى زيارة البِقاع المقدّسة ، مع الحديث عن سيرة الرّسول ﷺ ، ومطلع الأولى :

أ مَكّةُ تَفْدِيكِ النُّفوسُ الكَرَائِمُ ولا بَرِحَتْ تَنْهَلُّ فيكِ الغَمَائِمُ

ومطلع الثانية :

إلَيْكَ أفِرُّ من ذُلّي وذَنْبِي فَأنْتَ إذا لَقِيتُ اللّهَ حَسْبِي [1]

وفي هذه الظّاهرة نرى تشابهًا بين المشرِق والمغرب ، في العامل الذي أدّى إلى إكثار الأدباء من المديح النّبويّ ، والتّوسُّل للرّسول ، والبَوْح له بالهموم والأشجان ؛ فقد كان في بلاد المشرق ما أصاب الأمّة من مِحْنة الغزو الصّليبيّ القادم إليها من الغرب ، والهجوم التّتريّ الكاسح المنطَلِق من الشّرق ، وفي الأندلس ما تعرّضت له البلاد من زَحْفٍ مسيحيّ لم تفلح في صَدّ تيّاره جهودُ المُرابِطين ثم المُوَحّدين ، وهكذا شعر المسلمون هنا وهناك بالضّعف وقلّة الحيلة، ولم يكن لدى الأدباء والشّعراء – وهم ضمير الأمّة ولسانها النّاطق – إلا أن يتوجّهوا إلى الرّسول ﷺ يستشفعون به ويطلبون منه العون والنُّصْرة .

ولعلّ الأديب الكاتب الشّاعر محمد بن مسعود ، المعروف بابن أبي

(١) أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٤٧–١٤٨ ، و ١٤٨–١٤٩ .

الخِصال (ت ٥٤٠) ، هو أوّل من أَفْرَد للمدائح النّبويّة فى المغرب تآليفَ شعريّة كاملة ؛ فالمقّري يورد له قصيدة طويلة سمّاها « مِعْراج المَناقِب ومِنْهاج الحَسَب الثّاقِب » وهي في ذكر نَسَب الرّسول ﷺ وسيرتهِ ومعجزاتهِ ومناقبِ صحابته ، ومطلعُ هذه القصيدة :

إِلَيْكَ فَهَمِّي والفُؤادُ بِيَثْرِبِ   وإنْ عاقَنِي عن مَطْلَع الشَّمْس مَغْرِبي

وتقع في ٣٦٦ بيتاً . وقد قام بتخميس هذه القصيدة الأديب النّحوي أبو بكر محمد بن الحسن بن حَبِيش المُرْسِيّ ، نزيلُ تونس (المُتَوفّى بعد سنة ٦٧٩) [١] وكان ابن خير الإشبيليّ من بين رُواتها وناشريها في الأندلس والمغرب .[٢]

ولابن أبي الخِصال أيضاً مجموعةً من القصائد سمّاها « النّبويّات » ، وهي خمس مراثٍ للرّسول ﷺ عارَض بها مراثيَ حسّان بن ثابت للرّسول ، وهي ثلاثَ داليّةٌ و واحدةٌ رائيّة ، يقول في مطالعها :

– بطَيْبَةَ آثارٌ تُحَجُّ وتُقْصَدُ   ودارٌ بها لِلّه نُورٌ مُخَلَّدُ
– هَلْ يَجْمَعَنَّ صَبَاحُ يَوْم أوْ غَدِ   بَيْنِي وبَيْنَ القَبْرِ قَبْرِ مُحَمَّدِ
– قَلْبِي إلى طَيْبَةٍ ذُو غُلَّةٍ صادي   إلى البشيرِ النَّذيرِ الخاتَم الهادِي
– هَوِّنْ عَلَيْكَ من الأَرْزاءِ ما حَضَرَا   بَعْدَ النَّبيِّ ولا تَعْدِلْ به خَطَرَا [٣]

وقام ابن حَبِيش المُرْسي بتخميس هذه القصائد أيضاً ، كما قام بتخميس قصائد حسان بن ثابت نفسِها في تأليفٍ سمّاه : « الحدائق النِّيسانيّة والطَّرائق الحَسّانية » .[٤]

---

(١) أورد المقّري القصيدة كاملة مع تخميسها لابن حَبِيش في أزهار الرِّياض ، ج ٥ ، ص ١٧٤–٢٤٩ .
(٢) فهرَسَة ابن خير ، ص ٤١٨–٤٢٠ ، وانظر كذلك كتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي ، ج ١ ، ص ٣٦–٤٣ ، حيث يقتطف من هذه القصيدة ما يتصل بنسب الرسول .
(٣) غُلّة : عطش شديد ، وصادي : ظمآن ، والأرزاء : جمع رُزْء ، وهو المصيبة العظيمة .
(٤) أزهار الرِّياض ، ج ٥ ، ص ٢٥٠–٣٠٠ .

المَولد النّبويُّ والمَوْلِديّات في المغرب

وممّا زاد الاهتمامَ بالمدائح النّبويّة في المغرب والأندلس بدءُ الاحتفال بالمولد النّبويِّ في المغرب ، ابتداءً من أوائل القرن السّابع الهجريّ ، وربما كانت هناك أصول قديمة لهذا الاحتفال منذ أن كان المغرب ، أو شطرٌ كبير منه ، خاضعاً للخلافة الفاطميّة في مصر ، فقد سَبَق أن رأينا كيف كان المولد النّبويُّ من الأعياد التي احتفل بها الفاطميّون ، على أننا لم نعثر على شواهدَ تدلُّ على ذلك .

والذي يُسجِّله التّاريخ هو أن بداية هذا الاحتفال ، ارتبطت في المغرب بشخصيّةِ أميرٍ يرجع له الفضل في ذلك ، تماماً كما ارتبط المولد النّبويُّ في المشرق بشخصيّة الملك المُظَفَّر كوكبوري صاحب إرْبل ، منذ السّنوات الأولى للقرن السّابع الهجريّ ، على نحو ما رأينا في صفحات سابقة . أمّا هذا الأمير فهو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الحسين ، الشهير بابن أبي عَزَفَة اللَّخْمِيّ ، وكان أميراً على مدينة سَبْتَةَ التي كانت دائماً – بموقعها على مضيق جبل طارق – حَلْقةَ صِلةٍ ثقافيّة بين المغرب والأندلس ، وكان أبو العبّاس العَزَفيّ يحكم هذه المدينة شبهَ مستقلّ ، وإن كان يدين بالطّاعة شكلاً لسلطان المَوحِّدين ، وتُوفِّي في رمضان سنة ٦٣٣ . ويرجع احتفاله بالمولد إلى كتابٍ بدأ بتأليفه بعنوان : « الدُّرّ المُنَظَّم في مَوْلِدِ النّبيِّ المُعَظَّم » ، ثم أكمله ابنه وتلميذه أبو القاسم محمد الذي حكم سبْتَة أيضاً حتى وفاته سنة ٦٧٧ .

ويستحقُّ هذا الكتاب مِنّا وقفةً خاصّة ؛ إذ إنه يعدُّ نقطة البداية في الاحتفال بالمولد النّبويِّ في جميع بلاد المغرب . وكان من حسن الحظِّ أن احتفظ الزّمن لنا بنسختين مخطوطتين من هذا الكتاب ، في مكتبة الإسكوريال وفي المتحف البريطانيّ ، وقد توفّر على دراسته مستشرق إسبانيٌّ جليل ، هو الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا ، ونشر أبحاثًا حوله ونصوصاً منه في مجلة الأندلس [1] .

(١) عن العَزَفي انظر بروكلمان ، ج ٦ ، ص ٢٥٥ ، ومقال الأستاذ فرناندو دي لا جرانخا عن « الأعياد المسيحيّة في الأندلس » في مجلة الأندلس ، المجلد ٣٤ سنة ١٩٦٩ .

ويتبيّنُ من هذا البحث القيّم ، ومن النُّصوص التي أوردها الأستاذ دي لاجرانخا من الكتاب ، أن العَزَفيّ لاحظ أن أهل الأندلس والمغرب عامّةً كانوا يشارِكُون مُساكِنيهِمْ وجيرانَهُمْ من المسيحيِّين أعيادَهم ، ويحتَفون بها احتفاءً عظيماً ؛ فيتوسَّعُونَ في النَّفقات واستجادَة المطاعم وألوان الحلوى ، ويخصّ العزفي من هذه الأعياد ما يسمّيه « ليلة العجوز » ، وهي آخر ليالي السَّنة الميلاديّة الموافقة للحادي والثَّلاثين من شهر دجنبر (ديسمبر) . واسم « ليلة العجوز » هو التَّرجمة العربيَّة لِما يسمّيه الإسبان حتى اليوم La Nochevieja (أي ليلة رأس السَّنة) .

وظاهرةُ مشاركة المسلمين لجيرانهم من المسيحيِّين في أعيادهم كانت من الظَّواهر الشّائعة في العالم الإسلامي كلّه ؛ مَشْرِقه ومَغْرِبه على السَّواء ، كما يسجِّل ذلك المَقْرِيزي في كتاب « الخِطَط » . على أن ذلك لم يُعجب الفُقهاء المتزمِّتين ، من أمثال العَزَفِي الذي حَمَل على مواطنيه من أجل ذلك ، بل إنه نَدَب نفسه لتغيير هذه البِدْعة ؛ فألّف كتاب « الدُّرّ المنظّم » ساعياً بذلك إلى هَدَفَيْن : الأول هو قطع عادة مسلمي الأندلس بالاحتفال بالأعياد المسيحيّة ولاسيّما عيد الميلاد ، والثاني هو الاستبدال بهذا العيد عيدَ مولد النّبي ﷺ .[١]

وقد استطاعت هذه الحملة التي اضطلع بها الأميرُ الفقيهُ العَزَفيّ أن تؤتي ثمارَها ؛ فتَحَقَّقَ له هدفه من إقلاع مسلمي الأندلس والمغرب عن الاحتفال بعيد الميلاد المسيحيّ ، وإن لم تقض تماماً على بعض الأعياد الأُخرى التي لم يكن لها طابَع دينيٌّ واضح . أمّا الهدف الثاني وهو الاحتفال بعيد مولد النّبيّ ﷺ فقد تحقّق أيضاً . واستقرّت هذه العادة التي اتّخذت ، منذ ذلك الوقت ، مظهراً من الفخامة يُضارع ما اتّسمت به أكبر الأعياد الإسلاميّة

---

(١) مقال الأستاذ جرانخا ، ص ١٧–١٨ .

الأخرى ، مثل عيد الفطر وعيد الأضحى . ويذكر الأستاذ جرانخا - الذي درس هذا الموضوع - أن الاحتفال بالمولد النّبويّ أصبح عيداً رسميا في المغرب والأندلس في سنة ٦٩١ ، ولو أن هناك شواهدَ كثيرة تدلُّ على أنه كان يُحْتَفل به في مملكة بني الأحمر في غَرْناطة قبل هذا التاريخ بوقت طويل .

واستمرّ الاحتفال بالمولد النّبويّ في المغرب والأندلس على المستويين الشّعبيّ والرّسميّ طَوال العصور التّالية ، واتّخذ في القرن الثّامن الهجريّ بصفة خاصّة من مظاهر الفَخامة ما أصبح به أعظمَ الأعياد الإسلاميَّة . وتُنَوّه المصادر المغربيَّة بالاحتفالات التي كان يقيمها بهذه المناسبة السُّلطان أبو حَمُّو موسى ابن يوسف الزّيَّانِي ملك تِلِمْسَان (في غربيّ الجزائر) . وقد حكم هذا الأمير من أمراء بني عبد الواد تلك المنطقة من المغرب الأوسط قُرابةَ ثلاثين عاماً (بين سنتي ٧٦٠ و ٧٩١) [١] ، وكان يتميَّز بثقافةٍ رفيعة ، فقد ألّفَ كتاباً في السّياسة عنوانه « واسِطة السُّلوك » قصد بِه تأديبَ ابنه و وليّ عهده أبي تاشفين ، وضمّن هذا الكتابَ بعضَ شعره ومنه بعضُ قصائده المَوْلديَّة التي تدلُّ على قَدم راسخة في ميدان الشّعر ، ويقول في إحداها : [٢]

بِحُرْمَةِ أحْمَدَ خَيْرِ الْوَرَى رَجَائِي وظَنّي به لَنْ يَخِيبا
نَبيٌّ أتَى رَحْمَةً لِلْعِبادِ فَمَحّى ومَحّصَ عنّا الذُّنوبَا
وسَنَّ الشريعَةَ للمؤمنينَ وشَنَّ على الكافِرين الحُرُوبَا
بِمَوْلِدِهِ أشْرَقَ الأفْقُ نُوراً وألْبِسَتِ الأرْضُ حُسْناً قَشِيبَا

ويُنَوّه أبو عبد الله التَّنَسي التِّلِمْساني في كتابه « نظم الدُّرر والعِقْيان في بيان شرف بني زيّان » [٣] بفخامة تلك الاحتفالات المَوْلِديَّة ، التي كان يُقيمها

(١) عن هذا الأمير ، انظر الدراسة التي اختصَّ بها الأستاذ عبد الحميد حاجيات بعنوان « أبو حَمُّو موسى الزّيّاني ، حياته وآثاره » ، الجزائر ١٩٧٤ . (٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

(٣) تحقيق الأستاذ محمود بوعَيّاد ، الجزائر ١٩٨٥ ، ص ١٦٢-١٦٤ ، وقد نقل هذا الوصف المقّري في نفح الطّيب ، ج ٦ ، ص ٥١٣-٥١٤ ، وأزهار الرياض ، ج ١ ، ص ٢٤٣-٢٤٥ .

أبو حَمُّو الزّيّاني ؛ إذ يقول : « وكان يقوم بحقّ ليلة مولد المصطفى ﷺ ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يُقيم مَدْعاةً يحشر لها الأشراف والسّوقَة ، فما شئت من نمارِقَ مصفوفة ، وزرابِيٍّ مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحَضْرة على مراتبهم ، تطوف عليهم وِلْدانٌ قد لبسوا أقْبِيَة الخَزّ الملوّن ، وبأيديهم مباخِرُ ومِرشّات ، ينال كلٌّ منها بحظّه ، وخِزانة المنجانة (آلة لرصد الوقت) ذات تماثيل لُجَيْن مُحْكَمَة الصَّنْعة . والمُسْمِع قائمٌ يُنشد أمداح سيّد المرسَلين ، سيِّدنا ومولانا محمد ﷺ ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دوراً ، قد اشتملت من أنواع محاسن الطّعام على ألوان تشتهيها الأنْفُسُ ، وتستحسنها الأعينُ ، والسُّلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه ، وكلُّ ذلك بمرأى منه ومسمع ، حتى يصلّي هنالك صلاة الصُّبح . وما من ليلة مولدٍ مَرّت في أيامه إلا نَظَم فيها قصيداً في مدح المصطفى ﷺ أوّلَ ما يبتدئ المُسمع في ذلك المَحْفِل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشادُ مَن رُفع إلى مقامه العليّ في تلك الليلة نظماً .»

ولم ينفرد بلاطُ تِلِمْسَان بهذه الظّاهرة من العناية بالمولد النّبويّ ، بل يمكن أن نقول إن هذا الوصف السّابق يمكن أن ينسحب أيضاً على سائر بلدان المغرب : في غَرْناطة ، وفي فاس ، وفي تونس .

وهكذا نرى كيف التقى شرق العالم الإسلاميّ وغَرْبُه على العناية بالمولد النّبويّ ، ابتداءً من القرن السّابع الهجريّ : في المشرق بفضل الملك المُظَفّر صاحب إرْبِل في شماليّ العراق ، وفي المغرب بفضل الأمير الفقيه أبي العباس العَزَفيّ صاحِبِ سبْتَة في أقصى المغرب [١] ، ولعلّ من العوامل التي زادت الاهتمام بهذا العيد ، وبما رافَقَه من أدبٍ شعريّ ونثريّ وفير ؛ ما قُدّر

(١) يُمثّل هذا اللّقاء أيضاً بين المشرق والمغرب الإسلاميين ما سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن الملك المظفّر كوكبوري ، من وفود الأديب المحدّث الأندلسي ابن دِحْيَة الكلبي (ت ٦٣٣) على هذا الملك في إربل ، ومن تأليفه كتاب « التّنوير في مولد السّراج المنير » الذي كان يُقرأ على الملك نفسه كل عام .

للفكر الصّوفيّ من انتشار عظيم في أوساط المسلمين في كلّ مكان . أمّا في الشّرق فقد رأينا كيف نشأت طرُقٌ صوفيّة أصبح لها أتباعٌ كثيرون خلال القرن السّادس ؛ مثل القادِريّة والرِّفاعيّة وغيرهما . وأمّا في المغرب فقد بدأ التّصوّف ضعيفاً يُنْكره الفُقهاء والمُحدِّثون من أهل الظّاهر ، ولكنه لم يلبث أن أصبح له من الانتشار ما أصبح الصّوفيّة به أكثرَ المشتغِلين بأمور الدِّين حظوةً وشعبيّة عند الجماهير .

وكان هذا التّحوُّل خلال القرن السّادس ، فظهر في الأندلس أبو القاسم ابن العَرِيف (ت ٥٣٦) ، ثمّ أبو مَدْيَن شُعَيْبُ بن الحُسَيْن الإشبيليّ ، نَزيل بُجَايَة في المغرب (ت ٥٩٤) ، وتلميذه الصّوفيُّ الأكبر محيي الدين بن عربي المُرْسي (ت ٦٣٨) . كما أسّس أبو الحسن الشّاذلي (ت ٦٥٦) طريقتَه المشهورةَ التي نشرها في مصر وفي المشرق ، تلميذُه أبو العبّاس المُرْسي نزيل الإسكندرية (ت ٦٨٦) ، ويَكفي لتقدير مدى انتشار التّصوُّف في المغرب النّظرُ في كتاب ابن الزّيّات التّادِلِيّ (ت بعد ٦١٧) « التّشَوُّف إلى معرفة رجال التّصوُّف » ؛ إذ نرى عدداً هائلاً من الأولياء ومشايخ الصُّوفيّة المنتشرين في كلّ أنحاء المغرب .

وقد ترتّب على كلّ هذه العوامل أن أقبل الشُّعراء على النّظم في المدائح النّبويّة إقبالاً عظيماً نافس المغربُ فيه المشرقَ ، ونشأ فنٌّ جديد متفرِّع من هذه المدائح ، أصبح يُدْعى بـ « المَوْلِدِيّات » ، أي القصائدِ التي كانت تُنْظَم خِصِّيصاً لكي تُنشد في احتفالات المولد النّبويّ ، التي اهتمّ بها السّلاطين والأمراءُ وعامّة الشّعْب ، ولا يكاد ديوانٌ شاعر مغربيّ أو أندلسيّ – بدءاً من القرن السّابع – يخلو من عدد كبير من هذه المَوْلِدِيّات . هذا فضلاً عن المدائح النّبويّة التي كان الشُّعراء ينظمونها دون أن تكون مرتبطةً بمناسبة المولد .

ومن الشُّعراء الذين نظموا أكثرَ شعرهم في المديح النّبويّ محمد بن محمد

ابن الجَنَّان المُرْسِي ، الذي كان كاتباً لبعض أمراء الأندلس ، وخرج من بلده مُرْسِية في سنة ٦٤٠ ، عندما ساءت أحوال شرق الأندلس ، فوفَدَ على سَبْتَة ، وهي بلد العَزَفيّ الذي سبق أن نَوَّهنا بفضله في إحياء المولد النَّبويّ ، ثم توجَّه إلى إفريقيَّة واستقرَّ بِبُجاية (شرقيّ الجزائر) حيث أدركته وفاته في نحو سنة ٦٥٠ .[١] ولابن الجَنّان خطبٌ ومواعِظُ ورسائِلُ كلُّها في مدح الرَّسول ﷺ. أمَّا شعره ، فمن قصائده التي أصبحت نموذجاً يَحتذيهِ المُدّاحُ بَعْدَه ؛ تخميسٌ تتردَّد فيه لازِمَةُ الصَّلاة والسَّلام على الرَّسول ، وهو مِمّا كان الصّوفيَّة يتناشَدونه في مَجالسهم :[٢]

اللهُ زادَ مُحَمَّداً تكرِيما   وحَبَاهُ فَضْلاً من لَدُنْهُ عظيما
واختصَّهُ في المرسَلينَ كَرِيما   ذا رَأْفَةٍ بالمؤمنينَ رَحِيما

صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تسليما

وبعد أن يتحدَّث عن نَسَبه الشَّريف وعُلُوِّ رُتبته على سائر الأنبياء ، يمضي في ذِكْر معجزاته ، ومنها شَقُّ المَلَكَيْن صدرَه وتطهيرهما قلبه على هذا النَّحو :

لما تَرَعْرَعَ جاءَهُ المَلَكانِ   بالطَّسْتِ فيها حِكْمَةُ الرَّحْمَن
فاسْتَخْرَجَا القَلْبَ العظيمَ الشّانِ   منه وطَهَّرَ ثمَّ عادَ سليما

صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما

ويقول المَقَّري إنه كثيراً ما كان ينشد هذه القصيدة في مجالس التَّدريس تبرُّكاً بها ، ثم يورد مجموعة كبيرة من القصائد والتَّخميسات المماثِلَة .

ومن بين هذه التَّخميسات ما نظمه شاعر معاصرٌ لابن الجَنّان كان يهوديا

(١) انظر ترجمة ابن الجَنّان في الإحاطة لابن الخطيب ، ج ٢ ، ص ٣٤٨–٣٥٩ ، وعنوان الدِّراية للغُبْريني، ص ٣٤٩–٣٥٠ ، ونفح الطيب ، ج ٧ ، ص ٤١٥–٤٤٤ .
(٢) نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ٤٣٢ .

وأسلم ، وهو إبراهيم بن سَهْل الإشبيليّ المعروف بالإسرائيليّ (المتوفَّى في منتصف القرن السّابع) . يقول في مطلع هذا التّخميس :(١)

جَعَلَ المُهَيْمِنُ حُبَّ أحْمَدَ شِيمَةً وأتَى به في المُرْسَلِينَ كريمةً
فغدا هَوَاهُ على القلوبِ تميمةً وغدا هُدَاهُ لهَدْيِهِمْ تَتْمِيمَا
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ولسنا ندري لماذا شكَّك المَقّري في صِحّة إسلام ابن سهل ؛ فنحن نرى في سائر شعره ما يشهد بصدقه وإخلاصه ، تدلُّ على ذلك قصيدتُه في التّشوُّق للمَشاهِد المقدّسة ، وفيها يقول :(٢)

ورَكْبٍ دَعَتْهُمْ نَحْوَ يثرِبَ نِيَّةٌ فما وَجَدَتْ إلا مُطِيعًا وسَامِعَا
يسابِقُ وَخْدَ العيس ماءُ شئونِهِمْ فَيُفْنُونَ بالشَّوْقِ المَدَى والمَدَامِعَا
تُضِيءُ من التّقوى حَنَايا صُدُورِهِمْ وقد لَبِسُوا اللَّيْلَ البهيمَ مَدَارِعا
تَلاقَى على وادِي اليَقين قُلُوبُهُمْ خَوَافِقَ يُذْكِرْنَ القَطَا والمَشَارِعا
قلوبٌ عَرَفْنَ الحَقَّ فهي قد انْطَوَتْ عليها جُنوبٌ ما عَرَفْنَ المَضَاجِعَا
تكادُ مُنَاجاةُ النَّبيِّ مُحَمَّد تَنِمُّ بها مِسْكًا على الشَّمِّ ذائِعا (٣)

وقصيدته التي يمتزج فيها المديحُ النّبويّ بدعوة حارّة إلى الجهاد ، حينما حاصر العدوُّ بلده إشبيلية قبل سقوطها الأخير :(٤)

---

(١) نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ٤٤٥ ، وعن ابن سهل الإسرائيلي انظر مقدمة ديوانه بقلم الدكتور إحسان عباس وما أورده فيها من مصادر .

(٢) ديوان ابن سهل ، ص ٢٣٢-٢٣٤ .

(٣) الوَخْدُ : نوعٌ من السَّير السريع ، والعِيس : المطايا ، والشئون : مجاري الدّمع ، والمدارع : الثّياب ، يُذْكِرْن : أذْكره الشيء ، جعله يَذْكره . والقطا من الطيور المائية ، والمشارع : موارد الماء .

(٤) ديوان ابن سهل ، ص ١٤٠-١٤٢ .

كم أبْطَلَوُا سُنَنَ النَّبِيِّ وعَطّلوا ... من حِلْيَةِ التَّوحيدِ ذِرْوَةَ مِنْبَرِ
أيْنَ الحَفَائِظُ ما لَهَا لم تَنْبَعِثْ ... أيْنَ العَزَائِمُ ما لَها لا تَنْبري
أ يَهُزُّ منكُمْ فارِسٌ في كَفِّهِ ... سَيْفًا ودِينُ مُحَمَّدٍ لم يُنْصَرِ

وفي هذا دليلٌ على أن المدائح النّبويّة لم تكن مجرّد ابتهالات ومُناجَيات ، وإنّما كانت توظّف أيضًا في تصوير واقع المسلمين ، والاهتمام بقضاياهم ، والدّعوةِ إلى إصلاح أحوالهم .

وعلينا أن نشير أيضًا إلى أثر بعض الأفكار الصّوفيّة في شعر المدائح النبّويّة ؛ لا سيّما وأنّ مشايخ التّصوُّف قد شاركوا مشارَكة واسعة في هذا المجال . ولننظرْ كيف يعلّق محيي الدّين بن عربي على حديث « كنتُ نبيا وآدمُ بين الماء والطّين » في خُطْبة « الفتوحات المكّيّة » :[١]

ويَكُونُ هذا السّيِّد العَلَمُ الذي ... جَرَّدْتَهُ من دَوْرَةِ الخُلَفاءِ
وجَعَلْتَهُ الأصْلَ الكريمَ وآدَمٌ ... ما بَيْنَ طِينَةِ خَلْقِهِ وَالمَاءِ
ونَقَلْتَهُ حتّى اسْتَدَارَ زَمَانُهُ ... وعَطَفْتَ آخِرَهُ على الأبْدَاءِ
فأقَمْتَهُ عَبْدًا ذَلِيلاً خاشِعًا ... دَهْرًا يناجِيكُمْ بغارِ حِراءِ
حتّى أتاهُ مُبَشِّرًا من عِنْدِكُمْ ... جِبْرِيلُ المخصوصُ بالأنْبَاءِ
قالَ السَّلامُ عَلَيْكَ أنْتَ مُحَمَّدٌ ... سِرُّ العبادِ وخاتَمُ النُّبَآءِ

ففي هذه الأبيات تعبيرٌ عما سمّاه ابن عَرَبي في « فُصوص الحِكَم »[٢] « الكَلِمَة المحمَّدِيَّة » ويَقْصد بها أزَلِيَّة النّور المحمَّدي ، استنادًا إلى الحديث

---

(١) الفتوحات المكيّة ، تحقيق الدكتور عثمان يحيى ، ج ١ ، ص ٤٦-٤٧ ، و الأبداء : جمع بَدْء ، وهو أول كل شيء ، والأنبياء والنُّبآء : جمع نبيّ .

(٢) فُصوص الحكم لابن عربي ، تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفي ، الفَصّ ٢٧ بعنوان « حكمة فردية في كلمة محمَّدِيّة » ، ج ١ ، ص ٢١٤ . وانظر التعليق في ج ٢ ، ص ٣١٩-٣٢١ .

الذي أوردناه ، وأحاديثَ أخرى منسوبة للرّسول ﷺ ، منها : « أنا أوّل النّاس في الخَلْق » و « أوّلُ ما خَلَق اللّهُ نوري » ، فقد استَنْتَج ابن عربي ومعه كثيرٌ من الصّوفيّة أنّه كان لمحمد ﷺ وجودٌ قبلَ وجود الخَلْق ، وقبل وجوده الزّمانيّ في صورة النّبيّ المُرْسَل ، وأنّ هذا الوجود قديمٌ غير حادِثٍ ، وقد عبّروا عنه بالنّور المحمّدي .

وفي ديوان ابن عربي عِدّة قصائدَ في المديح النّبويّ ، كان تعبيره فيها أكثر سلاسَةً وأقلّ غموضاً من الأبيات السّابقة يقول في إحداها :[١]

أ لَمْ تَرَ أنّ اللّهَ أكْرَمَ أحْمَدا ... ونادَى به حتّى إذا بَلَغَ المَدَى
تَلَقّاهُ بالقُرْآنِ وَحْياً مُنَزّلاً ... فكانَ لهُ روحاً كَريماً مُؤَيّدَا
وأعْطَاهُ ما أبْقَى عَلَيْهِ مَهَابَةً ... فأوْرَثَهُ عِلْماً وحِلْماً وسُؤْدُدَا
وأعْلَى به الدِّينَ الحنيفِيّ والهُدَى ... وصَيّرَهُ يَوْمَ القيامَةِ سَيّدا

* * *

ويطول بنا الأمر لو تتبّعنا مسيرة المدائح النّبويّة منذ القرن السّابع ؛ إذ لا نكاد نلتقي بشاعرٍ في شرق العالم الإسلاميّ أو غَرْبه إلا له فيها مشاركةٌ ، وطالت بعض هذه القصائد طولاً مُفْرِطاً ، فمن ذلك أرْجوزَةٌ ألّفها القاضي أبو عبد اللّه محمّد بن عيسى بن المُناصِف ، القُرْطُبيّ الأصل (المتوفّى في مراكش سنة ٦٢٠) ، بعنوان « الدُّرّة السَّنِيّة في المعالم السُّنّيّة » ، وتقع في نحو سبعة آلاف بيتٍ من الرَّجَز .[٢] ويشير الشّيخ عبد الحَيّ الكتّاني إلى قصيدة أخرى لم يذكر مؤلّفها ، بعنوان « مِنْحَة واهِبِ الهبات البَهيّة والصّلات الفاخِرَة في مِدْحَةِ صاحب الآيات السَّنِيّة والمعْجِزات الباهِرَة » ، ويقول إنها

(١) ديوان ابن عربي ، طبعة بومباي الحجرية ، ص ٦٦-٦٧ .

(٢) التكملة لابن الأبّار ، طبعة كوديرا ، مدريد ، ترجمة ٩٦٢ ، والتراتيب الإدارية للشيخ عبد الحي الكتّاني، ج ١ ، ص ٢٤ ، وقد أورد منها مقتطفات في ج ١ ، ص ١٥ .

« هَمزِيّة جَيِّدة في نحو خمسة آلاف بيتٍ من البلاغة والغرابة بِمَكان .»[١]

وأَغْرَبُ من ذلك ما يذكره عن قصيدة بعنوان « المقالات السَّنِيّة في مدح خَيْر البَرِيَّة » ، وهي سيرة للرّسول ، نَظَمها أحد علماء المغرب ، وهو عثمان بن عليّ ، مُعارِضاً بها بُردة البوصيري . ويقول الكَتّاني عنها إنها تقع في تسعة عشر ألف بيتٍ من الشّعر ، على بَحْرٍ واحد ورَوِيٍّ واحد . ولسنا نعرف في تاريخ الأدب العربي قصيدة واحدة بلغت هذا الطّول ، ويقول الكَتّاني مُعَلّقاً عليها : « أعجبُ ما أُلّفَ في الإسلام ، وأبدعُ ما نُظِم ، نفاخرُ بها نَظْمَ الإلياذة .»[٢] غير أن الأبيات التي اقتطفها منها في كتابه لا تُصَدِّق هذا الحُكْم[٣] ؛ إذ هي كما تَبَيَّن لنا لا تزيد على كونها نظماً مغسولاً رديء النّسج ، تغلب عليه الرّكاكة والتّكلُّف البالغ .

ويُفْهم من عبارة للمَقّري في نَفْح الطّيب أن عالمًا مغربيا عاش في القرن السّابع الهجريّ ، ويدعى الحسن بن عبد الرّحمن بن عبد الرّحيم بن عُذْرة المَغربيّ الأنصاريّ ، قام بجمع ما اطّلع عليه من مدائحَ نبويّة في كتاب بعنوان « مُنْتَهى السُّول في مدح الرّسول » ، وهو يقع في خمسة وعشرين مُجَلّدًا على الأقلّ .[٤] وإذا كان هذا هو ما استطاع جمعه ذلك العالمُ المَغْرِبيُّ في القرن السّابع ؛ فما الظّنُّ بالمدائح التي استمرّ نظمها في القرون التّالية ؟

* * *

على أنه يجب علينا أن ننبّه إلى أن القيمة الفَنّيّة لكثير من هذا الشّعر محدودةٌ ضئيلة ، بل وتكاد تنعدم أحيانًا ، فشرفُ الممدوح لا يمكن أن يَشْفَع

---

(١) التّراتيب الإداريّة ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) انظر أمثلةً منها في التّراتيب الإداريّة ، ج ١ ، ص ٣١ ، ٣٦ ، ٣٥٣ ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، ١١٠ .

(٤) نفح الطّيب ، ج ٧ ، ص ٤٧٥ .

دائماً لما دخل هذا الشِّعرَ من النَّظْم الرَّديءِ ، الذي صنعه من لم يَرْزُقهم الله حَظا من الموهبة الشِّعريَّة الحقيقيَّة .[١] هذا من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرى نرى أن الموضوعات التي تناولها كثير من المادحين تكاد تكون واحدةً ، ويكثر فيها الإلحاحُ على معجزاتٍ تُنْسب للرَّسول ﷺ مما شاع على ألسنة القُصّاص ، ولم تُثْبته كتب السِّيرة الموثوق بصحَّتها ، فقد تضخَّمت هذه المعجزات وأضيفت إليها تفاصيلُ خُرافيَّة كثيرة من نَسْج الخيال ، كذلك أسرف ناظمو هذه القصائدِ في طلب الشَّفاعة والتَّوسُّل بقبر الرَّسول ﷺ ، وببعض ما يذكر من مُخَلَّفاته ، مثل ذلك الأدب الكثير الذي أُلِّف شعراً ونثراً حول « النِّعال النَّبويّة » .[٢]

ولهذا فقد أنكر بعض العلماء تلك الاحتفالات بالمولد النَّبويِّ ، وبما شاع بين العامَّة من الاحتفال بموالد الأولياء والصَّالحين ، واعتبروا ذلك من البِدَع الضَّارَّة ، وكان ممَّن نادوا بذلك النَّكير قديماً ابن تَيْمِيَّة ، ثم عاد إلى محاربة بدعة الموالد في العصر الحديث الإمام محمد بن عبد الوهَّاب (ت ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م) صاحب الدَّعوة السَّلَفِيَّة ، وقد أثارها حرباً على كلِّ هذه المظاهر التي عَدَّها لوناً من ألوان الشِّرْك ، وأخذ برأيه بعض روّاد الإصلاح الدِّينيِّ المُحدثين ، وإن كان ذلك على نحو أقلَّ عنفاً ، مثل الإمام مُحمَّد عَبْده ، الذي كان يتمنَّى أن يُنْفَق على تعليم الفقراء ما يصرَف على احتفالات المولد النَّبويِّ وموالد الأولياء .[٣] ومع ذلك فقد استقرَّت هذه الاحتفالات وأصبحت لها تقاليدُ مَرْعِيَّة في معظم البلاد الإسلاميَّة ، ولم يعد هناك سبيل

---

(١) لابن خَلْدون في مقدمته (ص ٥٧٨) حُكْم على شعر المديح النبوي الذي كان شائعاً في عصره يقول فيه : « كان الشعر في الرَّبّانِيّات والنَّبويّات قليل الإجادة في الغالب ، ولا تَحْذِق فيه إلا الفحول ... لأن معانيها متداوَلة بين الجمهور فتصير مبتذَلة لذلك .» وهو حكم نعتقد أنه صحيح تماماً .

(٢) انظر على سبيل المثال أزهار الرياض للمقَّري ، ج ٣ ، ص ٢٢٤–٢٨٢ .

(٣) انظر زعماء الإصلاح لأحمد أمين ، ص ١٤ ، ٢٤ .

لإلغائها ؛ لِما تأصَّل في نفوس جماهير المسلمين من حُبِّها والإقبال عليها ، واعتبارِها مظهراً محبّباً من مظاهر التّديُّن الخالص .

البَديعِيّات :

ونأتي في النِّهاية إلى فنٍّ متفرِّع من هذه الشَّجرة الوارِفَة : شجرة المدائح النَّبويَّة ، وهو فنٌّ يُوَظِّفُ المديح النَّبويَّ لخدمة عِلْم من علوم العربيَّة ، هو علم البَديع .

وأوّل من ألّف في هذا الفنّ هو علي بن عثمان الإرْبِليّ (ت ٦٧٠) ، وهو شاعر مصريّ نظَم قصيدة لامِيَّة جعل في كلّ بيت منها لوناً من ألوان البديع ، غير أنها لا تُعَدُّ مِمّا نحن بصدَده ؛ إذ إنها ليست في المديح النَّبويِّ.(١)

فالبداية الحقيقيَّة لهذا الفنّ هي قصيدة صَفِيِّ الدين الحِلِّي (ت ٧٥٠) التي عارض بها البوصيري ، وتقع في ١٤٥ بيتاً ، في كلّ منها مُحَسِّن أو أكثر من مُحَسِّنات البديع ، ومطلع هذه القصيدة :(٢)

إنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلْ عَنْ جِيرَةِ العَلَم   واقْرَ السَّلامَ على عُرْبٍ بذِي سَلَم

وقد قَدَّم لقصيدته بكلمة يقول فيها إنه رأى رسالةً في منامه من النَّبيِّ ﷺ يتقاضاه المدحَ ويَعِدُه الشِّفاءَ من مرض ألَمَّ به ؛ فعزم على تأليف هذه القصيدة جامِعًا فيها أشتاتَ البديع ، وسمّاها « الكافِيَة البديعيَّة في المدائح النَّبويَّة » . ويقول الحِلِّي في تقديم القصيدة مفتخِراً بعمله : « وألزمتُ نفسي في نظمها عدمَ التَّكَلُّف وترك التَّعسُّف ، والجري على ما أخذتُ به نفسي من رِقَّةِ اللَّفظ وسهولته وقوَّة المعنى وصحَّته .»(٣)

على أننا حينما نتأمَّل القصيدة يتبيَّن لنا أن الصَّفيَّ الحِلِّي كان مُسْرِفًا في

---

(١) انظر ترجمة له ومقتطفات من قصيدته ، في فوات الوَفَيات لابن شاكر الكُتُبي ، ج ٣ ، ص ٣٩-٤٢ .

(٢) ديوان صفي الدين الحِلِّي ، ط النجف ١٩٥٦ ، ص ٤٧٤-٤٨٨ .

(٣) الديوان ، ص ٤٧٥ .

الإعجاب بنفسه ؛ فهي لا تخلو من التّكلّف واعتساف القوافي ، وإن كانت بوجهٍ عامّ من المدائح الجيّدة ، لا سيّما إذا قدّرنا أن الشّعر في هذا العصر كان يتّسم بقدر غير قليل من الضّعف والرّكاكة والإغراق في الزّخارف اللّفظيّة .

وفي هذه القصيدة يقول الشّاعر(١) :

هُوَ النَّبِيُّ الذي آياتُهُ ظَهَرَتْ
مِنْ قَبْلِ مَظْهَرِهِ لِلنَّاس في القِدَم
مُحَمَّدٌ المُصطفَى المُختارُ مَنْ خُتِمَتْ
بمَجْدِهِ مُرْسَلو الرَّحمن لِلأُمَم
بِهِ استغاثَ خليلُ اللّهِ حِينَ دَعَا
رَبَّ العبادِ فَنَالَ البَرْدَ في الضَّرَم
كَذاكَ يُونُسُ ناجَى رَبَّهُ فَنَجا
من بَطْنِ نُونٍ له في اليَمِّ مُلْتَقِم
صَلَّى عَلَيْهِ إلَهُ العَرْش ما طَلَعَتْ
شَمْسٌ وما لاحَ نَجْمٌ في دُجَى الظُّلَم(٢)

وقد ساق الصّفِيّ هذه الأبياتَ الخمسة شواهدَ على خمسة ألوان من البديع، وهي على التّوالي : التّهذيب والتّأديب ، والتّقييد بحرف الميم (أي أن تكون الميم في كلّ كلمة من كلمات البيت) ، والتّمكين ، والتّسهيم ، والتّفصيل .

وتتوالى البديعيّات بعد ذلك خلال القرون التّالية ، وهي قصائدُ ذاتُ طابَع تعليميّ ، وإنما يأتي المديح النّبويّ فيها عارِضاً بهدف التّبرُّك ؛ ولهذا فلن نوليها اهتماماً كبيراً .(٣) غيرَ أننا سنتوقّف قليلاً عند أشهر مؤلّفي هذا اللّون من

(١) الديوان ، ص ٤٨٥ .   (٢) خليل الله إبراهيم ؛ والضّرَم : النّار ، والنّون : الحوت .

(٣) يمكن تتبّع هذه البديعيات في الفصل الذي أفرده لها الدكتور شوقي ضيف في كتاب « البلاغة : تطور وتاريخ » ، ص ٣٥٨-٣٦٧ .

القصائد ، لا من أجل هذا السَّبب فحسبُ ؛ بل لأنه مِمَّن أفردوا للمديح النّبويِّ ديوانًا كاملاً .

الشّاعر الذي نعنيه هو شمس الدين محمَّد بن أحمد المعروف بابن جابر ، وهو أندلسيٌّ وُلد في مدينة المرية سنة ٦٩٨ ، وفقد بصره صغيراً ، غير أن ذلك لم يمنعه من الإكباب على الدِّراسة والقراءة على شيوخ عصره ، ثم خرج مع صاحبه ورفيق عمره أبي جعفر الرُّعَيْنيّ للحَجّ في سنة ٧٣٨ ، وبعد الحجّ استقرّ الرَّجلان في بلاد الشّام ، واستوطن ابن جابر مدينة إلْبيرَة على نهر الفُرات حتى وفاته سنة ٧٨٠ .(١)

أما بديعيّته التي عُرِفت في تاريخ البلاغة باسم « بديعِيَّة العِمْيان » ، فهي التي سمّاها « الحُلّة السِّيَرَا في مَدْح خير الوَرَى » ، وهي إحدى قصائد ديوانٍ كامل أفرده للمديح النّبويّ ، بعنوان « العِقْدَيْن في مَدْح سَيِّد الكَوْنَيْن » ، الذي مازال مخطوطًا حتى اليوم .(٢)

ومطلعُ هذه القصيدة :

بِطَيْبَةَ انْزِلْ وَيمِّمْ سَيِّدَ الأمَمِ وانْشُرْ لَهُ المَدْحَ وانْثُرْ طَيِّبَ الكَلِمِ

وتقع في ١٧٧ بيتًا ، ويقول ابن جابر في تقديمها « إنها مشتملة على فنّي البديع اللّفظيّ والمعنويّ » ، وقد أحصى في هذه القصيدة ستّين نوعًا من أنواع البديع ، وقام بشرحها صاحبه أبو جعفر الإلْبيري ، في كتابٍ سمّاه « طِراز الحُلّة وشِفاء الغُلّة » . وهي تبدو لنا أقلّ البديعيّات تكلّفًا ؛ فهو لم يُسْرِف في تفريع أنواع البديع ، كما فعل صَفِيّ الدّين الحِلّي قبله وابن حِجّة الحَمَوِيّ

---

(١) في ترجمة ابن جابر انظر الوافي بالوَفَيات للصَّفَدي ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ونَفْح الطِّيب ، ج ٢ ، ص ٦٥٧-٦٦٤ ، ج ٧ ، ص ٣٠٢-٣٠٥ ، والدُّرَر الكامِنة لابن حَجَر ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ .

(٢) قام بتحقيق هذا الديوان المخطوط ودراسته الباحث المغربي الغشري عيسى في رسالة مقدَّمة لنيل درجة الماجستير في جامعة القاهرة بإشراف كاتب هذه السُّطور .

وغيرُه بعده ؛ إذ كان هَمُّ هؤلاء استنباطَ أنواعٍ جديدة من البديع ، والتّفاخرَ بالاستكثار منها .

ومن الواضح أن الهدف المزْدَوِج من هذه البديعيّات ؛ وهو المديح النّبويُّ فى قالَب تعليميّ بلاغيّ قد جعلها أشبه بمنظومات العلوم بما فيها من تكلُّف ؛ ولهذا فإن القارئ لا يكاد يهتزُّ لها ، ولا يكاد يرى فيها قيمة فنّيّة .

وتبدأ القصيدة – مثل سائر قصائد الدّيوان – بمقدّمة يصوِّر الشّاعر فيها شوقَه لزيارة الأماكن المقدَّسة ، ويمضي الشّاعر مباشرةً إلى مديح الرّسول ؛ فيتحدَّث عن شمائله ، ويذكر فضله على سائر الأنبياء ، ويتتبّع ما نُسِب إليه من معجزات ويتحدَّث عن غزواته ، ثم يتحدّث عن فضائل صحابته ، ويُنهي القصيدة بطلب الشّفاعة والتّوسُّل بجاهِ النّبيِّ ﷺ لغفران ذنوبه .

ومن أجود أبيات القصيدة قولُه مشيراً إلى خبر الإسراء والمعراج ، مستخدِماً ألفاظَ القرآن الكريم ، ومُضَمِّناً ألفاظَ بعض الأحاديث الشّريفة :

ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى حتى دَنَا فَرَأى ... وقيل : سَلْ تُعْطَ قد خُيِّرْتَ فاحْتَكِمِ
وكان آدَمُ إذْ كانَتْ نبوَّتُه ... ما بَيْنَ ماءٍ وطِين غَيْرَ مُلْتَئِمِ
قد أقْسَمَ اللّهُ في الذِّكْرِ الحكيم بِهِ ... فقالَ : والنَّجْم ، هذا أوْفَرُ القَسَمِ
ما بَيْنَ مِنْبَرِهِ السّامِي وحُجْرَتِهِ ... رَوْضٌ من الخُلْدِ ، نَقْلٌ غيرُ مُتَّهَمِ

وأشهر البديعيّات بعد قصيدة ابن جابر هي بديعيَّةُ أبي بكر بن عليّ ، تقِيّ الدِّين المعروف بابن حِجَّة الحَمَويّ (ت ٨٣٧) .[1] وهو أديبٌ قضى حياته بين الشّام ومصرَ ، وعمل كاتباً في ديوان الإنشاء ، ألّفَ عديداً من الكُتب ، أهمّها بغير شكٍّ كتابُ « خزانة الأدب » الذي شرح فيه بديعيّته التي أراد بها

(١) في ترجمة ابن حِجّة انظر السُّلوك لمعرفة دوَل الملوك للمَقْريزي ، الجزء الرابع ، ج ٢ ، ص ٩٢٣ ، والضَّوء اللامع في أعيان القرن التّاسع للسّخاوي ، ج ١١ ، ص ٥٣ .

أن يتفوّق على من نظموا في هذا الفنّ قبله ، كما أنه أراد أن يستَدْرِك على من سبقوه أنواعًا من البديع لم يذكروها ، وقد التزم أن يُوَرِّيَ في كلّ بيتٍ باسم النّوع البديعيّ الذي يأتي بالبيت شاهدًا عليه ، ولا شكّ في أن ذلك حَمَله على كثير من التكلُّف ، ومع ذلك فقد كان مَزْهُوا بعمله ، لا يكُفُّ عن نَقْدِ من سَبَقُوه وإبرازِ تفَوُّقِه عليهم .

والحقيقة أن القصيدة نفسَها ليست في مستوى « بديعية العِمْيان » ، من حيث كونُها في المديح النّبويّ ، غير أن الذي منحها قيمة كبرى في تاريخ الأدب العربيّ ، كان الشّرحَ الذي صنعه لقصيدته وهو كتابُ الخِزانة ، وفي هذا الشّرح يُبَيِّن أنواع البديع التي يُعَدِّدُها ويُكْثِر من الشّواهد الشّعريّة والتّعليقات النّقديّة عليها .

ومطْلَعُ بديعيّةِ ابن حِجّة :

لِي في ابْتِدَا مَدْحِكُم يا عُرْبَ ذِي سَلَم بَرَاعَةٌ تَسْتَهِلُّ الدَّمْعَ في الْعَلَم

وهذا المَطْلع وحدَه يمثّل لنا طريقة ابن حِجّة في قصيدته ، فهو يتحدّث عن براعة الاستهلال في المطالع ، ثم يعمل على شرح المقصود من هذا المصطلَح في الشّرح ، ويمثّل له بأمثلة كثيرة ، إلا أنه يُصِرُّ على أن يُقْحِم في البيت نفسِه المصطلَح البلاغيّ أو ألفاظًا مشتَقّة منه توحي به ، كما فعل هنا حينما قال « براعة تستهلّ » ، غير أن البيت أتى في غاية من التّكلُّف والضّعف ، وهذا من جناية النّاحية التّعليميّة على الشّعر ، والغريب أننا نستشِفُّ من شرح ابن حِجّة جَودَةَ ذوقه في اختيار الشّواهد على ما يورده من ألوان البديع ؛ فالكتابُ من هذه النّاحية مُمْتِعٌ حقا ، ولكن هذا الذّوق خانَهُ في نظمه هو ؛ إذ أتى هذا النّظْم مُهَلْهَلاً ركيكًا ، أقربَ إلى السُّخْف ، ومع ذلك فهو لا يكفُّ عن الإدلال بشعره والتّمَدُّح به ، وادّعاءِ أنّه فاق به كلّ من تقَدّم .

الفصل الرّابع
المدائحُ النّبويّة في العصر الحديث

ليس من الغريب أن تظلّ شخصيّة الرّسول ﷺ ملهمَةً للشّعراء حتى اليوم ، وقد أشرنا إلى الكَثْرَة الغامِرَة للمدائح النّبويّة حتى القرن التّاسع ، ولم نتحدّث إلا عن نماذجَ قليلةٍ ممثّلة لتطوُّر هذا اللّون وما تفرّع منه ، وقد ازداد إقبال الشّعراء على المدائح النّبويّة في العصور التّالية طَوال العصر العثمانيّ ، وهو عصرٌ تراجعت فيه العلومُ ، واتّجه الفِكْر خلالَه إلى الجمود ، ونَضَبَ مَعينُ الابتكار ، فأصبح هَمُّ الأدباء هو تقليدَ مَنْ سبَقهم ، أو معارَضَتَهم ، أو التّعليقَ على آثارهم ؛ ولذلك فقد كثرت خلال هذا العصر ، وحتى النّهضةِ الأخيرة ، المعارَضاتُ والتّشْطيرات والتّخميسات وما إليها ، وكلّها محاولاتٌ تدلُّ على افتقاد الأصالة وجَفاف القرائح ، وقد بقيَت « بُرْدَة » البوصيري هي النّموذجَ الأعلى للمديح النّبويّ ، وظلّ تألّق هذه القصيدة مُثيراً للشّعراء ، حتى بعد الوَثْبَة التي قُدّرت للشّعر العربيّ على يد رُوّاد الإحياء ، وعلى رأسهم محمود سامي البارودي .

البارودي :

ولسنا في حاجة إلى الحديث عن شخصيّة البارودي ، وسيرةِ حياته الـ امتدّت خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسعَ عشَر (تُوفّيَ سنة ١٩٠٤ مـ فقد كُتبَت حوله دراساتٌ كثيرة هو جديرٌ بها ؛ بحُكم ما أجراه من دم جديدة في عروق الشّعر العربيّ الحديث ، بعد أن أنْعَمَ النّظَر في الشّعر القديـ

في عصوره الزّاهِرَة .[١]

وسوف نتوقّف قليلاً عند معارَضةٍ جديدة قام بها البارودي لبُردة البوصيري ، في القصيدة التي سمّاها – على طريقة القدماء – « كَشْف الغُمّة في مَدْح سيِّدِ الأمّة »[٢] وهي مطوّلة تبلغ نحو أربعمائة وخمسين بيتاً من الشّعر . وقد كان البارودي – في محاولته تخليصَ الشّعر مِمّا كان يُثْقِلُه من زخارف البديع اللّفظيّ ، ويَحُفُّ به من الخُواء المعنويّ – يعمد إلى معارَضةِ النّماذج الجيِّدة للشّعر القديم . وقد حفظ ديوانُه لنا معارَضاتٍ للنّابِغة الذّبياني ، وعنترة ، وأبي نُواس ، والبحتري ، والمتنبي ، وأبي فراس الحَمْداني ، والشّريف الرّضي . وكان يُحْسِن اختيار ما يعارضه من شعر ؛ إذ إن القصائد التي عارضها لهؤلاء الشّعراء كانت من عُيون شعرهم ، ويؤكّد ذلك ما اتّسمت به « المختارات » التي انتخَبَها من الشّعر العربيّ من جَوْدة لا شكّ فيها ؛ فالبارودي كان ذوّاقةً للشّعر بصيراً بنقده . ومعارَضتُه لبُرْدة البوصيري تدلّ على اقتناعه بجودة هذه القصيدة ، هذا بالإضافة إلى تديُّنِه العميق ، ولا سيّما في سنواته الأخيرة ، التي قاسى فيها الكثير من آلام المنفى، وفَقْدِ البصر وموتِ بعض أعِزّائه الأحِبّاء إليه.

ومطلعُ هذه القصيدة :

يا رائِدَ البَرْق يَمِّمْ دارَةَ العَلَم ... وَاحْدُ الغَمامَ إلى حَيٍّ بِذِي سَلَم

ونحن نرى في هذا المَطلع التّقليديّ ما عَهِدْناهُ في القصائد النّبويّة من ذِكْر المواضع الحجازيّة ، وإهداءِ التّحيّة إليها مع الرّيح والبَرْق ، على نحو ما كنّا نرى في مطالع الشّريف الرّضي ومِهْيار الدّيْلمي . ثم يمضي الشّاعر في

---

(١) حَوْل البارودي دراسات كثيرة ، يكفي أن نشير منها إلى كتاب الدكتور شوقي ضيف : البارودي رائد الشعر الحديث . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ .

(٢) لم تُدْرَج هذه القصيدة في ديوان البارودي ، وطبعت مستقلة في القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ وهناك دراسة جيِّدة لهذه القصيدة في كتاب الدكتور محمد حامد الحُضيري في كتابه « رسول الإنسانية محمد ﷺ في الأدب العربي الحديث » . القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥٩–٢٧١ .

نَسيبٍ لا يخرج فيه أيضاً عن تلك التّقاليد الشّعريّة القديمة ، وهو يعترف بذلك في سَذاجةٍ بريئة ؛ إذ يقول في آخِرِ القصيدة :

صَدَّرْتُهَا بنَسيبٍ شَفَّ باطِنُهُ ... عن عِفَّةٍ لم يَشِنْهَا قَوْلُ مُتَّهِمِ
لم أتَّخِذْهُ جِزَافًا بل سَلَكْتُ بِهِ ... في القولِ مَسْلَكَ أقوام ذَوِي قَدَم

فالشّاعر يعتذر عن ذلك النّسيب الذي لم يَفرضْه عليه إلا الالتزامُ بالتّقاليد الشّعريّة الموروثة ، وهو يخشى أن يُتّهم بإساءة الأدب ، فيقول إنه كان غزلاً عفيفاً لا مَطْعَنَ فيه عليه . وهذا تحرُّجٌ قضى به تَزَمُّتُ مجتمعنا الحديث ؛ فكعب بن زهير وحسّان بن ثابت قدّما لمديحهما بغزل لم يحتاجا معه إلى مثل هذا الاعتذار .

ونمضي مع قصيدة البارودي فنجد أنه بعد أن تتبّع فيها حياةَ الرّسول منذ المولد ، كما وردت في كتب السّيرة ، يُشير إلى بشائر هذا الميلاد ، على نحو ما فعل سائرُ المادحين النّبويّين ، فيقول مثلاً عن خبر المَلَكَيْن اللذين شَقّا صدْرَ الرّسول ﷺ في طفولته ، وأخرَجا من قلبه العَلَقَة السّوداء رمزاً لتطهير روحه من شوائب الهَوى :

فبَيْنَمَا هُوَ يَرْعَى البَهْمَ طافَ به ... شَخْصانِ من مَلَكُوتِ اللّهِ ذِي العِظَم
فأَضْجَعَاهُ وشَقّا صَدْرَهُ بِيَدٍ ... رَفيقةٍ لم يَبِتْ منها عَلَى أَلَم
وبَعْدَمَا قَضَيا من قَلْبِهِ وَطَرًا ... تَوَلّيا غَسْلَهُ بالسَّلْسَلِ الشَّبِمِ
ما عَالَجَا قَلْبَهُ إلا لِيَخْلُصَ مِنْ ... شَوْبِ الْهَوَى ويَعِي قُدْسِيَّةَ الحِكَمِ (١)

ولا يختلف البارودي عن المادحين السّابقين في تَعْداده لِتلك المعجزات ؛ فهو يتحدَّث عن نبوءَةِ بَحيرا بما ينتظره من الرِّسالة ، بعدما رأى الغَمامة تظلّله والشّجرَ يَحْنو بأغصانه عليه :

---

(١) السَّلْسَل الشَّبِم : الماء العَذْب البارد ، شَوْب الهوى : مُخالَطته ومُقارفَتُهُ .

وقالَ عنه بَحيرا حِينَ أبْصَرَهُ ... بأرْض بُصْرَى مَقالاً غَيْرَ مُتَّهَم
إذْ ظَلّلَتْهُ الغَمَامُ الغُرُّ وانْهَصَرَتْ ... عَطْفاً عليه فُروعُ الضّالِ والسَّلَم(١)

ويتابِع البارودي حياة الرّسول متابَعةً تاريخيّة دقيقة ؛ فيتحدّث عن خبر الإسراء والمِعْراج ثم الهجرةِ إلى المدينة ، ولا يفوته ذِكْرُ معجزةِ الغار والحَمام المُعَشّش على بابه ، ثم بلوغِه يثربَ في أمان وبنائه للمسجد الذي أصبح نَواةً للجماعة الإسلاميّة الجديدة ؛ بعد المؤاخاة بين الأنصار والمهاجِرين . وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن غزَوات الرّسول وسَراياهُ ، فيتَتَبّعها واحدةً واحدة ، مُلتزِماً بترتيبها التاريخيّ ، وهو في كلّ ذلك لا يختلف عن المادحين السّابقين ، غيرَ أن وصْفَه لمشاهد القتال – وهو موضوعٌ محبّب لدى البارودي الذي كان رجُلَ سيفٍ وقلَم في الوقت نفسه – يتميّز بالتّوهّج والقوّة :

فكانَ يَوْماً عَتيدَ البَأس نالَ بهِ ... كِلا الفَرِيقَيْن جُهْداً وارِيَ الْحَدَم
قامَ النّبيُّ بهِ في مَأزِقٍ حَرِج ... تَرْعَى المَناصِلُ فيهِ مَنْبِتَ الجُمَم
فلم يَزَلْ صابِراً في الحَرب يَفْثَؤُها ... بالبِيض حَتّى اكْتَسَتْ ثَوْباً من العَنَم(٢)

ويتّضح طابَع السَّرْد التّاريخيّ في حديثه عن هذه الغَزَوات ، حينما يختم هذا الحديث بقوله :

فَهَذِهِ الغَزَواتُ الغُرُّ شامِلَةً ... جَمْعَ البُعُوثِ كَدُرٍّ لاحَ في نَظَم
نَظَمْتُها راجياً نَيْلَ الشّفَاعَةِ من ... خَيْرِ البَرايا ومَوْلَى العُرْبِ والعَجَم

ويتحدّث بعد ذلك عن فتح مكّةَ وانْثيال الوفود على الرّسول ﷺ من سائر أنحاء الجزيرة ، وكان بذلك انتصارُ الإسلام الأخير وتَمام الرّسالة . ويختم

---

(١) انهَصَرت : عطفت ومالَتْ ، والضّال والسَّلَمُ : نوعان من الشجر .

(٢) الحَدَم : التهاب النّار ، و المناصِلُ : جمع مُنْصُل وهو السّيْف ، والجُمَمُ : جمع جُمّة وهي مُجْتَمع الشعر ، ومنبِتُ الجُمَم يعني الرّقاب ، والبيضُ : السيوف ، والعَنَم : صِبْغ أحمر يشبّه به الدّم .

البارودي القصيدة كما فعل المادحون السّابقون ، معترفًا بذنوبه ، معبّرًا عن ندمه ورجائه في المغفرة بجاهِ رسول الله ﷺ وشفاعته .

وهكذا نرى قصيدة البارودي لا تكادُ تختلف في شيءٍ عن سائر المدائح النّبويّة في مضمونها ومُحْتواها ، إلا أنّها تتميّز عليها بطولها الذي سمح للشّاعر باستقصاء الأحداث على نحوٍ أكثرَ تفصيلاً ، ثم بِبُعْدها عن التّكلّفِ أو الغَرام بالزّخارفِ البديعيّة ، مِمّا رأيناه في معظم المدائح النّبويّة ، ولا سيّما تلك التي حشاها أصحابُها بألوان البديع ، وأخيرًا لا تخلو قصيدة البارودي من استِرْسالاتٍ غِنائِيّة نُحسُّ فيها بحرارة الإيمان وصِدق التّعبير .

أحمد شوقي :

ونصلُ إلى أشهر معارَضَةٍ للبردة في العصر الحديث ، وهي « نَهْجُ البُرْدة » لأمير الشّعراء أحمد شوقي (المُتَوَفّى سنة ١٩٣٢) .[١] والحقيقةُ أن هذه القصيدة ليست هي الوحيدةَ التي نَظَمها شوقي في المديح النّبويّ ؛ إذ إن له إلى جوارها هَمْزِيّتَهُ النّبويّة المشهورة ، وقصيدتين في ذِكْرى المولد النّبويّ ؛ وأرْجوزَةً في السِّيرة النّبويّة مُدْرَجةً في ديوانه « دُول العرب وعُظماء الإسلام » ، هذا فضلاً عمّا ورد عن الرّسول ﷺ في عُرْضِ قصائده الأخرى ، وهي إشاراتٌ ليست قليلة . ولا يتّسع المجالُ لدراسة ما أداره شوقي من شعر حول شخصيّة الرّسول ﷺ [٢] ؛ ولهذا سنكتفي بأشهر قصائده النّبويّة .

وتقف « نَهْج البُرْدة » على رأس هذه القصائد ، وهي أطْولُها أيضًا ؛ إذ تبلغ مائةً وتسعين بيتًا .

---

(١) الدراسات حول شوقي أكثر من أن تُحصى ، ويكفي أن نشير إلى أهمها وأحدثها : وهي كتاب الدكتور شوقي ضيف « شوقي شاعر العصر الحديث » ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٣ ، ودراسة الدكتور طه وادي « شعر شوقي الغنائي والمسرحي » ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨١ ، ودراسة الأستاذ عرفان شهيد « العودة إلى شوقي ، أو بعد خمسين عامًا » ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) هناك دراسة للدكتور أحمد الحوفي حول « الإسلام في شعر شوقي » ، القاهرة ١٩٦٢ .

وتبدأ القصيدة بمقدّمة غَزَلِيَّة ، من الواضح أن الشّاعر لم يأتِ بها إلا تقليداً للشُّعراء السّابقين ، وأعتقد أن هذه المِدْحَةَ للرّسول كانت في غِنًى عن هذه المُقَدِّمة ، التي بلغت أربعةً وعشرين بيتاً ، مُنْقَطِعَةِ السَّبب بما بعدها ، حتى وإن قال في نهايتها إنَّ عِفَّته العُذْرِيَّة تقف حِجاباً بينه وبين تلك المحبوبةِ الخيالِيَّة ، وهذا ضَرْبٌ من الاعتذار يُشبه ما قاله البارودي أيضاً عن النّسيب الذي افتتح به مِدْحَتَهُ .

وينتقل الشّاعر بعد ذلك إلى مخاطبة نفسِه واعظًا إياها ، ومُبدياً النَّدَمَ على ما فَرَطَ من ذنوبه ، وهو يختم هذا الجزء بأبياتٍ سارت مَسارَ الأمثال حول التحكُّم في الشّهوات ، وكبح جماحِها ، ويبدو هنا متأثّراً بأبيات البوصيري في ذلك ، وإن كانت أبياتُ شوقي لا تقلُّ عنها جمالاً :

صَلاحُ أمْرِكَ لِلأخْلاق مَرْجِعُهُ ... فَقَوِّم النَّفْسَ بالأخْلاقِ تَسْتَقِم
والنَّفْسُ مِن خَيْرِها في خَيْرِ عافيةٍ ... والنَّفْسُ من شَرِّها في مَرْتَع وَخِم
تَطْغَى إذا مُكِّنَتْ من لَذَّةٍ وَهَوًى ... طَغْيَ الجِيادِ إذَا عَضَّتْ على الشُّكُم[١]

ويصلُ إلى موضوعه الرَّئيسيِّ بعد اثنين وأربعين بيتاً ، ولكنه يُقحم بعد ذلك بيتاً لا نحسبه موفّقاً فيه ، يصف فيه نفسَهُ بأنه أشعرُ من زهير بن أبي سُلمى وأجودُ من هَرِم مَمدوح زهير . ثم يَشرع في وصف الرّسول بما رأيناه من قبلُ في شعر المديح المتأثّر بأفكار الصُّوفيّة ، حول الحقيقة المحمديّة ؛ فالرّسول ﷺ هو غايةُ الله من خلقه ، وهو صاحبُ الحوض يومَ القيامة ، على حين يقف الرُّسل حائرين لا يعرفون متى يكون الورودُ ، وجبريلُ نفسُه ظمآن ، ولا غَرْوَ فالأنبياءُ جميعاً إنّما ينتسبون إليه ، وإن كانوا أسبقَ وجوداً ماديًا منه ، ذلك لأنه النُّور الذي انبثقوا منه :

---

(١) مَرْتَع : مَرْعى ، وَخِم : رديء وبيء ، الشُّكُم جمع شكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس .

مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ البَارِي وَرَحْمَتُهُ وبُغْيَةُ اللّهِ من خَلْقٍ ومِنْ نَسَمِ
وصاحِبُ الحَوْضِ يَوْمَ الرُّسْلُ سَائِلَةٌ مَتَى الوُرُودُ ؟ وجِبْرِيلُ الأَمِينُ ظَمِي
نُمُوا إِلَيْهِ فزادُوا في الوَرَى شَرَفًا وَرُبَّ أَصْلٍ لِفَرْعٍ في الفَخَارِ نُمِي
حَوَاهُ في سُبُحَاتِ الطُّهْرِ قَبْلَهُمُ نُورَانِ قامَا مَقَامَ الصُّلْبِ وَالرَّحِمِ

وفي هذه الأبيات نفحةٌ صوفيّة واضحة ومبالَغاتٌ لا نظنُّ شاعراً قبل شوقي جَرُؤ على قولها . ويقصُّ علينا الشّاعر بعد ذلك بعضَ ما يُذكر من معجزات الرّسول ، منها خبرُ بَحيرا المعروف ، وتفجُّر الماء من بين أصابعه ، وتظليلُ الغمامة له ، وله في هذه المعجزة تعبيرٌ رائع ، إذ يقول إن الغمامة التي ظلّلته إنّما كانت تستظلُّ به :

وظلَّلَتْهُ فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ غمامَةٌ جَذَبَتْهَا خِيرَةُ الدِّيَمِ

ويعبّر بعد ذلك عن نزول الوَحْي عليه ، وأوّل آيةٍ نزلت من آيِ القرآن ، في بيتين من أروع ما في القصيدة :

ونُودِيَ اقْرَأْ تَعَالَى اللّهُ قائِلُها لم تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قيلَتْ لَهُ بِفَمِ
هناكَ أَذَّنَ لِلرَّحْمَنِ فامْتَلأَتْ أَسْماعُ مَكَّةَ من قُدْسِيَّةِ النَّغَمِ

ويصلُ شوقي ذلك بالحديث عن معجزةِ القرآن الخالدة المتجدِّدة ، على حين أن سائر معجزات الأنبياء قد انقضت بانصرام أيّامهم :

جاءَ النَّبِيُّونَ بالآياتِ فانْصَرَمَتْ وجِئْتَنَا بحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آياتُهُ كُلَّمَا طالَ الْمَدَى جُدُدٌ يَزِينُهُنَّ جَلالُ العِتْقِ والقِدَمِ

أمّا حديثُ شوقي عن بشائر المولد فهو يكتفي فيه بإشارةٍ سريعة إلى تصدُّع إيوان كسرى ، ويَستعيضُ عن ذكر المعجزات بالحديث عمّا أطبَق على العالَم من ظُلم وطُغيان في مملكتي الفرس والرُّوم . ثم يُفرد بعد ذلك أبياتاً حول خبر

الإسراء والمعراج ، وهي من أجمل أبياتِ القصيدة ، إذ نُحسُّ فيها بِتَسام رُوحيّ يتّفقُ مع جلال الحدَث :

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلاً إِذْ مَلائِكُهُ وَالرُّسْلُ في المَسْجِدِ الأَقْصَى على قَدَم
لَمّا خَطَرْتَ بِهِ الْتَفُّوا بسيِّدِهِمْ كالشُّهْبِ بالبَدْرِ أَوْ كالجُنْدِ بالْعَلَم
صَلّى وَرَاءَكَ منهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ ومَنْ يَفُزْ بحبيبِ اللّهِ يَأْتَمِم
جُبْتَ السَّمٰوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بهمْ على مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجُم
حتى بَلَغْتَ سَمَاءً لا يُطارُ لَها على جَنَاح ولا يُسْعَى على قَدَم
وقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ ويا مُحَمَّدُ هَذا الْعَرْشُ فاسْتَلِم
خَطَطْتَ لِلدِّين والدُّنْيا عُلُومَهُمَا يا قارِئَ اللَّوْح بل يا لامِسَ الْقَلَم
أَحَطْتَ بَيْنَهُمَا بالسِّرِّ وانْكَشَفَتْ لَكَ الخزائِنُ من عِلْم ومِنْ حِكَم(١)

ويعودُ إلى ذكر بعض معجزات الرّسول ولكنْ في إيجازٍ سريع ، ثم يُناجي الرّسول ﷺ مُثنياً على بُردة البوصيري ومتواضعاً أمامه ، إذ إنه يُقرُّ بعجزه عن معارضته ، ثم يعودُ للمديح فيُشيد بشمائل الرّسول من حُسنٍ وشرفٍ وكرم ورفعة وشجاعة وزُهد في الدُّنيا ، ويعقد مقارنةً طريفة بينه وبين عيسى عليه السّلامُ ؛ فيقول :

أَخوكَ عِيسى دَعَا مَيْتًا فقامَ لَهُ وأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجْيالاً مِنَ الرِّمَم
والجَهْلُ مَوْتٌ فإنْ أوتِيتَ مُعْجِزَةً فابْعَثْ مِنَ الجَهْلِ أَوْ فابْعَثْ مِنَ الرُّجُم(٢)

ويَنتدبُ شوقي بعد ذلك للدِّفاع عن الإسلام إزاءَ من تهجَّموا عليه من مُبغِضيه من المستشرقين ، وما يتردَّد على ألسنتهم من أن الإسلام دينُ حربٍ ،

---

(١) المنوّرة الدُّريّة اللُّجُم : يقصد بها البُراق ، خططت علوم الدين والدنيا : يعني تعليمها للناس ، وقراءة اللّوح ولمس القلم : كناية عن إطّلاع الله تعالى له على علوم الغيب .

(٢) الرُّجم : الحجارة تُنصب حول القبر ، ويقصد القبور نفسها .

وأن انتشاره إنّما كان بالسّيف ، فيردُّ هذه التُّهَمَ بحُجَج ناصعة ؛ فالإسلامُ لم يستخدم السّيف إلا بعد أن استنفد وسائل الدّعوة بالكلمة ، وحينئذٍ لا يكون هناك مفرٌّ من اللجوء إلى القوّة ، وهو يُشير إلى ما لقيهُ المسيحيُّون الأوائل من الاضطهاد الذي لم يُحْسَم إلا بالدِّفاع المشروع عن النّفس ، ويدافعُ عن مبدأ الجهاد الإسلاميّ الذي التزمَ بقواعدَ خُلقيّةٍ تُرعَى فيها الذِّمَم والمواثيق :

قالُوا غَزَوْتَ ورُسْلُ اللّهِ ما بُعِثُوا لِقَتْلِ نَفْسٍ ولا جَاءُوا لِسَفْكِ دَم
جَهْلٌ وتَضْلِيلُ أحْلام وسَفسَطَةٌ فَتَحْتَ بالسَّيفِ بَعْدَ الفَتْح بالقَلَم
والشَّرُّ إنْ تَلْقَهُ بالخَيْرِ ضِقْتَ به ذَرْعًا ، وإن تَلْقَهُ بالشَّرِّ يَنْحَسِم
سَل المَسيحيَّةَ الغَرَّاءَ كَمْ شَرِبَتْ بالصَّابِ من شَهَوَاتِ الظَّالِم الغَلِم
لَوْلا حُمَاةٌ لها هَبُّوا لِنُصْرَتِها بالسَّيْفِ ما انْتَفَعَتْ بالرِّفْقِ والرُّحَم

....

عَلَّمْتَهُمْ كُلَّ شيءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ حتَّى القِتالَ وما فِيهِ منَ الذِّمَم [1]

وفي حديثٍ طويل يُشيد شوقي بشريعة الإسلام ، وما بَنَتْهُ من حضارة قائمةٍ على العدل والعلم والتّسامح ، ويقارن بين حضارة الإسلام وحضاراتِ الأمم القديمة من فُرس ويونان ومصريّين ورومان ؛ فيقول إنّها فاقت كلَّ تلك الحضاراتِ بفضل مبادئ الإسلام ، وتعاليمِهِ القائمة على التّوحيد :

شريعَةٌ لكَ فَجَّرْتَ العُقولَ بها عنْ زاخِرٍ بِصنُوفِ العِلْم مُلْتَطِم
يَلُوح حَوْلَ سَنَا التَّوحيدِ جَوْهَرُها كالحَلْي لِلسَّيْفِ أوْكالوَشْي لِلْعَلَم
نُورُ السَّبيل يُسَاسُ العالمونَ بها تَكَفَّلَتْ بشبابِ الدَّهْرِ وَالْهَرَم
لَمَّا اعْتَلَتْ دَوْلَةُ الإسلام واتَّسَعَتْ مَشَتْ مَمَالِكُهُ في نُورِها التَّمِم

(١) الصَّاب : شجر شديد المرارة ، والغَلِم : الهائج الثائر ، والرُّحَم : الرِّفق والمغفرة ، الذِّمَم : العهود والمواثيق .

وعَلّمَتْ أُمّةً بالقَفْرِ نازِلَةً رَعْيَ القياصِرِ بَعْدَ الشّاءِ والنَّعَم
كم شَيَّدَ المُصْلِحُونَ العَامِلُونَ بها في الشّرقِ والغربِ مُلْكًا باذِخَ العِظَم
لِلْعِلْم والعَدْلِ والتَّمْدِين ما عَزَمُوا من الأمورِ وما شَدُّوا مِنَ الحُزُم

....

دارُ الشّرائع روما كُلّما ذُكِرَتْ دارُ السَّلام لها أَلْقَتْ يَدَ السَّلَم(١)

ويفتخر الشّاعرُ بخُلَفاء الإسلام فيذكر بعضَهم بغير ترتيب ؛ يذكر هارون الرّشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، ثم الخُلَفاء الرّاشِدين وما اتّسم به كلٌّ منهم ، ويُنهي القصيدة بالصّلاة والسّلام على رسول الله ، وعلى آله وصَحابته :

يا رَبِّ صَلِّ وسَلِّمْ ما أَرَدْتَ على نَزِيل عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسْل كُلِّهِم
وصَلِّ رَبِّ على آلٍ لَهُ نُخَبٍ جَعَلْتَ فيهِمْ لِواءَ البَيْتِ والحَرَم
وأَهْدِ خَيْرَ صَلاةٍ مِنْكَ أربَعَةً في الصَّحْبِ صُحْبَتُهُمْ مَرْعِيَّةُ الحُرَم

وفي خشوع يرفع الشّاعر ابتهالاً إلى الله لا يطلب فيه لنفسه شيئًا ، وإنّما يطلب لأمّته من المسلمين ، فيتحدّث عن الواقع السّيّئ المتخلّف الذي يعيش فيه مسلمو اليوم ، على حين تسير أممٌ أخرى كثيرةٌ نحو التّقدُّم ، وإذا كان هذا هو قضاءَ الله الذي يُداوِل الأيّامَ بين النّاس ؛ فلا مَفَرَّ من الرِّضا به ، غيرَ أنه يطلب اللُّطف في هذا القضاء ، وأن يرحمَ المسلمين بجاه نبيِّه الكريم :

يارَبِّ هَبَّتْ شعوبٌ من مَنِيَّتِها واسْتَيْقَظَتْ أُمَمٌ من رَقْدَةِ العَدَم
سَعْدٌ ونَحْسٌ ومُلْكٌ أَنْتَ مالِكُهُ تُديلُ من نِعَم فيه ومن نِقَم
رَأى قَضَاؤُكَ فينا رَأْيَ حِكْمَتِهِ أَكْرِمْ بوَجْهِكَ من قاضٍ ومُنْتَقِم

---

(١) التّمِيم : التّامّ الكامل ، شباب الدهر وهرمه : أوّل الزّمان وآخره ، النّعَم : الماشية ، الحُزُم : جمع حِزام ، أَلقتْ يد السَّلَم : سلمت لها واعترفت بفضلها ، ودار السّلام : بغداد .

فالْطُفْ لأَجْلِ رَسولِ العالَمينَ بِنا ولا تَزِدْ قَوْمَهُ خَسْفاً ولا تَسُم
يارَبِّ أَحْسَنْتَ بَدْءَ المسلمينَ بِهِ فَتَمِّم الفَضْلَ وامْنَحْ حُسْنَ مُخْتَتَم

هذه هي « نهج البُردة » التي نرى أن شوقي كان موفّقاً فيها كلّ التّوفيق ، فهي ليست معارضةً تقليديّة للبُردة مما عهدناهُ من قبلُ ، إنّما هي نظرةٌ متأمّلة لشخصيّة الرّسول ﷺ ومكانهِ من التّاريخ ، باعتباره مَبْعوثاً مُبلّغاً لرسالة السّماء ، وباعتباره قائداً وإنساناً ، ثم نرى فيها عَرْضاً لشريعة الإسلام وقِيَمِه ، وتقويماً لحضارته ودفاعاً عنه إزاءَ مُهاجِميه ، وتصويراً لواقع الأمّة الإسلاميّة ، هذا .. بينما يوجز الحديثَ عما اعتاد المادحون السّابقون الإطنابَ فيه من ذكر المعجزات والخوارق ، فكأنّ الشّاعر يُواكب ما أصاب مجتمعَنا الحديث من تغيُّر ؛ إذ إنه يخاطب العقولَ المثقّفة التي لم تعُدْ تستهويها خوارقُ نواميس الطّبيعة ، ولهذا فإنه يُفرد مساحة واسعة للحديث عن القرآن الكريم ؛ معجزةِ الإسلام الخالدة المتجدِّدة . والقصيدةُ مع ذلك تتّسم بروحانيّة متسامية ، تقترب بالشّاعر من عالَم الصّوفيّة ، وإن لم يكن هو متصوِّفاً ، كما نُحسُّ في كثيرٍ من أبياتها بحرارة الإيمان وصِدق المشاعر .

خاتمة

وبعدُ .. فهذه سياحةٌ قمنا بها في عالَم المدائح النَّبويَّة ، التي بدأتْ في حياة رسول الإسلام محمد ﷺ ، في أوائل القرن السَّابع الميلاديّ حتى أميرِ شعراء العربيَّة في القرن العشرين أحمد شوقي (المتوفَّى سنة ١٩٣٢) ؛ أي على مدى ثلاثةَ عشرَ قرنًا ، ولم تنقطع هذه المدائحُ بعد أحمد شوقي ، بل قد استمرَّت بعده وخصَّص لها بعضُ شعرائنا المعاصرين دواوينَ كاملةً ، نذكر منهم أحمد محرم (١٨٧٧–١٩٤٥) الذي نظم السِّيرةَ النَّبويَّة في ديوانٍ ضخم هو « مجد الإسلام » أو « الإلياذة الإسلاميَّة » ، وقد قسَّمه الشَّاعر إلى أربعة أقسام ، فأفرد الأقسامَ الثَّلاثة الأولى للحديث عن عصر الرَّسول ﷺ ، وما ساده من فساد ، ثم تتبَّع حياته (عليه السلام) منذ مولده ، وتحدَّث عن مراحل دعوة الإسلام حتى انتصارِها الأخير بفتح مكة ، أما القسمُ الرَّابع والأخير فقد اختصَّ به سرايا الرَّسول ، وكلٌّ قسم من هذه الأقسام يضمُّ مجموعةً من القصائد التي نَوَّع أوزانَها وقوافيها ، غيرَ أنها تمثِّل وحدةً متماسكة تَتبعُ فيها سيرةَ الرَّسول حَسْبما وردت في كُتُب السِّيرة ، ولا سيَّما كتابِ ابن هشام ، فهو يساير هذه السِّيرة في ترتيب الأحداث الزَّمنيّ ، ومع أن ذلك طَبَعَ عَملَ أحمد محرم بطابَع تعليميّ ، فإن شعره في جزالته وجودة تعبيره وصَقْل أسلوبه يسمو على ما رأيناه من قبل ، من ألوان النَّظْم التَّعليميّ الخالي من القِيَم الفنِّيَّة ، بل نرى في بعض قصائده مزيجًا من الغنائيَّة والقصصيَّة ، ولا سيَّما حينما يصوِّر المواقفَ البطوليَّة للرَّسول .

والظَّاهرةُ التي تَلْفتُ النَّظر في مجتمعنا الحديث هي تزايدُ الاهتمام بشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ولاسيَّما بين رُوّاد نهضتنا الثَّقافيَّة والأدبيَّة ، التي سطعت

أنوارُها منذ مَطلع القرن العشرين ، حتى أولئك الذين تأثّروا بالثّقافة الأوربيّة تأثّراً واضحاً ، وكانوا من دُعاة التّجديد الشّامل في ميادين الاجتماع والسّياسة والثّقافة ، إذا بهم يتّجهون منذ ثلاثينيّات هذا القرن إلى سيرة الرّسول ، كلٌّ ينظر إليها من زاوية ثقافته واتّجاهه العلميّ أو الفنّيّ ؛ فنرى طه حسين يكتب « على هامش السيرة » يصوغ فيها مشاهد من حياة الرّسول ، صياغةً نثريّة جميلة ، ويكتب محمد حسين هيكل كتابَيْه « في منزل الوحي » ثم « حياة محمد » ، ويتبَعُ ذلك بكتابة سِيَرِ كبار الصّحابة ، ولكنه يتّجه في كتاباته اتّجاهاً علميا تاريخيا ، ويهتمُّ العَقّاد بإجلاء جوانب من شخصيّة الرّسول ﷺ والملامح ذاتِ الدّلالة في حياته ، في « عبقريّة محمد » ، حتى توفيق الحكيم الذي كان اتّجاهُه للكتابة المسرحيّة يحمل على الظّنّ بأنه بعيدٌ عن هذه الاهتمامات ، إذا به يُدلي بدَلْوه أيضاً في هذا المجال ، فيعمل على « مسرحة » السِّيرة النّبويّة في عمله الفنّيّ « محمد » ، الذي لم ينل من الاهتمام ما هو جديرٌ به .

أمّا الشّعرُ فلا يزال اهتمامُه بالرّسول ﷺ على أشدّه ، فشخصيّةُ محمد (عليه السّلام) مَعينٌ لا ينضب ، واستلهامُ الشُّعراء من شتّى جوانبها المضيئة لم ينقطع ، ويمكن أن نؤكّد أنه لن ينقطع أبداً ، ومهما كثر الحديثُ عن سيرته فما زالت الكلمة الشّعريّة قادرةً على أن تستكشف مساحاتٍ أخرى من شخصيّة الرّسول ، تستحقُّ أن تُسلّط عليها الأضواءُ من جديد .

ولسْنا نستطيع متابعةَ الشّعر الذي فاضت به قرائحُ شُعرائنا خلالَ العقود الأخيرة ، فهو يحتاج إلى دراسة خاصّة ، لا سيّما بعد التّطوُّر الذي أصاب الشّعر العربيّ منذ منتصف هذا القرن .

على أنّي أودُّ أن أنوّه في النّهاية بديوانٍ طريف ، أفْرِدَ كلّه تقريباً للمديح النّبويّ ؛ هو « محمد رسول الله » وقد صَدر منذ أربع سنوات[١] . و وجْهُ الطّرافة

(١) نشر دار الشروق ، القاهرة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م .

في هذا الدّيوان أن مؤلّفَه طبيبٌ جرّاح ذو شهرة عالميّة في مهنته وتخصّصه ، ولكنه يكشف لنا في الوقت نفسِه عن طاقةٍ شعريّةٍ عظيمة ، ترتفع به إلى درجة مَنْ فَرغوا للشّعرِ وسمتْ مرتبتهُم فيه . هذا الشّاعرُ الطّبيب الجرّاح هو الدكتور حسن إبراهيم ، الذي واصل في ميدان الجراحة – عَمَل والده العظيم عميد جرّاحي مصرَ خلالَ النّصف الأوّل من هذا القرن ، و واصلَ في الجمع بين الشّعر والطّبّ تقليداً عرفناه في ثقافتنا العربيّة منذ قديم ، وهو وجودُ أجيال من الأطبّاء الأدباء ؛ من أمثال أسرة بني زهر الإشبيليّين في الأندلس وإبراهيم ناجي في أدبنا المعاصر . ويبدو أن بريق بُردة البوصيري ما زال يَبْهَرُ أنظار شُعراء المديح النّبويّ حتى اليوم ، فنحن نرى الدكتور حسن إبراهيم يَفتتحُ ديوانه بمعارَضةٍ للبردة في مائة وثلاثة وعشرين بيتاً ، ويتبعها بتائيّةٍ تبدو معارَضةً لتائيّة دِعْبِل في رثاء آلِ البيت ، قالها الشّاعر وهو يقف على قبر الرّسول ﷺ ، وهي قصيدةٌ تَفيض بالخشوع وهو في هذا المقام الجليل :

مَشَيْتُ وفي قَلْبي وَجِيبٌ ورَهْبَةٌ ... إلى خَيْرِ قَبْرٍ ضَمَّ خَيْرَ رُفَاتِ
وهادِيَّ حُبّي نحو مَثْوَى محمّدٍ ... عَلَيْهِ لَعَمْرِي أطْيَبُ الصَّلَواتِ
وحَوْلِي مِنَ الأقْوَام حَشْدٌ مُيَمِّمٌ ... إلى حَيْثُ يَثْوِي مَنْبَعُ البَركاتِ
وفاضَتْ عُيونُ النّاس دَمْعًا وأجْهَشَتْ ... نفوسٌ لِمُنْجِيها من العَثَرَاتِ
وفي النّفس ما فيها من الحُبِّ والتُّقَى ... وفي النَّفْس ما فِيها من الحَسَراتِ
وَقَفْتُ وما بَيْنِي وبَيْنَ مُحَمَّدٍ ... قُرونٌ خَلَتْ لا هَذِهِ الخُطُواتِ
وعادَتْ بيَ الذِّكْرَى دُهُوراً سحيقةً ... إلى فَجْرِ دِينٍ عاطِرِ النَّفَحَاتِ

وهو يقفُ على مشاهدِ المدينة متحدِّثًا عمّا تثيره في نفسه من ذكرياتٍ ، يستحضرها ليقدِّم من خلالها ما اشتملت عليه من عِبَرٍ في حرارةٍ نابعة من إيمان صادق .

ولو مضينا نتتبّع هذا الشّعر النّبويّ في مصر وَحدَها ، دونَ سائر بلاد الإسلام لمّا انتهت بنا هذه الرِّحلةُ عند حدٍّ ، فلنقفْ سياحة القلم ، ولنذكرْ أن رُوح محمد رسول الله ما زالت تُظِلُّ عالَم الإسلام كلّه ، موحيةً بأطيب الكَلِم ، ولا غَرْوَ فهي قَبَسٌ من نور الله ، ونورُ الله مثلُ كلماته لا ينفَدُ ، وكلُّ كلمةٍ شعريّة قيلت في مديح الرّسول إنّما هي شعاعٌ مستمَدٌّ من كلماته تعالى : « قل لو كانَ البحرُ مِداداً لِكلِماتِ ربِّي لَنفِدَ البحرُ قبلَ أن تنفَدَ كلماتُ ربِّي ، ولو جِئنا بمثلِهِ مَدَدا » ...

المصادر والمراجع

أولا – المصادر

ابن الأبّار القضاعي البَلَنْسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله

التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق فرانسيسكو كوديرا Francisco Codera . مدريد ، ١٨٨٧–١٨٨٩ .

ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يَسار المطّلِبي

السيرة ، تحقيق محمد حميد الله . الرباط ، ١٩٧٦ .

ابن بَسّام الشَّنْتَريني ، علي

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٩ . ٨ مج .

ابن حَجَر العَسْقلاني ، شِهاب الدّين أبو الفَضْل أحمد بن علي

١– الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ، ١٩٧٠–١٩٧٢ . ٨ مج .

٢– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . حيدر أباد الدكن ، ١٣٤٨ – ١٣٥٠هـ / ١٩٢٩–١٩٣١م . ٤ مج .

ابن الخطيب الغَرْناطي ، لِسانُ الدِّين محمد بن عبد الله السّلماني

الإحاطة في أخبار غَرْناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٧٣–١٩٧٧ . ٤ مج .

ابن خَلْدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

مقدِّمة التاريخ (العِبَر وديوان المبتدأ والخبر) . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، د.ت .

ابن خَلّكان ، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر

وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٦٨ — ١٩٧٢ . ٨ مج .

ابن خير الإشْبيلي ، أبو بكر محمد

فهرسة ما رواه عن شيوخه ، تحقيق فرانسسكو كوديرا و خوليان ريبيرا . سرقسطة ، ١٨٩٣ . ٢ مج .

ابن رَشيق القَيْرواني ، أبو علي الحسن

العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٣٤ . ٢ مج .

ابن الزَّيّات التّادِلي ، يوسف بن يحيى

التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق . الدار البيضاء ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع

الطبقات الكبرى . بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م . ٩ مج .

ابن سَلام ، محمد بن سلام الجُمَحي

طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

ابن سَهْل ، إبراهيم بن سهل الإسْرائيلي الإشْبيلي

ديوانه ، تقديم إحسان عباس . بيروت ، ١٩٦٧ .

ابن شاكر الكُتُبي ، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد الدِّمَشْقي

فَوات الوَفَيات ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٣ . ٤ مج .

ابن الشّباط التّوْزَري ، انظر : ابن الكردبوس

ابن عبد الملك المراكِشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، السِّفر السادس ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٣ .

ابن عربي ، محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطّائي

١- الفتوحات المكية ، السفر الأول ، تحقيق عثمان يحيى . القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢- فصوص الحكم ، تحقيق أبو العلا عفيفي . القاهرة ، ١٩٤٦ . ٢ مج .

٣- ديوانه . طبعة بومباي الحجرية .

ابن الفارِض ، أبو حَفْص عمر بن علي بن المرشد

ديوانه . القاهرة .

ابن الكردبوس ، أبو مَرْوان عبد الملك التّوْزَري

قطعة من كتاب « الاكتفا في أخبار الخلفا » ، تحقيق أحمد مختار العبادي بعنوان « تاريخ الأندلس » ، ومعها قطعة في وصف الأندلس وصِقِلّيّة من كتاب « صلة السمط وسمة المرط » لابن الشباط المصري التّوْزَري محمد بن محمد ابن علي . مدريد ، ١٩٧١ .

ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام الحِمْيري

السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السّقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . ط ٢ . القاهرة ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . ٢ مج .

أبو زيد القرَشي ، محمد بن أبي الخطّاب

جَمْهَرَة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

أحمد بن حَنْبَل الشّيباني

المسند ، تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ، ١٩٤٦ . ١٥ ج .

الإصْفَهاني ، أبو الفرج على بن الحسين القرشي

الأغاني ، الأجزاء ١-١٦ طبعة دار الكتب المصرية ، والأجزاء ١٧-٢٤ طبعة الهيئة العامة للتأليف والنشر . القاهرة ، ١٩٧٠-١٩٧٤ .

البُخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

الصحيح . القاهرة ، ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م .

البُوصيري ، محمد بن سعيد بن حماد الصَّنْهاجي

ديوانه ، تحقيق محمد سيد كيلاني . القاهرة ، ١٩٥٦ .

التَّنَسي التِّلْمساني ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله

نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بو عيّاد . الجزائر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

الثَّعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النَّيْسابوري

يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٣٧٥-١٣٧٧هـ / ١٩٥٦-١٩٥٨م . ٤ مج .

الجاحِظ ، أبو عثمان عمرو بن بَحْر الكِناني

١- البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م . ٤ مج .

٢- الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٣٨٥-١٣٨٩هـ/ ١٩٦٥-١٩٦٩م . ٨ مج .

حَسّان بن ثابت الخَزْرَجي

ديوانه ، تحقيق سيد حنفي . القاهرة .

دِعْبل بن علي الخزاعي

ديوانه ، تحقيق عبد الكريم الأشتر . دمشق ، ١٩٦٤ .

الزُّبَيْدي الإشْبيلي ، أبو بكر محمد بن الحسن المَذْحِجي

طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، ١٩٧٣ .

السّخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد

الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع . القاهرة ، ١٣٥٣-١٣٥٥هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦م . ١٢ مج .

السيّد الحِمْيري ، إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ

١- ديوانه ، جمع وتحقيق شاكر هادي شكر . بيروت ، ١٩٧١ .

٢- القصيدة المذهبة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بشرح الشّريف المُرْتَضى . بيروت ، ١٩٦٩ .

السُّيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد

١- بُغْيَة الوُعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة ، محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤-١٩٦٥م . ٢ مج .

٢- جامع الأحاديث : الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير . القاهرة، ١٩٨٤ .

الشّريف الرّضي ، أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي

ديوانه . بيروت ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م . ٢ مج .

الشّريف المُرْتَضى ، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي

١- ديوانه ، تحقيق محمد رشيد الصفار . القاهرة ، ١٩٥٨ . ٣ مج .

٢- الأمالي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م . ٢ مج .

٣- شرح القصيدة المذهبة ، انظر السيد الحِمْيَري .

الصّفَدي ، صلاح الدين خليل بن أيْبَك

الوافي بالوفيات ، المجلدات الأربعة الأولى ، بعناية هلموت ريتر . ط ٢ ڤيسبادن ، ١٩٦١ .

صَفِيّ الدين الحِلّي ، أبو الفضل عبد العزيز بن سرايا

ديوانه . النَّجف ، ١٩٥٦ .

الصُّولي ، أبو بكر محمد بن يحيى

١- الأوراق ، تحقيق هيوارت دن . القاهرة .

٢- أبو العتاهية : أشعاره وأخباره ، تحقيق شكري فيصل . دمشق ، ١٩٦٥ .

الطَّبري ، محمد بن جرير

تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف . ١٠ مج .

الغُبْريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل نويهض . بيروت ، ١٩٦٩ .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري

الجامع لأحكام القرآن . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ .

القَلْقَشَنْدي ، أبو العباس أحمد بن علي

صُبْحُ الأعْشَى في صناعة الإنشا . ط ٢ القاهرة ، ١٩٦٣ . ١٤ مج .

كَعْبُ بن زُهَيْر بن أبي سُلْمى المزني

ديوانه . القاهرة ، دار الكتب المصرية .

الكَلاعِي ، أبو الرَّبيع سليمان بن موسى بن سالم الحِمْيَري البَلَنْسي

الاكتفا في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا ، المجلدان الأول والثاني ، تحقيق مصطفى عبد الواحد . القاهرة ، ١٩٦٨-١٩٧٠ .

المَرْزُباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى

معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج . القاهرة ، ١٩٦٠ .

مُسْلِم بن الحَجّاج القشَيْري

الجامع الصحيح . القاهرة ، ١٩١٥ .

المَقَّري ، أبو العباس أحمد بن محمد التِّلمساني الفاسي

١- أزهار الرياض في أخبار عياض ، المجلدات الثلاثة الأولى ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . القاهرة ،

١٩٣٩-١٩٤٢ . والمجلدان الرابع والخامس ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت وعبد السلام الهراس . الرباط ، المحمدية ، ١٩٧٨-١٩٨٠ .

٢- نَفْحُ الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٦٨ . ٨ مج .

المقريزي ، تقيّ الدين أحمد بن علي

١- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) . القاهرة ، ١٣٢٤-١٣٢٦هـ / ١٩٠٦-١٩٠٨م .

٢- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، ١٩٦٧-١٩٧٣ . ٣ مج .

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول في ثلاثة أقسام ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، ١٩٣٤-١٩٣٩ .

مِهْيار الدَّيْلَمي ، أبو الحسن مهيار بن مرزويه

ديوانه . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ . ٤ مج .

المؤيّد في الدين الشّيرازي ، هبة الله بن موسى داعي الدعاة

المجالس المؤيدية ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، تحقيق محمد عبد القادر عبد الناصر . القاهرة ، ١٩٧٥ .

النَّابِغَة الجَعْدي ، أبو ليلى قيس بن عبد الله بن عدس

ديوانه ، تحقيق عبد العزيز رباح . دمشق .

ياقوت بن عبد الله الحَمَوي الرُّومي

١- معجم البلدان . بيروت . ٥ مج .

٢- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، نشر أحمد فريد الرّفاعي . القاهرة ، ١٩٣٦-١٩٣٨ . ٢٠ مج .

اليَغْموري

نور القَبَس المختصر من المُقْتَبَس ، تحقيق رودلف زلهايم . النشرات الإسلامية ، ١٩٦٤ .

ثانيا – المراجع العربية والمترجمة

إحسان عباس

الشّريف الرّضي

أحمد أمين

١– ضُحَى الإسلام . ط ١٠ بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت. مج ٣ .

٢– زعماء الإصلاح في العصر الحديث . ط ١٠ بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت .

أحمد الحوفي

الإسلام في شعر شوقي . القاهرة ، ١٩٦٢ .

أحمد شوقي

الشّوقيات . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٧٠ . مج ٢ .

أحمد مُحرّم

ديوان مجد الإسلام ، أو الإلياذة الإسلامية ، تصحيح محمد إبراهيم الجيوشي . القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

البارودي ، محمود سامي

كشف الغُمّة في مدح سيد الأمة . القاهرة ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

بروكلمان ، كارل

تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩–١٩٧٧ . ٦ مج .

حسن إبراهيم

محمد رسول الله . القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

زكي مبارك

المدائح النبوية . القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧١ .

شوقي ضيف

١- مجموعة تاريخ الأدب العربي

العصر الجاهلي . ط ٤ القاهرة ، ١٩٦٠ .

العصر الإسلامي . ط ٤ القاهرة ، ١٩٦٣ .

العصر العباسي الأول . ط ٣ القاهرة ، ١٩٦٦ .

العصر العباسي الثاني . القاهرة ، ١٩٧٣ .

عصر الدول والإمارات : الجزيرة العربية ، العراق ، إيران . القاهرة ، ١٩٨٠ .

عصر الدول والإمارات : مصر والشام . القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢- البلاغة : تطور وتاريخ . ط ٣ القاهرة ، ١٩٦٥ .

٣- المدارس النحوية . ط ٣ القاهرة ، ١٩٧٦ .

٤- البارودي رائد الشعر الحديث . القاهرة ، ١٩٦٤ .

٥- شوقي شاعر العصر الحديث . القاهرة ، ١٩٥٣ .

طه حسين

في الأدب الجاهلي (الكتاب الأول في مجموعة « من تاريخ الأدب العربي ») إعداد وتقديم شكري فيصل ، المجلد الأول . بيروت ، ١٩٧٠ .

عبد الله عبد الرحمن الجعيثن

شعر الدعوة الإسلامية ، جمع وتحقيق . الرياض ، ١٩٧٤ . مج ٣ .

عبد الحسيب طه حميدة

أدب الشيعة . القاهرة ، ١٩٦٧ .

عبد الحميد حاجيات

أبو حَمّو موسى الزّيّاني : حياته وآثاره . الجزائر ، ١٩٧٤ .

عبد الحي الكتّاني

التراتيب الإدارية (أو نظام الحكومة النبوية) . بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت. ٢ مج .

عرفان شهيد

العودة إلى شوقي (أو بعد خمسين عامًا) . بيروت ، ١٩٨٦ .

محمد حامد الحضيري

رسول الإنسانية محمد (صلوات الله عليه) في الأدب العربي الحديث . القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

محمد محمود الدّش

أبو العتاهية : حياته وشعره . القاهرة ، ١٩٦٨ .

محمود علي مكي

السيرة النبوية في التراث الأندلسي . القاهرة ، مجلة الهلال ، أغسطس ١٩٧٨ .

Granja Santamaría, Fernando de la :

- Fiestas cristianas en al-Andalus, en Al-Andalus, vol. XXXIV, 1969, pp. 1-53

فرناندو دي لاجرانخا سانتا ماريا

الأعياد المسيحية في الأندلس ؛ بَحْث بالإسبانية ، مجلة الأندلس ، المجلد الرابع والثلاثون ، ١٩٦٩ ، ص ١-٥٣ .

ترمي سلسلة «أدبيات» ، في كل كتاب يصدر فيها ، إلى معالجة موضوع أو قضية أدبية معالجة عامة شاملة يفيد منها القارئ العام والقارئ المتخصص . والسلسلة في مجموعها تمثل موسوعة أدبية متكاملة ، ولا تقتصر في تناولها للموضوعات على الأدب العربي فحسب ، بل تتجاوزه إلى الآداب غير العربية . والسلسلة وصفية ، تعنى أساسا بتعريف القارئ بالموضوع ، وتنأى عن الأحكام القاطعة في القضايا الأدبية الجدلية أو الحافلة بالخلافات .

أدبيات

١ـ الأدب المقارن
٢ـ أدب الرحلة
٣ـ المدائح النبوية
٤ـ أدب السيرة الذاتية

يطلب من: شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة